

عبد الرّحمن منيف

الأشجار واغتيال مرزوق

عبد الرّحمن مُنيف

الأشجار واغتيال مرزوق

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الثقافي العربي

* الأشجار واغتيال مرزوق
* تأليف: عبد الرحمن منيف
* تصميم الغلاف: مروان قصاب باشي
* الطبعة الثالثة عشرة، 2008

ISBN: 978-9953-36-241-6

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، الصنائع، بناية عيد بن سالم
ص.ب: 5460/ 11، العنوان البرقي: موكيالي
تلفاكس: 751438-01/ 752308-01
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
beirut@airpbooks.com

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
ص.ب: 9157 عمّان 11191 الأردن
هاتف: 5605431-6-962 /2
فاكس: 5685501-6-962
E-mail: info@airpbooks.com
www.airpbooks.com

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية ـ الدار البيضاء:
(الأحباس) ص.ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 2303339-2-212
فاكس: 2305726-2122
E-mail: markaz@wanadoo.net.ma

لبنان ـ بيروت:
الحمراء ـ شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
ص.ب: 5158/ 113
هاتف: 352826-1-961
فاكس: 343701-1-961
E-mail: cca_casa_bey@yahoo.com
cca@ccaedition.com
www.ccaedition.com

القسم الأول

1

لا تضعف، أتسمع ما أقول لك؟ لا تضعف. وهذه الأشياء الأخيرة، التي قد تخلف في نفسك ذكرى أو تخلّف عاطفة، اتركها. لقد اجتزت القنطرة كلها وحدك، ولا حاجة بك الآن لأن ترى في العيون ذلك الأسف المستسلم. انهم لا يفكرون فيك، وحتى لو قالوا لك شيئاً فإنَّهم يُعلمون أنفسهم. اترك كل شيء وراءك. واذا استطعت، فلا تنظر إلى الخلف أبداً!

أمَّا انك لم تقل لأحد متى ستسافر، فتأكّد ان راحة أقرب إلى اللذة ستسيطر عليهم. لقد أعفيتهم من الكلمات الكبيرة التي تطوف برؤوسهم ساعة الوداع. لو جاؤوا لقال كل واحد منهم شيئاً بطريقته الخاصة. أمَّا الآن فإنَّهم ينامون، نعم ينامون، وانت في هذه الساعة المتأخرة تتحسس جيوبك للمرة الألف، لتتأكد ان كل شيء موجود: جواز السفر، بطاقة القطار، الشهادة الصحية، والموافقة على العمل.

ما تزال الملامح الوقورة، الجادة، تظهر بقوة على وجهك وأنت تتصفح جواز السفر، تنظر إليه بحياد جارح، كأنَّه في لحظات معينة لا يعنيك ابداً، وبعد ان تمر على جميع صفحاته، حتى البيضاء، وتتأكّد من كل شيء، يرتاح وجهك. ثم تعاود النظر إليه من جديد، وكأنَّك تراه لأول مرة. تنظر إلى الصورة، إلى الاسم، إلى التواقيع الخضراء والزرقاء، وبعد ان تتأكّد تسحب الشهادة الصحية،

تقلب أوراقها، تقرأ التعليمات باللغتين العربية والفرنسية، تتوقف عند بعض الكلمات، تفكر، ثم توافق بشكل ما على الترجمة!

لا أحد يصدق كم انتظرت حتى حصلت على هذه الأوراق اللعينة. نعم لا أحد على وجه الكرة الأرضية يتصور ان أوراقاً مثل هذه، لا يكلف انجازها نصف ساعة، تنتظرها أكثر من سنتين.

ولكن ما هو الزمن؟ ماذا يعني بالنسبة للآخرين؟ وماذا يعني بالنسبة لك؟

لماذا تطرح الموضوع بهذا الشكل الخاطىء؟ لماذا تنظر إليه من زاوية الزمن الحسابي الأصم، زمن الشهور والأيام؟

جواز السفر لا يعني هذه الوثيقة الصغيرة التي بين يديك. تخطىء كثيراً اذا تصوّرت الأمر هكذا! والملفات الكبيرة؟ والتقارير؟ حتى المختار كان يستطيع ان يمنعك من السفر، ولكن الورقة النقدية الخضراء، وأنت تضعها بخوف على الطاولة، جعلت كل شيء يتغير في لحظة: ابتسم. قال لك: تفضّل يا ابني.

والرجال الذين انتظروا عند البيت؟ والذين سألوا بائع السجائر وصاحب الفرن؟ الرجال الذين طاردوك في الأزقة، وجلسوا في المقهى على الطاولة التي جلست عليها، ونظروا إليك، ثم تشاغلوا ونظروا إلى بعيد، أتتصور ان هؤلاء سهوا عنك لحظة واحدة؟ لا تتوهم. كانت آذانهم لا تسهو، كانت آذانهم تلتقط كل شيء. وخلال اليوم ذاته، بعد ان تتحول كلماتك إلى أصوات ميتة في الهواء، تنفجر مرة أخرى، تصبح أشباحاً وهي تتراكم في الملفات الزرقاء والحمراء!

وفي اليوم التالي ينظر إليك رجل يجلس وراء طاولة لامعة، ينظر إليك وابتسامة واثقة على وجهه، ويده تداعب الخاتم ذا الحجر الأخضر، في الأصبع الصغير. وبعد ان يتأكّد ان نظراته اخترقتك تماماً، يسحب فجأة الابتسامة واليد عن الخاتم، ويسألك. ترتبك.

تجيب بصوت مرتجف. تفكر، تحاول ان تبتسم ببلاهة.. ثم يقول لك «سوف نرى». وتنتظر شهوراً!

ألا يضاف هذا إلى الزمن؟ حاول ان تتصوّر الأمر بدقة أكثر: يتابعونك طوال النهار. يتابعونك طوال الليل. يجلسون أينما جلست. يستمعون. ينظرون. وعندما تنام لا يكون عملهم قد انتهى، يجب أن يرفع التقرير في نفس الليلة. والرجل الصغير في الغرفة المسدلة الستائر يقلب الأوراق بين يديه. يتصورك وأنت تشتم، وأنت تهمس بكلمات غامضة، ثم يضع خطوطاً حمراء تحت عبارات معينة، ويرفع التقرير مع ورقة صغيرة مثبتة بدبوس. ويقرأ الرجل الآخر، وبقلم اخضر يكتب: «لمقاطعة المعلومات، مع موافاتي بالملف كاملاً».

والموافقة على العمل؟

اترك كل شيء الآن. حاول أن تنسى.

والأصدقاء؟ لا تخف اذا افتقدوك، فسوف يعرفون بعد فترة انك سافرت. قد يعتبون. ولكن تصوّر انك قلت لهم! لقد مرت الواحدة، وها هي ذي الساعة تقترب الآن من الثانية، والقطار في مكانه لم يتحرك. تصور انهم ينتظرون الآن! حلقة صغيرة حولك، كلمات، نكات، وصايا، ولا تعرف أي شيء آخر. ويتثاءبون، ينظرون إلى الساعة، إلى مأمور المحطة، إليك، وقد أصابهم التعب. يجب ان يقدروا لك هذا الموقف. أمّا العتاب الذي يحرجك فلن تسمعه، لن تتاح لهم فرصة لأن يقولوه!

والسفر بالدرجة الثانية؟ لا يجوز لأحد أن يناقش هذه القضية. أنت وحدك تقرر، وأنت تقرر لاعتبارات كثيرة: الامكانيات المادية، التواضع، الاحتكاك بالناس. قل لنفسك اي شيء. كان وجه قاطع التذاكر جامداً. سألك بحياد صخري: «درجة أولى؟ ثانية؟» ارتبكت، كدت تقول له درجة أولى، ولكنك صمدت في وجه التحدِّي.

وبصوت أقرب إلى الخشونة، وكأنَّك تدافع عن نفسك، قلت: درجة ثانية. انتهى الأمر بسرعة. أعطاك البطاقة دون ان ينظر إليك، ودون ان تقول كلمة واحدة!

وضعت الحقيبة بهدوء وجلست باتجاه سير القطار. هذا الدرس تعرفه جيداً. انتظرت. القطار في مكانه لا يتحرك. الناس على الرصيف. أناس لا ملامح لهم، أناس لم ترهم من قبل: باعة، مسافرون، حمَّالون، عمال القطار والمحطة. وأنت في عربة الدرجة الثانية، تتحسّس الجواز والبطاقة والموافقة على العمل.

ـ مرحباً يا أخ. قال ذلك بلهجة جازمة، وهو يطل برأسه الأشيب من باب العربة.

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ المحلات عندك فارغة؟ سأل وهو يتقدم بكتفه اليمين حاملاً حقيبة صفراء مهترئة!

ـ تفضل.

رمى الحقيبة بتعب على أرض العربة، وقال بسخرية:

ـ محجوز. محجوز. كله محجوز، كذب، زعبرة، كل واحد يريد قطاراً لحسابه الخاص.

وأضاف بلهجة جديدة:

ـ مشواري قصير، ولن أزعجك!

ـ تفضّل، كل هذه المحلات فارغة.

قال كأنه يعتذر:

ـ المحلات في القطار كثيرة، كثيرة جداً، ولكن كل واحد يريد ان يتمدّد، أن ينام...

صمت لحظة ثم أضاف:

ـ لا يشبع عيون الناس إلاَّ التراب!

كان يبدو في الخمسين، ضعيفاً ناتىء عظام الوجه، تبرز رقبته داخل القميص الواسع وكأنَّها رقبة طير. عيناه بين الرمادي والأزرق، ضاحكتان بسخرية. وملابسه فضفاضة متناقضة الألوان. يضع غصناً أخضر في عروة سترته الزرقاء ذات الأزرار الذهبية اللامعة. وعلى كتفه يعلق مطرة عسكرية لونها أصفر كامد.

ما كاد ينظر إلى ما حوله براحة واطمئنان حتى انتزع المطرة بعناية وعلقها، وربت عليها كأنه يداعب وجه امرأة.

يصفر القطار، يدخل رجل سمين. يدخل بضجة وهو يحمل حوائج عديدة بيديه الاثنتين:

ـ السلام عليكم.

ودون ان ينتظر جواباً يرتمي على المقعد وهو يلهث. وصفر القطار للمرة الثالثة. وجاءت ساعة الرحيل!

2

المدينة تبتعد، وتبتعد معها الأضواء التي بدت، أول الأمر، مثل نجوم في سماء مقلوبة، ثم أخذت تنتظم في أشرطة طويلة متداخلة، تهتز مع اهتزازات القطار الذي يصعد باتجاه الشمال. عندما تزايدت سرعة القطار أصبحت حركات رتيبة كأنَّها ضربات قلب حيوان خرافي، وتزايد معها الدفء والنور في مقصورة الدرجة الثانية، فبدت الصور وهي تنعكس على الزجاج اشد وضوحاً رغم قتامها، وبدأ الليل في الخارج عميقاً داكناً. أمّا الهواء فقد أصبح ثقيلاً وهو يمتزج برائحة الدخان والذكرى، فيولد في النفس شعوراً ثقيلاً وحزيناً.

ـ ثلاث ساعات ونصل الحدود.

قالها الرجل السمين وهو ينحني إلى الأرض ليخلع حذاءه، فبدت رقبته من الخلف حمراء محتقنة. قالها دون ان يرفع عينيه.

ـ وهل يقف القطار فترة طويلة على الحدود؟

واعتدل في جلسته. كانت عيناه تغوران في وجه عجيني مترهل، يبرز فيه أنف كبير مثل كتلة مطاط. نظر إلينا بحزن وقال:

ـ هذا يتوقف على عدد الركاب، على وجود مشاكل.

وبصعوبة أخذ نفساً ثم أضاف بلهجة مستسلمة:

ـ حسب التيسير، ولكن المعدل بين ساعتين وثلاث ساعات!

«بقيت لي بضع ساعات في هذا البلد، وبعدها أغادره! لن أرجع مرة أخرى. نعم لن أرجع. وحتى لو رجعت فلن يكون ذلك قبل عشرين سنة. سأتلاءم مع عملي الجديد. واذا طردت منه فسوف اجد عملاً ثانياً. أمّا اذا لم يلائمني البلد فسوف افتش عن بلد آخر. المهم: أن لا أرجع. سألني:

ـ أتسافر أول مرة؟

«أفكر وأنا أنظر إليه. هل أبدو مسافراً لأول مرة؟ ماذا يهمه من أمري؟»

ـ على هذا الطريق، أول مرة!

رفع الرجل السمين رجليه الاثنتين على المقعد، وفكَّ رباط عنقه.

«الرجل يأخذ حريته. أنا لا أشكّل بالنسبة له حالة حضارية ما دمت أجهل هذا الطريق. بدأ يغزوني، يريد أن يسيطر عليّ!».

ـ تفضل. مددت إليه علبة السجائر.

ـ شكراً لا أدخن والحمد لله!

«اذن لا يشرب، يصلي، يصوم، وربما يسرق!»

ـ تفضل. مددت علبة السجائر للرجل الضعيف الذي يجلس بجواري.

ـ أي والله، شكراً.

«هذا الرجل نوع آخر. يجلس على نفس مقعدي، بعيداً في الزاوية. يفكر بشيء ما. على حذائه المغبر آثار مشي طويل!»

ـ عفواً.. عفواً.. ولع.

«لولا السجائر لاشتعل العالم بالحرائق. يجب أن يشعل الانسان شيئاً ما، ان يحرق شيئاً ما!».

ـ إلى أين إن شاء الله؟

ودون تفكير تنزلق الاجابة:

- إلى الجنوب!

- إلى أين؟

- إلى الجنوب. طبيعي سأمر في شمال البلاد أولاً. ثم أذهب إلى أقصى الجنوب.

- عمل أم سياحة؟

«ماذا أقوله له؟ هل أنا مضطر للاجابة؟ ما يهمه اذا كنت ذاهباً للسياحة او للعمل؟ هل سألته؟ ليذهب إلى الجحيم. ليذهب هو وفضوله. لو انصرفت للقراءة لوفرت على نفسي هذا الاستجواب القاسي، انه يستثمر الغزو الذي بدأه. أصبحت الآن في حالة دفاع عن النفس!»

- سياحة من أجل العمل!

- تقصد للتفتيش عن عمل؟

- تقريباً.

«قرّرت مائة مرة ألاّ أكذب. ولكن ازاء وضع مثل هذا كيف أتصرف؟»

- هذه الكتب عربية؟

- ليس كلها، بعضها عربي وبعضها فرنسي!

«التنقيب عن الماضي واحد من الكتب التي ترتاح على الطاولة الصغيرة أمامي. هل أبدأ بقراءته الآن؟ الاستيعاب عملية معقدة جداً. عندما يكون الذهن مشتّتاً يقرأ الانسان دون ان يفهم. لكن لو تذكر كل ما قرأ لانفجر عقله. النسيان اسهل طريقة للحياة!»

- هل العمل تجارة؟

- لا. أبعد من ذلك بكثير. آثار يا سيدي!

وصمت اريد أن أرى الذهول في عينيه وهو يفكّر بهذه الكلمة «الآثار»، انها من كلمات الصدمة، تماماً مثل كلمة قاتل، قاطع

طريق، حفّار قبور. حققت الكلمة نتائجها بسرعة. دوت في رأسه مثل صفارة انذار. تراجع وهو يقلب شفتيه. حاولت ان استفزه.

هل لديك فكرة عن الآثار؟

«حان دوري، يجب أن أستفزه أكثر. اذا كان رجلاً فليتحمل. ليس العالم صغيراً كما يتصوّر، ليقارن كل شيء بعمله حتى يكتشف كم هو بعيد ومنبوذ».

ـ رأيت بعض الآثار، ولكن على العموم لا أميل إليها!

ـ لماذا؟

ـ مجرد حجارة وقصور مهدمة، وأستغرب كيف يهتم بها الناس.

«لأواصل الهجوم، ولكن يبدو لي انني فقدت الزاوية القوية التي كنت أتصور أنّني سأحارب منها».

ـ ما هو عملك من فضلك؟

ـ تاجر!

ـ أي نوع من التجارة؟

ـ تجارة متنوعة: أقمشة، حبوب، سمن!

قال الرجل الضعيف من زاويته البعيدة بصوت خجول:

ـ عفوا أستاذ، في قلب بلدتنا «الطيبة» توجد آثار. لا بدَّ انك تعرفها وربما زرتها!

ـ مرة واحدة، قبل سنتين، كانت زيارة قصيرة.

ـ كل سنة يزورنا عدد كبير من الأجانب، وبعض الأحيان أولاد عرب. رحلات مدارس وغيرها!

الليل في الخارج مثل خيمة سوداء قاتمة. القطار يلهث وهو يصعد التلال باتجاه الحدود. الرجل السمين ينظر إليّ نظرة يمتزج فيها التقدير الغامض بالشك، يرثي لهذا الرجل الذي يراه امامه،

يسافر في الليلٍ من أجل الحجارة القديمة وقطع الفخار. يقول في نفسه: ان شيئاً في هذا العالم فقد مركز توازنه، ونتيجة لاختلاله، اختل كل شيء! رأس غنم يعادل عشرات القطع الفخارية. كيس قمح يعادل كل القصور المهدمة. ما نفع هذه القصور؟ لماذا يزورها الناس؟ ويا للسخرية يأتون من أقاصي الدنيا!

أمال رأسه إلى الخلف، وأغمض عينيه استعداداً للنوم.

رجل الزاوية الضعيف ينظر إليّ. أرى صورته تنعكس على الزجاج. يمد يده إلى جيبه. يخرجها، يمدها مرة أخرى. يسحب علبة سجائر ويمدها نحوي:

- تفضل، استاذ. ابتسامة رجاء ترتسم على شفتيه.

أتناول سيجارة، وبلهجة ودود سألته:

- مشوارك بعيد؟

- لا . . . بعد الحدود بعشرة كيلومترات. أول مدينة بعد الحدود!

كان يريد أن يقول أشياء أخرى، ولكنه توقف. أولعت له السيجارة، ومع اول نفثة من الدخان، ويده تربت على يدي، قال بسرعة:

- يكفيك شرها!

غمغمت بكلمات كانت أشبه بصوت حيوان، رداً على كلماته. تطلع إليّ بعيون محددة، كأنَّه يريد شيئاً، أو أنَّه يفكر بشيء. قلّب نظراته بحيرة بيني وبين ذاك السمين الذي بدأ يغط في نوم عميق. رفت عيونه وأنا أبادله النظر. انكمش في زاويته بعد أن خنق رغبة راودته وهو ينظر إلينا، ولكن انتفض وسألني فجأة وبشكل عصبي:

- أريد أن أشرب العرق. . أتسمح لي؟

وقبل ان أجيب واصل:

- هل تشرب العرق؟

لم أجب. حالة توجس تتقابل فيها الرغبة بالخوف بالشك. ولكن عندما مد يده إلى المطرة التي كانت معلقة، وانتزعها، لانت ملامحه، كانت تدعوني بإغراء. وما كاد يفتح الغطاء ويصب فيه العرق حتى تغيّرت جلسته. وبطريقة لا تحمل الرفض قال لي:

- تفضّل يا أستاذ...

- لا.. لا.. اشرب أنت!

بدت كلمتي عصبية. تراجع قليلاً وشرب، ثم ملأه وقدمه إليّ وهو يمسح فمه بظهر يده.

تناولت غطاء المطرة وشربت. شعرت ان عربدة حزينة ومجنونة تشمل كل خلية فيّ.. «العرق في أول الرحلة يا منصور؟ قلت لنفسك لن تشرب، ستتركه، وها أنت تبدأ قبل ان تجف الايمان التي اقسمتها! تقول أصبح قدري، رفيقي في كل وقت! أنت حر، إفعل ما تشاء، ولكن لماذا أقسمت؟ ليس هذا كل شيء، وتشرب من عابر طريق! لماذا أعذب نفسي؟ اريد أن أشرب، نعم أريد أن أشرب والسلام!».

يخيم الصمت. انظر في الفراغ، وأفكاري تتابع رحلة عابثة، ويصلني صوته كأنَّه آت من عالم آخر:

- أتسمح أن أسألك يا أستاذ؟

- تفضّل!

- ما رأيك بآثار الطيبة؟ هل هي مهمة او غير مهمة؟

- والله لا أعرف بدقة.

ودون ان أتركه يشك في كلامي أضفت:

- أنا جديد على صنعة الآثار، أريد الآن أن أبدأ العمل! «لماذا لا أقول الحقيقة كلها؟ ما علاقتي بالآثار؟ ان العمل الذي وافقوا على

إسناده إليّ أن أكون مترجماً، مترجماً فقط».

ـ إذن مثلي مثلك، نحن متشابهان!

ـ كيف؟

ـ أنا الآن أقوم بثاني مشوار في عملي الجديد.

ـ أي عمل؟

ـ اشتري ملابس قديمة، وأبيعها في أول مدينة بعد الحدود.

ـ وتربح من ذلك؟

ـ ربك ساترها؟

ـ وهل هذه تجارة مسموح بها؟

ـ في الأساس ممنوعة. واذا ارادوا ان يشددوا يعتبرونها تهريباً، ولكن الجماعة في الحدود، على الجهتين، موافقون. وابتسم وهو يقول بصوت مختلف: سجائر. جوارب. دواء. عرق. وغيَّر لهجته مرة أخرى وأضاف: مستورة يا سيدي!

نظرت إليه من جديد. كان ضعيفاً، وملامحه تشي بالحزن. وفي لحظة بدا لي كومة من الملابس القديمة، وما كاد يحس بنظراتي التي تكتشفه، حتى رفع رجله في الهواء، وبدأ يعد السراويل التي يلبسها، وهو يضحك! ثم فتح السترة العريضة، فبان تحتها ثلاث سترات أخرى!

«إذن يمكن للانسان ان يجد عملاً. نعم، العمل هو الشيء الوحيد الذي يفتش عنه الانسان، يغامر من أجله، حتى لو تعرض للخطر، للموت. البطالة موت من نوع آخر. لماذا لم أفكر بعمل من هذا النوع؟ ان أصبح مهرباً للملابس القديمة؟ أليس عيباً؟ العيب يا منصور ان تكون دون عمل. شرف الانسان أن يعمل. حتى البغي وهي تعمل لتكسب خبزها، أشرف من الذين لا يعملون!».

السيد فرنسوا مارتان، 74 شارع مدام كوري، باريس.

أتشرف بتقديم وافر التحية والاحترام، وأشعركم أنِّي قرأت الاعلان الذي نشرتموه مؤخراً، حول حاجتكم لمترجم يتقن اللغتين العربية والفرنسية.

وباعتبار ان المؤهلات المطلوبة تتوفر لدي، أكون شاكراً لو تفضلتم بالموافقة على استخدامي، وضمن الشروط المعلنة، وبانتظار ردكم تقبلوا فائق التقدير.

ملاحظة:

زيادة على اتقاني اللغتين العربية والفرنسية، اشعركم اني حاصل على مؤهل عال في التاريخ من جامعة بروكسل، وقمت بتدريس التاريخ في الجامعة لمدة ثلاث سنوات.

بعد اسبوعين تلقيت الرسالة التالية:

«السيد منصور عبد السلام. ص.ب 923...

اطلع المسيو فرانسوا على رسالتكم، وإذ يبعث إليكم تحياته، يشعركم بالموافقة، مبدئياً، على ان تعملوا معنا، وسيكون الراتب خلال الشهور الأربعة الأولى، ضمن الحد الأدنى، كما في الاعلان، يصار بعدها إلى التعاقد معكم لمدة سنتين، ويحدد الراتب باتفاق الطرفين.

في حالة موافقتكم يرجى اشعارنا بأسرع وقت ممكن، وفي فترة أقصاها نهاية آب. علماً بأنَّ وجودكم في مواقع العمل يجب ألاَّ يتأخر، بأي حال من الأحوال، عن الأول من تشرين الأول».

باريس 4 تموز

التوقيع: شارل بونيه

3

«بهذه الطريقة تحولت من عاطل الى مترجم. من استاذ في التاريخ المعاصر إلى شيء ما في عالم الآثار والماضي! أشعر الآن ان طعم الدخان في حلقي لذيذ ومنعش، وكأن السيجارة التي تشترى بعرق الجبين لا تشبه تلك التي يكون ثمنها ديناً!

كنت مستعداً لأن أعمل بواباً، حمالاً، قاطع تذاكر. المهم أن أخرج من هذا البلد اللعين، وأن أجد عملاً.

لم تبقَ إلاَّ ساعات وأُغادر أرض الوطن. نعم أُغادر الوطن، وربما إلى الأبد. لن أرجع. سوف أنسى كل أبيات الشعر التي تعلمتها في المدرسة، أنسى الحنين والمشاوير والقمر في الصحراء، (قلت لأختي وأنا أسحب يدي بحزن، وشعور الحرج يملأ كل خلية في عقلي عندما رأيت دموعاً صغيرة تسقط على خديها، قلت لها: لن يستمر عمل البعثة الأثرية أكثر من سنتين، سأعود بعدها، وربما عدت قبل ذلك... المهم الآن يا عزيزتي أن أجد عملاً!).

«ما هو الوطن؟ الأرض؟ التلال الجرداء؟ العيون القاسية التي ينصهر منها الحقد والرصاص وكلمات السخرية؟ الوطن أن يجوع الانسان؟ أن يتيه في الشوارع يبحث عن عمل ووراءه المخبرون؟

ما أقسى تلك الأيام. ولكن لم يبق منها إلاَّ ساعات وتنتهي! إذا

وقف القطار في المحطة الأخيرة، يجب أن أجبر نفسي على أن أُبول هناك. لا أريد أن أحمل شيئاً معي. حتى تلك الذكريات البائسة التي تنطبع على وجهي، على ملابسي، أريد أن أتركها. أريد أن أكون انساناً جديداً، لا علاقة له بهذه الأرض».

«الوطن! تصور هذه الكلمة كم هي كبيرة وخطيرة. الوطن كما أصبحت مقتنعاً، وبعد تجربة مريرة دامت أكثر من عشرين سنة، الوطن المكان الذي يعمل فيه الانسان، بين الرجال الذين يعرفهم ويحبهم. لقد أصبحت واقعياً. زالت من ذاكرتي الأفكار الحالمة. لم أعد أفهم الأشياء كما كانت تقال، أصبحت لها دلالات صلبة، حارة، ومن أجلها يمكن أن أحارب!».

ـ عفواً استاذ! أريد ان أزعجك، هل يمكن ان تساعدني بأن تأخذ سترتين حتى نعبر الحدود فقط؟

ـ بسيطة، هات.

ومثل ثعلب عجوز يقف فوق المقعد، بعد ان خلع حذاءه. بدا سعيداً كأنَّه طفل، تحت النور القوي الذي ينصب من السقف. فتح الحقيبة الكبيرة المهترئة وسحب سترتين، ثم هبط.

ـ يمكن ان تلبس واحدة، وتعلق الثانية وراء ظهرك!

ـ أعطني. سوف أضع واحدة في حقيبتي والثانية اعلقها هنا.

ـ كما تشاء.. ولكن الأفضل أن تلبس واحدة. سأعلق هنا واحدة. وأشار إلى المكان الفارغ بيننا.

بانت على وجهه آثار الفرح والحيرة، ثم قال بلهجة متسائلة:

ـ يمكن أن نعطيه واحدة أو اثنتين، وأشار بيد مسترخية إلى الرجل الذي يقابلنا وكانت في عينيه مرارة عذبة.

ـ اعتقد انه لن يقول شيئاً!

ـ ولكننا لا نعرفه.

ـ لا يحتاج الأمر إلى معرفة. خدمة بسيطة لا تكلفه شيئاً.

ـ ربما لا يقبل.

ـ نحاول.. لن نخسر شيئاً إذا حاولنا!

ـ ولكنه نائم الآن.

وبعد قليل أضاف:

ـ لا.. لا حاجة.. اذا كان اليوم دور الذين أعرفهم، الذين كانوا في المرة الماضية، فلن يسألوا:

ـ ألست متأكداً تماماً؟

ـ أظن انهم نفس الجماعة.

ـ وإذا لم يكونوا؟

ـ إذا كان غيرهم، مشكلة.

قال ذلك وعيناه، ترفان بحيرة، وأضاف كأنَّه يخاطب نفسه: تعال فاوض من جديد. يتظاهرون بالصرامة والقسوة لكي يحصلوا على مقابل أكبر. يقولون: أنت مهرب، ها؟ ألا تعرف ان هذه الأشياء ممنوعة؟ لا يمكن ان تتوبوا حتى تأكل السجون من جنوبكم! وبعد مشاورات مفضوحة يناديك أحدهم، ويتم الاتفاق!

والتفت إليّ وقال بلهجة حزينة:

ـ لقد دفعت في المرة الماضية مبلغاً كبيراً، ولم ينته الأمر أيضاً، أوصوني على ألف شغلة.

وصمت. نظر إلى الزجاج، ثم هزَّ رأسه وحرَّك يديه دلالة اللامبالاة، وقال:

ـ الذي ترميه السماء تتلقاه الأرض!

ـ بعد هذه الأتاوات أتكون العملية مربحة؟

ـ إذا مشي الحال دون ابتزاز كثير تكون مربحة، ولكن ماذا

تعني مربحة؟ تعني مستورة، وبعض الأحيان ربحها التعب والاهانات.

وهزَّ رأسه وأضاف وهو يبتسم:

ـ العيش مطلوب يا استاذ، والصغار يريدون ان يأكلوا. وضرب على رجله بثقة وقال بنبرة عالية متحدية: دبّر نفسك يا الياس!

«آه لو امتلك السلطة، لو امتلكها يوماً واحداً لدمرت هذا العالم. العالم لا يحتاج إلاَّ التدمير. لقد فسد كل شيء فيه، تفتت خلاياه، تعفن، لم يعد ممكناً اصلاحه أبداً. يجب أن يدمر نهائياً، لعلَّ عالماً جديداً يقوم على أنقاضه. لعلَّ بشراً من نوع جديد يأتون من صلب عالم آخر، لكي يطهروا هذه الأرض التي تعلوها الآن طبقة سميكة من القذارة والتفاهة».

وأتذكّر...

«ليس للجامعة علاقة بهذا الأمر، ولا نستطيع ان نفعل شيئاً. التسريح من جهات عليا. من السلطة السياسية. مهمتي الوحيدة أن أبلغك!

ـ ولكني أريد معرفة الأسباب.

ـ لا أعرف شيئاً عن الأسباب. القرار خال من الأسباب!

ـ والجامعة، ألا تستطيع أن تفعل شيئا؟

ـ ماذا يمكن أن نفعل؟

ـ أن تمنعوا التسريح، أن تحتجوا عليه، أن تعرفوا أسبابه على أقل تقدير!

ـ ما دامت القضية سياسية، فلا يمكن عمل شيء!

ـ ما معنى القضية سياسية؟

ـ التسريح لأسباب سياسية.

ـ التسريح هو التسريح، وعلى الجامعة أن تفعل شيئاً!

- ليس للجامعة علاقة بهذا الموضوع. يمكن أن تراجع السلطات لإلغاء التسريح، لمعرفة أسبابه. ان مهمتي الوحيدة أن أبلغك! وأعتبرك الآن قد بُلّغت، وأرجو أن تراجع رئيس القسم لتصفية أعمالك. أنا آسف ان أنقل لك هذا القرار، ولكن وظيفتي تحتم عليّ ذلك!

- لو كنت مكاني ماذا تفعل؟

- أرجو ألا تحرجني. أنا موظف وأقوم الآن بواجبي، وليس عندي أي شيء أضيفه!

- هذا يعني أن أُرمى في الشارع؟ أن أتشرّد؟

- استاذ منصور.. أرجو أن تقدّر وضعي. أوضح لك مرة أخرى ان الأمر من فوق، ولأسباب سياسية، كما أقدر!

- الجامعة في كل الدنيا تحمي الأساتذة، تدافع عن حرياتهم، أمَّا هنا..

- أستاذ منصور.. هذا كل شيء!».

- قلت لي ان على الرجل أن يدبر نفسه.. ها؟

- أي نعم، هناك ألف طريقة: زجاجة عرق، جوارب، شيء يخشخش، دائماً هناك حل.

وأتذكر من جديد: «وليد بك شبح على شكل انسان، موجود وغير موجود. لم يشأ ان يراني وليد بك. وحتى سماع اسمي بدأ يسبب له قلقاً يحاول ان يداريه بابتسامة بلهاء. في البيت غير موجود، في الدائرة غير موجود، وفي أحسن الحالات، عندما لا يستطيع ان ينكر وجوده: عنده اجتماعات مهمة.

الدنيا تتغير بسرعة. قبل فترة كان يفتش عني، كنت ضرورياً بالنسبة له. قال لي مرة: يجب أن ندبر قبولها في الجامعة بأي شكل. حالات كثيرة مماثلة دبرت. متى اتصل بك؟ لا. لا، سأمر عليك غداً. اما الآن فأنا رجل خطير، مسرح، غير مرغوب فيه، يجب

الابتعاد عنه دفعاً للشبهات».

ـ رأيك أن نوقظه ونعطيه هذه السترة؟

كان يمسك بين يديه سترة حائلة اللون، ومن طراز قديم.

ـ كما تشاء أنت أدرى مني!

ـ ولكن لا نعرفه، هل يقبل؟

ـ لن نخسر شيئاً من المحاولة.

ـ لنتركه الآن، إذا أفاق أطلب منه ذلك.

«وأتذكر:

ـ مساء الخير

ـ مساء الخير

ـ الأستاذ وليد موجود من فضلك؟

ـ مَن يريده؟

ـ منصور.. منصور عبد السلام.

ـ لحظة.. آسف انه نائم الآن.

ـ متى يستيقظ من فضلك؟

ـ لا أعرف.

ـ هل مناسب أن اتصل بين السادسة والسابعة؟

ـ الأفضل ان تتصل به في الدائرة...»

«من حق هؤلاء ان يناموا. من حقهم تماماً. النوم يمنحهم الشعور العميق بالاستقرار والراحة. بعد النوم تروق أمزجتهم. ترتاح وجوههم وتتألق. يكونون أكثر قدرة على اتخاذ قرارات حكيمة. ليس النوم راحة حقيقية لكل البشر. بعض الناس يهربون إلى النوم من الدائنين، ومن أشباح الجواسيس. أناس آخرون يغرقون منذ اللحظة التي يضعون رؤوسهم على الوسائد، لا يعرفون الأرق، ولا يعدون أعمدة الهاتف.

النوم بالنسبة لي كابوس، عذاب، أقسى من عذاب النهار. كنت أتصور نفسي على طرف جرف حاد وأمامي مجموعة من الوحوش الكاسرة تتقدم ببطء. كنت أرى انيابها الصفراء المسننة، وأرى الشرر يتطاير من عيونها، وأتراجع، وفجأة أهوي، وعندما استيقظ يكون حلقي جافاً ولساني قطعة من الحطب».

«سقطت مرة من السرير، جرحت تحت ذقني، ما زال الجرح حتى الآن ندبة صغيرة خالية من الشعر».

«الجروح في جسدي كثيرة لدرجة أني أخطىء في حسابها لو أردت أن أحسبها. جروح من أيام الصغر، من الحذاء وهو يدمي كاحلي، من السقطات عن الأشجار ونحن نسرق اللوز والمشمش. وأتذكّر: ضربني أبو الحيايا بحجر أوقعني على الأرض، وترك في رأسي اثراً ما زال حتى الآن. كان أبو الحيايا مجنوناً، له ذراع من فولاذ».

ـ إذا كنت خائفاً أعطني هذه السترة لأضعها في حقيبتي.

ـ لست خائفاً، ولكن لا أريدهم ان يطمعوا بي، إنَّهم لا يشبعون. في المرة الماضية كوموا الملابس التي كنت أحملها. كوموها على الأرض، وبدأوا يحسبونها قطعة قطعة، كأنَّهم يريدون ان يشتروها. ثم وضعوا لها قيمة أكثر مما اشتريتها، وأكثر مما بعتها، وبدأوا يساومون. تصور حتى الملابس التي أعطيتها للركاب انتزعوها. انهم يعرفون كل شيء!

ـ أتشرب كأساً آخر؟

وبفرح طفولي انتزع المطرة وصب كأساً قدّمه ليّ، وهو يشعر بسعادة لا حدود لها.

ـ تفضل. . لنشرب. افضل شيء ان يشرب الانسان لكي ينسى!

ومثل قطط برية تملكنا شعور غريب بالألفة. وفي لحظة رأيته

يفك صرة ويخرج أرغفة خبز مطوية وقطعة من الجبن، ومن تحت قدميه، في سلة صغيرة لم ألحظها من قبل، جر خياراً وبندورة، ونظر إليّ وابتسامة تملأ وجهه وسألني:

- معي كم رأس من البصل، أتريد؟

- لا. شكراً، ليس لي شهية للأكل!

أحسست باللعاب يملأ حلقي. وبدت لي أرغفة الخبز شهية لدرجة لا تقاوم، وقبل أن أسمع كلماته وهي تدعوني مرة أخرى، وجدت يدي تمتد إلى الرغيف تلويه، تمزقه. وسمعت صوتاً يخرج من فمي دون ارادة:

- أريد قطعة خبز صغيرة.. مازة للعرق!

- العرق يتطلب أكلاً.

- الخبز يكفي.

- أعذرني يا أستاذ. قد لا يكون الأكل مناسباً ولكن.

واعتذرت عيناه. وبدت عضلات وجهه تتحرك لا إرادياً وكأنَّها تشارك في الاعتذار.

(لا.. لا آكل خبزاً وشاياً. هذا ليس أكلاً. وتقول أمي: كان النبي يا ولدي يغمس خبز القمح بخبز الشعير. حرام عليك. انظر كم هي حلوة هذه القطعة من الخبز. إنَّها مقمرة مثل الكعك. جرب).

اهتزت عضلات وجهه أول الأمر، كأنَّه يقاوم شيئاً، ثم حرَّك شفتيه ورفع أرنبة أنفه إلى أعلى، وببطء فتح عينيه.

- تفضل شاركنا.

قال الرجل الضعيف داعياً الرجل السمين، الذي ظلَّ نائماً طوال الوقت.

- شكراً. وسأل نفسه: كم الساعة يا ترى؟ ثم حدَّق في وجه الرجل الضعيف وسأله: كم بقي للحدود؟

- لا تزال بعيدة، أكثر من ساعتين!

- ما هذه الرائحة؟

لم يرنا بعد ونحن نشرب. لم يكن متأكداً. نحن أحرار في أن نشرب ما نشاء. وهو حر في أن يشرب أو لا يشرب. يبدو اننا سنصطدم. هل علينا ان نستأذن؟ لماذا خلق الناس وكل واحد يراقب الآخر؟ يحاسبه؟ لو أراد أن يصلي هل يمنعه أحد؟

رفعت أنفي أتشمم الهواء. قلت:

- ربما كانت رائحة العرق!

لا يهمني أي شيء يقوله. سيطر عليّ في تلك اللحظة شعور التحدِّي. كنت مستعداً لأي عمل، لو يعترض، لو يقول كلمة واحدة سوف لن ينتهي الأمر بسلام!

نظر إلينا بعيون تفيض سخرية. مرّر يديه حول فمه كأنَّه يحاصر اللعاب ويدفعه إلى الداخل، ثم ببطء أنزل رجله اليمنى ووضعها فوق الحذاء، واستند إلى ركبتيه، وبصعوبة وقف فوق المقعد وأخرج صندوقاً مليئاً بالحلويات، وبدأ يأكل دون ان ينظر إلينا.

سألني الرجل الضعيف بلهجة مستسلمة:

- هل لديك سكين؟

- لا، لماذا؟

- لكي نقشر الخيار.

- لا حاجة، نأكله هكذا.

وامتدت يدي بعصبية إلى رأس البندورة الكبير وانتزعت نصفه بأسناني، ثم شربت وقدمت غطاء المطرة للرجل الضعيف وأنا أقول له: في صحتك!

تناول الغطاء وعيناه تنظران إلى الرجل السمين، ودون أن يتكلم حرَّك الغطاء بطريقة واضحة، وكأنَّه يقول: في صحتك!

شعرت بالعداء تجاه الرجل السمين. كنت أريد أن استفزه، ان أتحداه، قلت بصوت عال أخاطب الرجل الضعيف:

ـ ما رأيك، أليس العرق طيباً؟

وبتردّد قال:

ـ معك حق، وبصوت غير واضح أضاف وهو يهز رأسه: أي نعم طيب!

ـ هل شربت أطيب منه؟

كنت أزداد رغبة في استفزاز الرجل. ولكنه ظلَّ صامتاً. كان يمضغ قطع الحلوى بهدوء، وهو ينظر نحو الزجاج، قدّرت انه يتابع مناقشتنا، وربما كان ينظر إلى صورتنا المنعكسة على الزجاج. تجاوز الرجل الضعيف نقطة التردّد التي كانت تجره إلى الخلف، وخرج من صمته:

ـ تعرف يا أستاذ، هذا العرق عادي، من السوق. أمّا في الطيبة فإنَّهم يصنعون عرقاً بيتياً أفضل ألف مرة من أي عرق آخر. أصلاً عرق السوق زبالة، ولولا ان الانسان مضطر لما شربه. والناس الذين يتعودون على العرق البيتي، العرق الذي يصنعونه، لا يمكن أن يشربوا غيره. وصمت. وبعد لحظات أضاف وقد تغيّرت نبرة صوته:

ـ إذا جئت يوماً من الأيام إلى الطيبة، سوف تذوقه وبعدها تحكم بنفسك!

ـ طبعاً العرق البيتي أفضل بكثير، ولكن قلما تجده!

وفجأة نظر الينا الرجل السمين، كأنَّه لم يعد يطيق هذه المناقشة، قال:

ـ كل المشروب زبالة! وبعصبية سأل: ألستم مسلمين؟!

قال الرجل الضعيف بصوت حزين كأنَّه ينفي عن نفسه تهمة:

ـ أنا مسيحي!

التفت إليّ الرجل السمين وسألني بغضب:

ـ وأنت؟

وبلهجة ساخرة متحدية قلت له:

ـ مسلم يا سيدي، مجوسي، لا أعرف!

ـ وكيف تشرب الخمر؟

حتى هذه اللحظة لا أعرف كيف واتتني الشجاعة، لأن أحافظ على السخرية ورتابة الصوت، قلت له:

ـ هل أنت وصي عليّ، هل انت أبي، ربي؟

أجاب بارتباك، كأنَّه لم يتوقع ان أواجهه هكذا:

ـ لا . . لا، ولكن المسلم محرم عليه ان يشرب.

وغيَّر لهجته تماماً يريد أن يحول المناقشة، قال:

ـ تعرف يا أستاذ ان الخمرة ليست محرمة فقط، بل ومضرة كما يقول الأطباء!

ولم أستجب للهجته. كانت رغبة التحدِّي ما تزال تسيطر عليّ. قلت له:

ـ أعرف أو لا أعرف، هذه قضية خاصة، وأعتقد ان لا حاجة لأن يتدخل الآخرون في الأمور الخاصة!

ـ أنا لم أقصد أن أتدخل، ولكن من واجب المسلم ان ينصح أخاه المسلم!

ـ النصيحة في أشياء أخرى!

ـ الله يصلحكم، هذا ما أستطيع أن أقوله!

ـ يا سيدي أصلحنا أو . . .

ولم أرَ فائدة في الاستمرار. تراجعت. وبسرعة شربت وأعطيت غطاء المطرة للرجل الضعيف. أحسست بتفاهة تنز في

داخلي. لماذا أريد ان أنتقم من هذا الرجل، هل يعني شيئاً خاصاً بالنسبة لي؟

ـ تسمح لي ان أسألك سؤالاً؟

قال الرجل السمين موجهاً الكلام إليّ. كانت لهجته هادئة ولكنها صلبة:

«هذا الرجل لا يستحق الاحترام. ربما تعوَّد على الاهانة، إذ ما دام تاجراً فإنَّ كل شيء عنده قابل للمساومة، يريد الآن أن يعظ.. لأرى».

ـ نعم. اسأل!

ـ عفواً، لا أريد ازعاجك، ولكن أغلب الذين سألتهم عن طعم الخمر قالوا ان طعمها رديء، هل يمكنك أن توضح لي لماذا يشربونها ما دام طعمها رديئاً؟

وأتذكر كلام أبي عندما قال مرة:

«بصراحة ليس لها طعم لذيذ، وما دام الأمر هكذا فالأفضل ان يشرب الانسان مشروباً ثقيلاً، يشربه دفعة واحدة، ينتشي والسلام. أمَّا هذه البيرة السخيفة فأستغرب كيف يشربونها طوال الليل!».

ـ مَن قال لك ان طعمها رديء؟ هل شربتها؟

ـ أعوذ بالله. الحمد لله أنِّي لم أضعها في حلقي.

ـ مَن قال لك إذن؟

ـ أغلب الذين سألتهم!

ـ ما رأيك؟ سألت الرجل الضعيف.

ـ الخمور ليس لها طعم واحد، فيها اللذيذ وفيها المر مثل العلقم. العرق إذا كان جيداً طعمه طيب.

كان وجهه يتكلم. وباستهتار سأله الرجل السمين:

ـ أيَّهما أطيب مذاقاً الخمر او الشاي؟

قال الرجل الضعيف بارتباك:
ـ الشاي طيب والخمر طيب.
وبلهجة وديعة أقرب إلى الخوف، تابع الرجل الضعيف:
ـ الشغلة مراق. ناس يحبون الشاي وناس يحبون الخمر.
ـ والله كل الذين سألتهم قالوا ان طعم الخمر سخيف، لكن الله ابتلاهم بهذه المصيبة، وكل واحد يتمنى ان يخلص منها.
وبعد لحظات أضاف: كثيرون تابوا!
قلت وأنا أبتسم:
ـ لماذا لا تجرب؟
ـ أعوذ بالله. الله يجيرنا.
قال كمَن يدفع عن نفسه تهمة!
وبسخرية قلت:
ـ حتى تستطيع أن تحكم على طعمها!
ـ لا يا أستاذ. لا أريدها ولا أريد طعمها.
وسكت قليلاً ثم قال بلهجة مختلفة:
ـ اللهمّ أبعدها عنا وخلّص المبتلين بها.
ـ غداً سيقول لك أولادك إنَّ طعمها لذيذ للغاية!
ـ لا يا أستاذ، حسّن ألفاظك، أولادي عندهم شرف. وإذا شرب واحد منهم قطرة أقطع رأسه.
ولم أتمالك نفسي من الضحك العصبي وأنا أقول له:
ـ يبدو انك بطل تقطع الرؤوس!
ـ عفواً يا استاذ! أنا لم أقصد شيئاً، ولكن تعرف اني رجل مسلم. اصلي وأصوم وأتبع تعاليم الدين، وقد ربيت أولادي على هذه الطريقة. وإن شاء الله لن يذوق أي منهم الخمرة.
ـ وهل نحن أولاد شوارع؟

قفز الرجل الضعيف. أمسك بي من تحت ابطي، يظن ان معركة ستنشب بيننا، التفت إليه وقلت:

ـ اتركني يا صاحبي، أنا أعرف هذا النوع من البشر. الدين عندهم مثل الستارة، دائماً لها وجهان. وحياتهم كلها واقفة على سيفها حتى تكون استدارتهم سهلة. أنت لا تعرفهم. انهم يسرقون، يخدعون، يكذبون، وبعد ذلك ركعة تمسح ما تقدّم من الذنوب وما تأخّر. كل تاجر منهم يخدع الناس مائة مرة في اليوم، يحلف ايماناً غليظة على أنَّه لم يربح، ولكن في النهاية، يكدّس الأموال مثل قارون. أنت لا تعرف أن ربح يوم يعادل راتب شهر!

«هل أكون دونكيشوتاً جديداً وأعتبر هذه القفّة من القذارة، التي تجلس أمامي الآن خصماً؟ لو قشرت الجلد عن هذا الحيوان لبدا مثل جدار الوحل: قذراً، لصاً، تافهاً، ولكن في النهاية ليس أكثر ذنباً او حقارة من الآخرين! وقد يكون أحسن من كثيرين.. حتماً أحسن من الذين أعرفهم. المجتمع هو الذي خلق الناس هكذا. يجب ان لا أسوق نفسي نحو معركة تافهة!».

ـ اخي، الناس ليسوا متشابهين، هناك تجار لصوص، وتجار شرفاء، وأصابعك ليست مثل بعضها!

ـ أتعرف أن بعض الذين ينامون الآن في السجون أفضل ألف مرة من القضاة الذين حاكموهم وحكموا عليهم؟ وان بعض البغايا أشرف من اللواتي لم ترهن الشمس؟

ـ كل شيء جائز!

ـ لا، أكيد.

ـ أخي، وصمت لحظة، ثم تابع: هل تريد أن تهينني؟ إذا كنت تريد تفضّل..

ـ لا أريد أن أضربك ولا أريد أن أرى وجهك، ولكن سيادتك وقفت مثل الخطيب في يوم الجمعة: حرام، حلال، شرف.. سمعنا

هذا الكلام مئات المرات. ولسنا صغاراً حتى تكون وصياً علينا، نحن نريد ان نشرب، هل أنت أخ لمزاجنا، حل عنا يا سيدي.

- أنا لم أتدخل.

- لا، أنا الذي تدخلت. أنا قلت حرام. حلال.. أليس كذلك؟

- الحديث جر بعضه!

- طيب هل يمكن ان تنام الآن وتكفينا شرك؟

- النوم إجباري؟

- حتى نتخلص من هذه المصيبة!

- الله يسامحك!

- طيب يا سيدي الله يسامحني. هل انتهينا؟

وساد بيننا الصمت. شعرت بالقرف وأنا أنظر إليه. كان كل شيء فيه عدواً. حتى حذاؤه بدا لي غليظاً وكأنَّه لإنسان منقرض، ودون رغبة سحبت مطرة العرق وسكبت كأساً جديداً.

كنت أريد نهاية ما. صممت أن أقذف في وجهه العرق والأحذية وكل شيء ان هو تفوه بكلمة واحدة، ولكنه وقف فجأة، جرَّ حقيبته وأشياءه الأخرى بقوة، وبكوعه فتح الباب دون أن ينظر إلينا وخرج!

كنت أسمع صوته في الممر وهو يشتم ويصرخ.

وبهدوء هذه المرة، مددت غطاء المطرة إلى الرجل الضعيف وقلت له:

- خلصنا من هذا الكلب. الآن نستطيع ان نشرب بمزاج رائق.

وبهدوء حزين تناول القدح وبدأنا نشرب من جديد.

4

ـ **قلت** لي انك لا تعرف هذا الرجل. . . أليس كذلك؟

وأحس ان نظراتي تتهمه. قال بنبرة حارة مسالمة:

ـ اقسم لك اني لا أعرفه، لو كنت أعرفه، او حتى لو رأيته من قبل لأعطيته سترة أو سترتين!

ـ لماذا كان يخاطبك اذن بهذه اللهجة؟

ـ مجرد أسئلة، ويجب أن تعرف أنه رجل ثري!

ـ وماذا يغير في الأمر أن يكون غنياً أو لا يكون؟

ـ انت تعرف أن الرجال الأغنياء أقوياء، أقوياء جداً، ومن الخطأ أن يصطدم الانسان بهم.

ـ لو لم تكن تعرفه لما عرفت أنه غني!

ـ هو قال عن نفسه انَّه غني!

ـ لم يقل هذا أبداً.

ـ لقد سمعته، قال ذلك، بالتأكيد، ووضع يده على صدره. هل نسيت؟

ـ قال انه تاجر، ولم يقل انه غني!

ـ نعم. . نعم، وأنت تعرف ان التجار جميعهم أغنياء!

راودتني الرغبة في ان أداعبه وأخيفه، قلت له:

ـ أتعرف انه لم ينم لحظة واحدة؟ لقد سمع كل ما قلته عن رجال الجمارك، ولا بدَّ انه ذهب اليهم الآن ليقول كل شيء. ماذا ستفعل؟

ـ أظن انه كان نائماً، طوال الوقت كنت أرى عينيه مغمضتين.

ـ كان يتظاهر بالنوم. انه خبيث يريد ان يوقعنا!

ـ وهل قلنا شيئاً؟

ـ لقد قلت كل شيء. شتمت رجال الجمارك، قلت انهم مرتشون ولصوص!

ـ أنا لم أقل هذا ابداً.

وبدت عيناه الرماديتان على زرقة تفيضان بالخوف والتساؤل، قلت له:

ـ المهم الآن ان تفعل شيئاً لتمنعه من أن يقول لهم!

ـ ماذا أستطيع أن أفعل؟

ـ ان تقتله، نعم ان تقتله ثم تفتح باب العربة وتلقي بجثته خارج القطار، وفي هذا الليل لن يعرف أحد!

ـ أنت تمزح.

قال ذلك وعيناه حائرتان لا تستقران على شيء، وقد بدت على وجهه المتجعد آثار الخوف. قلت جاداً:

ـ لا أمزح.. ان هذا وحده ينقذك من رجال الجمارك.

ـ ولكن الأمر كله لا يستوجب القتل!

ـ كما تشاء، ولكن تذكر جيداً أنَّني حذرتك.

ـ ما زلت تمزح، وأنت تعرف أنه لا يمكن ان تقتل إنساناً لأنه لا يشرب العرق!

ـ اذا لم يكن هذا سبباً كافياً، فمن أجل أي شيء يمكن ان يقتل الانسان؟

ـ ومَن قال لك انه يجوز قتل الانسان؟
ـ هذا ما حصل دائماً، وفي كل الدنيا.
ـ القتل؟
ـ نعم القتل.
ـ ولكن من أجل أسباب معقولة.
ـ ما هي الأسباب التي تبدو معقولة بنظرك؟
ـ تريد الصدق..؟
قال ذلك وهو ينظر في عينيّ تماماً.
ـ نعم أريد الصدق.
ـ برأيي لا شيء أبداً يستوجب القتل.
ـ وهذا، ألا تقتله؟

ولم أتمالك نفسي من الضحك. انفجرت بضحكة قوية طغت على صوت القطار الرتيب، فارتخت عضلات وجهه وامتلأ بالفرح، وبدأ يضحك معي. لكنه توقف فجأة وسألني:

ـ ماذا لو سمع ما قلته؟ أتعتقد انه سيقول لهم؟
ـ ولكنك لم تقل شيئاً.
ـ لم أعد أتذكّر.

وبعد فترة صمت كان خلالها يفكر، أضاف كأنَّه يخاطب نفسه:

ـ لن أجيء وحدي في المرات القادمة!

وأشعلنا سجائرنا. وبدا ينفث الدخان على شكل دوائر فوق رأسه وينظر اليها باستمتاع، وكأن هذه الدوائر أوحت له بأفكار كثيرة، اذ نظر إليّ فجأة وقد قست ملامح وجهه، قال:

ـ أتعرف يا استاذ. وابتلع ريقه وتابع، حتى جماعتنا الذين يعملون بهذه المصلحة لا يقبلون واحداً جديداً، رغم ان الناس هناك يريدون ملابس كثيرة.

وأشار بيده إلى مكان ما، فهمت انه يعني البلدة القادمة.

ـ نعم يريدون ملابس كثيرة، قدر ما تستطيع ان تحمل يشترون، ويريدون أكثر. أمَّا هؤلاء.. وأشار بيده اشارات عصبية، فإنَّهم لا يحبون ان يسافر معهم واحد جديد. يخافون منه، ينظرون إليه بعداء. وصمت طويلاً ثم قال بصوت هامس كأنَّه يكلم نفسه: ربما كانوا يريدون مقابلا!

ـ لا شيء بدون مقابل، حتى هذا الذي كان يجلس أمامنا والذي يقول انه يصلي ويصوم، ينتظر من الله مقابلاً لصلاته بعد ان يموت. ينتظر ان يذهب إلى الجنة. ماذا لو ان الجنة غير موجودة، هل تظن انه يصلي؟

ـ أنا لا أفهم لماذا يرفضون. لن أزعجهم، لن أشترك معهم في أرباحهم. كل ما أريده اصدقاء. فالانسان عندما يكون وحيداً لا يعرف كيف يتصرف، اما اذا كان مع آخرين فإنَّه يكون شجاعاً وذكياً.

ـ ولماذا لا يقبلون ان تكون معهم؟

ـ صدّق انني لا أعرف. قلت لأكثر من واحد: نذهب معاً. ولكنهم رفضوا. قالوا فتّش عن عمل آخر، اترك هذه الشغلة، انها تتعبك ولن تربح منها شيئاً.

ـ وهل يسافرون معنا في نفس القطار؟

ـ نعم في العربة المجاورة.

قال ذلك بكل وجهه، وبهزات رأسه وعينيه وتابع:

ـ ليس هذا فقط، وانما أمسك بي الآغا ونحن في المحطة وقال لي: اذا اقتربت من هذه العربة، وأشار الى العربة المجاورة، فلا تلم إلاّ نفسك. والله لأخرب بيتك، وستكون نهايتك!

ـ غريب.. حتى الاقتراب منهم خطر؟

ـ لا يريدون ان تتعلم. يعتبرون الشغلة سراً.

ـ أية أسرار فيها؟

ـ عندما قلت لهم اني سأدفع لرجال الجمارك أكثر مما تدفعون، وان الأمور ستنتهي دون مساعدتكم ضحكوا. لا أعرف لماذا ضحكوا. لم يقولوا سوى كلمة واحدة: جرّب.

وهزَّ رأسه بحزن وهو يتابع بنبرة جديدة:

ـ كانت المرة الماضية صعبة، دفعت كثيراً. دفعت لأشخاص كثيرين ولم أربح شيئاً. ولا أدري في هذه المرة إن كنت سأدفع أم لا!

ـ والآخرون هل يربحون كثيراً من هذا العمل؟

ـ رفضوا ان يقولوا. كل ما قالوه وهم يضحكون ويسخرون: جرّب، وبعد التجربة ستترك هذه الشغلة مثلما تركت شغلات كثيرة قبلها!

ـ عن أية شغلات يتحدثون؟

وضحك ضحكة حزينة، بدت معها ملامحه متعبة وعيناه ترفان كأنّه يحاول ان يبعد خواطر مؤلمة من رأسه. قال:

ـ أنا مَن أنا يا أستاذ! ودقَّ على صدره بأسى، وتابع: أنا المنحوس الذي يجف على وجهه البحر، كما تقول امرأتي، وكما يقول كل الذين يعرفونني!

ـ اذن عملت في أشغال كثيرة؟

ـ لو سألتني، ما هي الشغلة التي لم أعمل فيها لاستطعت ان أقول لك بسهولة!

ـ اذن أنت تعرف صنعات كثيرة!

ـ بصراحة، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة اسيانة، أظهرت أسنانه المسودّة، وتابع: بصراحة لا أعرف شيئاً وهذا سر فشلي وانتقالي من عمل لآخر!

ـ تبدو متواضعاً، تحاول أن تقلّل من قيمتك. قل لي ماذا عملت؟ في أية أعمال؟

ـ أنا انسان فاشل. هذا العمل أمارسه الآن، بعد ان أتقنته في أعمال أخرى!

ولما رأى الدهشة في وجهي قال:

ـ لا تستغرب اذا قلت لك انِّي لم أترك صنعة إلاَّ وعملت فيها. ومن كل هذه الصنعات خرجت مديناً وقد اسودت الدنيا في عيني، حتى أصبحت متأكداً من شيء واحد فقط: أينما أضع يدي يحل النحس والشؤم، وأنا لا أكره الناس الذين يقولون أنِّي منحوس.

وتابع بصوت هامس:

ـ يقولون مغضوب الوالدين.. ربما.. نعم، لا أدري.

وصمت ونظر إليّ، ثم عبَّ نفساً عميقاً وأضاف:

ـ أنا أحب يا أستاذ أن آكل لقمتي بعرق جبيني. أريد أن أعمل، ولا أطيق أن أظلّ بدون عمل. أمّا اذا فشلت في عمل فإنِّي لا أتردد في التفتيش عن عمل آخر، مهما كان هذا العمل!

ـ لكن لماذا يسمونك منحوساً؟

نظر إليّ وابتسامة مريرة ترتسم على شفتيه، وقال:

ـ ماذا أستطيع أن أفعل؟ ودون أن ينتظر أجاب بسرعة، لقد عاكستني الظروف، وجرَّ من علبته سيجارة وبدأ يفرك مقدمتها بقسوة وهو يقول: لا أستطيع ان أبقى في الفراش بعد السادسة، وحتى أثناء المرض أكره الفراش. يجب أن أعمل، لا أطيق الجلوس ومراقبة الناس. وأصبحت كلماته عصبية كأنّه يخاطب نفسه: يجب أن اعمل. حتى الحمير لا تطيق الحياة بدون عمل، اذا لم أجد عملاً، أصبح عصبياً، سريع الغضب، وقد أتصرف بجنون: اضرب، أصرخ، وتنتابني رغبة لأن أحطم شيئاً، ان أحطم الجدران، الزجاج، ان

أصعد إلى ظهر الكنيسة وأقذف نفسي. حتى لو قتل الانسان نفسه، فإنَّ هذا عمل!

قلت برخاوة أريد أن أمتص توتره:

ـ ولكن في القرى أعمال كثيرة، وكما يقولون العمر يخلص والعمل لا يخلص، أعتقد ان مَن يريد عملاً يجده!

ـ أنت تقول هكذا، ولكن لو عشت في بلدتنا لحكمت على الأمر بنفسك!

ـ ألم تستطع أن تعمل في الزراعة؟

ـ بعد ان بعت الأرض التي ورثتها عن أبي لم أعد أطيق أن أمد يدي إلى الأرض وأحفر ذراعاً واحداً. .

وتغير صوته:

ـ صحيح اني عملت مرة أخرى في الأرض، ولكن لم تكن بنفس اللذة!

وسكت كأنَّ أفكاراً بعيدة تشغله. وبهدوء وبكلمات باردة بطيئة قال:

ـ سأموت قبلهم، وسوف يضطرون لأن يحفروا قبري، ان هذا يجنبني أن أحمل فأساً!

ـ ألهذه الدرجة تكره العمل بالزراعة؟

ـ أنا لا أكره، لا أخجل. وضحك وهو يتابع: لقد طق عرق الحياء في وجهي كما قال عمِّي قبل أن يموت.

ـ ولكن لماذا لم تعمل في الزراعة؟

ـ ان لهذا قصة لا أحب أن أتذكرها.

كانت عيناه تضيقان وهو ينظر عبر الزجاج. والتعابير التي ترتسم على وجهه تتقلص وترتاح كأنَّه يرى حياته تمر أمامه من جديد.

قلت اخفف عنه:

ـ الحياة يا صديقي شيء جدٌي أكثر مما يتصور الناس، ومَن يريد أن يحيا عليه أن يغامر كثيراً، أن يكون شجاعاً!

شعرت ان كلماتي بليدة لا تعني شيئاً وأسفت أنٌي قلتها!

5

ـ الحياة لذيذة صعبة. . نعم صعبة.

قال ذلك وهو يهز رأسه هزّات لا تفهم. وبهدوء التفت إليّ حتى أصبحت عيناه مشعتين، حزينتين، حائرتين، وتقولان أشياء كثيرة دون كلمات. ارتجفت في داخلي. وددت لو يسحب هاتين العينين، لو ينظر إلى مكان آخر، ولكنه ركزهما في عيني، ورأسه الشائب يهتز كأنّه بندول الساعة.

قال، وقد اشتدت عضلات وجهه قليلاً، فأصبح عابساً:

ـ أتذكر اني كرهت كل شيء بعد ذلك اليوم. اردت ان أقتل نفسي، ولكن الناس الذين كانوا حولي منعوني من ذلك. ومنذ ذلك الوقت لم أجد حلاً لمشكلتي إلاّ أن أكون قاسياً بشكل ما لكي أنتقم.

أتعرف يا صاحبي ان هذا الذي يجلس أمامك الآن عاش حياة صعبة. قد تكون ممتعة. لا ليست ممتعة على الاطلاق. كانت حياة شقية، لا يهم، ولكن كانت حياة. نعم حياة، خاصة بعد ان حملت البندقية التي ورثتها عن أبي وذهبت الى الجبل. أصبحت في الجبل قاطع طريق، مشرداً، حيواناً. أربع سنوات قضيتها في الجبل. لست آسفاً الآن. ما هي الحياة؟ لا أحد يعرف.

نعم ما هي الحياة؟

لقد تغيّرت حياتي منذ ذلك اليوم، أصبحت جدية وفي نفس الوقت بلهاء.

قلت وقد بدأت تغزوني الشكوك، حتى ظننت ان الرجل يهذي او أنَّه سكر. قلت أسأله:

- عن أي شيء تتحدث الآن؟

وبسخرية أجاب دون ان تتغير لهجته.

- عن الحياة اللذيذة الصعبة! لا تتعجب، سأقول لك كل شيء:

كان عمري اربعاً وعشرين سنة. كنت مفتوناً بالقمار. بدأت القضية سهلة، صغيرة، مثلما تبدأ أشياء كثيرة في هذه الحياة، حتى ان الانسان لا يظن وهو يقبل عليها ان حياته ستتغير. كنا أول الأمر نلعب على الجوز، ثم بدأنا نلعب على الدجاج. وجاء يوم لعبت فيه على العجول الثلاثة التي كانت لدي... ولعبت في النهاية على الأشجار.

كنت أخسر وأربح. خسرت كثيراً، وربحت كثيراً. وكانت الدنيا تضحك لي أغلب الأحيان، حتى لم أفطن للخسائر التي لحقت بي.

حتى جاء يوم كرهت فيه البلدة، ورأيتها مثل قفص كبير، خاصة بعد ان تغيّرت كثيراً لما بدأ الفلاحون يقطعون أشجار اللوز والمشمش والجوز ويزرعون القطن مكانها!

بدأت الزراعة تتحول في بلدتنا، وتحولت معها الحياة. فبعد ان كانت الطيبة مثل بستان كبير، فيه كل ما تشتهيه من الفواكه والخضار، تحولت ذات يوم إلى أرض قاحلة جرداء. ولا تغضب اذا قلت لك ان الفلاحين أغبياء، وفيهم شبه كبير بالقرود. انهم لا يعرفون سوى ان يقلدوا. فبعد أن زرعت الأقسام الغربية من البلدة

بالقطن، وأعطت محاصيل وفيرة، تغيّرت حياة الناس. قصوا أشجار الطيبة كلها. حفروا الآبار في كل مكان، وتحوّلت البلدة، إلى مرج أبيض، وعلى مدى البصر خلال مواسم القطاف. ولم يكن يرى في الطيبة سوى القطن، وأشجار بستاني.

لم أرد أن أقطع الأشجار، فأنا الذي غرستها مع أبي، وما زلت أتذكّر كل شيء، كان أبي يقول ونحن نغرس الأشجار: يا الياس هذه الأشجار مثل الأولاد، أغلى من الأولاد، ولا أظن ان في الدنيا انساناً يقتل أولاده، فاحرص عليها اذا مت، أنا أتركها أمانة في رقبتك، فإذا قطعت شجرة قبل أوانها فإنَّ جسدي في القبر سوف ينتفض.

لقد ساعدت أبي كثيراً ونحن نغرس الأشجار. وكنت أراها تنمو يوماً بعد يوم. وخلال حياة أبي أثمرت، وأصبحت تزهو على كل أشجار البلدة. منذ ذلك الوقت نمت بيننا صلة غامضة، ولما قطع جيراننا أشجارهم حزنت لذلك كثيراً. شتمتهم في سري، أول الأمر، ثم قلت لهم كلاماً قاسياً وأنا أنظر إلى عيونهم الضيقة الساخرة. قلت لهم انكم تقطعون أرزاقكم وأنتم تقطعون الأشجار، انكم تعتدون على الحياة، ولا بدَّ ان الله سينتقم منكم. غضبوا منِّي، تآمروا عليّ، وكانوا يفاخرون بالمال الذي بين أيديهم.

ذات يوم، قبل بذار القطن بشهر، كانت أشجار البستان قد ازدهرت وبدأت تخضر، جاء اليّ الرجال وقالوا: «ان مواسم القطن يا الياس جعلت منا أغنياء، وأنت الوحيد في البلدة يملك ارضاً لا تعطيه مالاً. أنت لا تزال فقيراً يا الياس». وقالوا: «ان أشجار بستانك أصبحت لنا عدواً». وصمتوا قليلاً ثم تابعوا: «هذه الليلة لا نلعب إلاَّ على الأشجار. نحن ندفع مالاً وأنت تدفع لنا أشجاراً».

لم أكن أريد أن ألعب. كانت أشجار البستان تزهر ذلك الوقت وتصرخ بنداءات حنونة تبشر بموسم الخير، ولم أكن أرى في الدنيا أجمل منها. كانت أجمل من الصبايا وأرق من النبع.

أحسست ان الرجال يتآمرون عليّ. قلت لهم نلعب على كل شيء إلاّ الأشجار. اتركوا الأشجار أيُّها الرجال، لم تعد تعني شيئاً بالنسبة لكم، اما بالنسبة لي فهي ارتباطي الوحيد بهذه الحياة، ولكنهم أصروا، ولم نلعب تلك الليلة!

آه لو انتهت الدنيا تلك الليلة. لو تخاصمنا، لو ضربنا بعضنا لما حصل شيء من ذلك، ولعاشت الأشجار، وربما كانت تعيش حتى هذه اللحظة. ولكن في الليلة التالية، تفجّرت فيّ حتى الرغبة بالموت. وفي لحظة شعرت بقوة تدفعني لأن أعمل شيئاً. لم أكن قد صممت، ولكن شعوراً قوياً في داخلي بدأ يتحرك، وينتفض، أحسست ان الحياة لا تستحق ان يتشبث بها الانسان كثيراً!

في تلك الليلة، بعد ان شربنا وغنينا، احتفالاً بطهور ابن مختار الجهة الشرقية، رأيت الرجال ينظرون إليّ يختبرونني. كانت أصواتهم المستفزة المحرضة تغرينى لأن ألعب. وقبلت أن ألعب على الأشجار. قلت أشجار اللوز فقط ثم عدت ورفضت مرة أخرى. قلت لا ألعب إلاّ على أشجار الجهة الغربية من البستان!

كان القسم الغربي من البستان مستطيلاً ذا أرض كلسية، والأشجار في هذا القسم ضامرة ولا تثمر مثل أشجار القسم الشرقي، وكان عداء خفي ينمو في قلبي على هذا القسم الذي عملت فيه أكثر من أي مكان آخر، ومع ذلك فإنَّ الأشجار ظلت تشكو من شيء ما لم أعرفه!

ربحت أول الليل مالاً كثيراً. تصوّرت ان هذا المال يكفي لأن أزرع بستاناً جديداً أكبر من بستاني بمرتينٍ او ثلاث مرات. تصوّرت الأشجار تكبر وتعلو في الأفق، حتى تغطّي على كل حقول القطن، وان البلدة ستخضر مرة ثانية بعد هذي السنين الثلاث من اليبوسة والجفاف.

ولعبت. ولكن لم ينقض الليل حتى أصبحت رجلاً عصبياً نزقاً

وأنا أرى الأشجار تتساقط وتهوي واحدة بعد أخرى. لعبنا أوَّل الأمر على كل شجرة وحدها. ثم أصبحت الشجرة شجرتين، وفي النهاية لعبت على عشر شجرات مرة واحدة!

نعم خسرت تلك الليلة، لم يبق من أشجار القسم الغربي سوى سبع، وشجرة الجوز الكبيرة، وقد نسيت أن أقول لك ان شجرة الجوز هذه كانت تقف في بداية البستان مثل حارس قوي يهابه الجميع، وان هذه الشجرة كبيرة لدرجة ان أبي لا يتذكر متى غرست.

حلمت بتلك الشجرة في نفس الليلة التي لعبنا. بدت لي تتألم، تبكي.. وتراءى لي أبي وقد امتلأ وجهه بالندوب. كانت أكثر من ندوب، كانت جراحاً تنزف. خفت من ذلك. تألمت. قلت لن يصبح الصباح حتى أذهب للرجال وأقول لهم: سأدفع لكم ما تريدون مقابل الأشجار التي خسرتها!

وفي الليلة التالية لعبنا مرة أخرى. استعدت أشجاراً كثيرة، ولكني خسرت أشجاراً كثيرة أيضاً. وبينما كنت أتعذب وأموت وأنا أخسر الأشجار التي غرستها بنفسي قبل أربع سنين، وكانت على وشك ان تثمر في تلك السنة، اسودت الدنيا في عيني، وأصابتني رجفة هزت كياني كله. كنت أرى الأشجار تهرب، تغور في الأرض، تتحول إلى أكوام من الحطب وأنا عاجز عن أي شيء. لم أعد أفهم. لم أعد أربح. بدأت أخسر باستمرار ولم أرَ شجرة واحدة تعود إليّ. لقد تلاشت، تهاوت، وأنا أزداد اصراراً وشراسة. كنت أصرخ بأعلى صوتي: لا بدَّ ان أستعيدها، لا يمكن أن يعاكسني الحظ لهذه الدرجة.. لكل شيء نهاية!

وانتهى كل شيء بأن خسرت أشجاري كلها. القسم الغربي والقسم الشرقي. وشجرة الجوز التي حدثتك عنها والتي كانت تقف مثل اله على باب البستان، لقد خسرتها ايضاً!

ودون ان أفكّر قلت للرجال: هذه الأشجار أشجاري، لي

وحدي، ولن يأخذها أحد منكم. ضحكوا. سخروا مني. قالوا نحن نلعب كل ليلة، وقد خسرنا الكثير، ولا يمكن ان نتركها لك. قلت لهم هذه أشجاري أمَّا انتم فقد خنتم الأشجار، ولم تعودوا تعرفون معناها. أنا الوحيد الذي يحبها وأنا الذي سأكون صاحبها!

لما وجدت اصرارهم يفوق رغبتي قلت لزيدان: وكان جاري في الأرض، وهو الذي ربح أغلب الأشجار، قلت له: يا زيدان، أترك لك الأرض ولكن أريد أن تبقى الأشجار واقفة فوقها مثلما هي الآن. قال لم نلعب نحن إلاَّ على الأشجار، نريدك أن تكون واحداً منا، مثلنا تزرع القطن. قلت: لا أريد ان أكون غنياً، ثم ان البلدة تحتاج إلى الفواكه والخضار، وأنا الذي سأقدمها لكم، سأعطيكم غلال السنة التالية!

قال كل الرجال بصوت واحد: لا.. لا نريد شيئاً سوى الأشجار!

لم تنته تلك الليلة حتى قضيت على مائة رأس من الغنم في حظيرة زيدان. دخلت عليها، وبسكين كبيرة بدأت أضرب وأضرب حتى فريتها. كنت أضربها على رؤوسها، على بطونها على ظهورها. وكانت بندقية أبي معلقة على كتفي، وقد قرّرت ان أقتل أي انسان يعترضني. وما كدت أخرج من الحظيرة، ورائحة الدماء والبول والصراخ تملأ كل خلية من جسدي، حتى وجدت زيدان يحمل مصباحاً ويركض ناحية الحظيرة، وقفت في وجهه قلت له: اذا تقدمت خطوة واحدة قتلتك. تجمَّد مكانه، أصابه الخوف فلم يستطع ان يفعل شيئاً. اقتربت منه، نظرت إلى عينيه المذعورتين، أمسكت برقبته وشددت عليها، أردت ان أقتله، ولكن فكرة جنونية راودتني تلك اللحظة.

قلت له: لن أقتلك يا زيدان. أستطيع ان أقتلك ولكني لن أفعل. لم يصدق، كان يبكي مثل النساء، وينظر إليّ بتوسل.

قلت له أريد منك الآن شيئاً واحداً. ولكنه لم يجب. ظلَّ يبكي وينتحب.

قلت: أريد منك الآن أن تنزع ملابسك، ولا شيء آخر.

توسَّل إليّ. قال انه لا يريد الأشجار ابداً وانه لن يطالب بثمن الغنم. لا يريد إلاّ ان أتركه، ولكني لم أتركه، قلت: اختر أيّهما تريد أن تموت أو تنزع ملابسك؟

ذهبت توسلاته أدراج الرياح. تلاشت قبل أن أسمعها، لم تعد تتملكني سوى الرغبة ان أرى زيدان عارياً. لا أعرف لماذا!

نزع ملابسه. أخذتها وكومتها على الأرض، وبغصن انتزعته بدأت أمزق جسده. كنت أريد ان أحفر في جسده ذكرى لا ينساها حتى يموت. كان يصرخ والغصن ينغرز في لحمه، كان يستغيث، وأنا أحفر بحقد على ظهره، على اليتيه، على صدره.

قلت له: ستبقى هذه العلامات ما بقيت حياً. تذكّر ان هذه علامات شجرة واحدة، فإذا قطعت الأشجار فإنَّ كل شجرة ستترك علامات مثل هذه على جسدك. فكّر جيداً فيما أقول. سأذهب الآن، ولكن ستراني مرة أخرى. وبصقت عليه، وأخذت ملابسه واتجهت الى الجبل!

نعم ذهبت الى الجبل، وأصبحت أعيش هناك. كنت أعيش وحيداً. قطعت الطريق عدة مرات، ولكن أغلب الأحيان كنت أعتمد على الصيد في تأمين ما أريد. وكنت في الجبل استغرق في التفكير والحزن، لكن منظر الأشجار لم يفارقني لحظة واحدة. كنت أفكر فيها ليل نهار. أتصورها واقفة بشموخ لا يقهر وسط السهول الجرداء المتربة، أتصورها تداعب الرياح وتحتضن العصافير. أتصورها أيام الربيع تتفجر بالزهر، وأيام الصيف تتفجر بالثمر. كنت أتصورها مقرورة في الشتاء وقد نحلت وتعرّت، وتقترب من الأرض عندما تصفعها الرياح تريد حماية ودفئاً.

كانت الأشجار الشيء الوحيد الذي أراه وأفكر فيه في الليل والنهار.

سألته وقد استولت عليّ الدهشة وأنا أسمعه يتكلم مثل نهر هادر، وبعد ان تغيّرت نظرتي له فأصبحت اعجاباً ممزوجاً بالخوف. سألته:

ـ وكيف سارت الأمور بعد ذلك؟

وبلهفة انتزعت المطرة وقدمت اليه الغطاء المليء بسرعة، أريده ان يواصل قبل ان تنقطع أفكاره.

ـ كما قلت لك يا صاحبي، ذهبت إلى الجبل، وهناك عشت أربع سنين. كنت أعيش في المغاور. آكل الأعشاب والطيور، وبعض الأحيان الحيوانات. أشرب من نبع صغير كان ينحدر من الجبل باتجاه الوادي حتى يصل الطيبة؛ ولم أنزل إلى البلدة خلال هذه الفترة إلاّ ثلاث مرات. لم أكن أريد شيئاً من البلدة. حتى السجائر لم أكن أشتهيها. الشيء الوحيد الذي كنت أحرص عليه زال من الوجود!

نزلت في الشهر الرابع. بعد ان استوحشت كثيراً، ولا أعرف لماذا، كنت أريد أن أتفق مع الناس على أي شيء. كنت مستعداً لأن أدفع ثمن الغنم، وأدفع لزيدان أي مبلغ يطلبه نتيجة الجروح والتشويه. كنت مستعداً أن أزرع القطن.

ولكن ما كدت اصل بستاني تلك الليلة، حتى رأيته عارياً مشوهاً فلم أستطع أن أميّزه أول الأمر. أصابتني قشعريرة باردة، تملكتني من رأسي حتى قدمي. كانت أشجار القطن قد أصبحت كبيرة نامية، ودون ان أحس وجدت نفسي مثل مجنون اقتلعها، أدوسها، أخربها، أصرخ فيها. وخلال ساعة من الزمن لم تبق شجيرة قطن واحدة. ودون أن أمر على أي بيت من بيوت البلدة وجدت نفسي أرجع إلى الجبل.

وما كدت أصل الجبل هذه المرة حتى شعرت بالرضا. شعرت بسكينة تملأ نفسي، وتراءت لي الطيبة بلدة صغيرة، ضيقة، والحياة فيها لا تطاق. وقد استغربت كثيراً اني عشت فيها كل هذه السنين.

وانت تعرف انه اذا تغيّر مكان الانسان تتغير طباعه ونفسيته. فلما أصبحت في الجبل وحيداً، أخذت أفكر بهذه الحياة التي تمتلىء بالتعاسة. وقد تساءلت كثيراً لماذا يكره الناس بعضهم، ولكن لم أجد جواباً. قلت لنفسي ذات مرة: ماذا استفاد أهل الطيبة عندما قطعوا أشجار الياس وجعلوه تعيساً هكذا؟ فكّرت بهذه الأمور وفكّرت بغيرها، وأصبحت متأكّداً لو ان الناس عاشوا في الجبل مثلما عشت لأصبحوا قادرين على ان يجعلوا الطيبة أفضل ألف مرة.

ان الانسان في الجبل يتحوّل إلى مخلوق عجيب، يسمع أحسن مما يسمع أهل الطيبة، ويرى أحسن منهم أيضاً. والريح والأحجار والقمر، وكل شيء يصبح أفضل بكثير. تفقد الأشجار قسوتها، وتصبح أقرب إلى الانسان. كنت اذا استندت الى حجر من أحجار الجبل أشعر بالراحة واللذة. كنت أنظر الى القمر فأرى وجهاً حزيناً يكاد يبكي وهو يطل على الطيبة. اما المغارة التي كنت أنام فيها فإنّها أغرب شيء رأيته في حياتي، كانت في الشتاء دافئة تلتهب بالحرارة، اما في الصيف فإنّها تتحول الى مكان بارد يفوق ببرودته تلك المياه التي تصل إلى الطيبة من نبع الجبل.

ولو سألتني عن الحيوانات هناك لقلت ان لها طباعاً غريبة. كانت تخاف في أوّل الأمر، تهرب، ولكن لم تمر شهور قليلة حتى أصبحت أراها تقترب، وقد أعطيت لعدد منها أسماء جميلة، وكنا نتحدث من بعيد. كنت أفهمها، وكانت تفهمني، ما عدا تلك الأوقات عندما يجوع الانسان ولا يجد شيئاً يأكله، كنت اضطر لأن أقتل بعضها. لم أفعل ذلك كثيراً. ولكن شعرت بأسى يفوق كل شيء، وندمت، وقد فسرت الأحلام والألم اللذين نزلا بي بعد ان

اصطدت رمانة، الأرنبة الرماية التي تسكن قرب المغارة، بأن خطيئة لامست عظامي وجعلت مني انساناً مشوهاً.

ومع أنّي فكّرت كثيراً، ورأيت كل شيء في الجبل، فقد ظللت حزيناً، كنت أريد بشراً أتحدث معهم. كنت أريد أشجاراً أسقيها وأتطلع إليها كل يوم. ولكن اهل الطيبة حرموني من هذا كله، فلم التق إلاّ بالرعاة.. وحتى هؤلاء لم يألفوني بسرعة، تماماً مثل الحيوانات، ولكن بعد ان اطمأنوا بدأوا يسقونني الحليب، وبين فترة وأخرى كانوا يذبحون لي خروفاً صغيراً.

كنا نتحدث عن أهل الطيبة وعن الأشجار والخراف، ولكن كانوا يذهبون بسرعة وقبل ان تصل الشمس منتصف الوادي.

وذات يوم وجدت نفسي، بالعصا القصيرة الحادة، أنقب وأبحث في التراب الذي يحيط قلعة مراد آغا، وفجأة وجدت قطعة من الحديد ظننتها أوّل الأمر ذهباً، ولكن بعد ان وضعت عليها ملحاً وفركتها بقوة، ظهرت حمراء بلون النحاس، وعليها رسوم وأشياء لم أفهمها.

ورغم ذلك كنت أقضي ساعات طويلة أنظر الى القلعة وأبحث في ترابها. صحيح اني لم أجد شيئاً، غير تلك القطع، ولكني بدأت أحب الأحجار والظلال التي تلقيها القلعة على مساحات واسعة، وفي هذه الظلال كنت أنام طويلاً أيام الصيف.

لو كنت في الطيبة آنذاك لأريت الناس القطع النقدية، ولذهبنا كلنا نبحث عن الكنوز، ولكن عندما رجعت الى الطيبة بعد تلك السنين لم أجد في نفسي رغبة لأن أقول لأحد. والرجل الوحيد الذي رأى القطعة النقدية قال لي: لا تتعب نفسك يا الياس، انها لا تساوي شيئاً لأنَّ لا أحد في الطيبة او في غيرها يقبل أن يعطيك خبزاً بدلاً عنها.

وبلهفة سألته.

ـ وأين هذه القطع؟

ـ ما يزال بعضها عندي. وأشار إلى البعيد. وضعتها في صندوق تركته أمي بعد وفاتها. واذا لم تحرض الصغار على فتح ذلك الصندوق فهي ما تزال ترقد هناك.

ـ ان هذه القطع تعادل الكثير... يمكن أن تبيعها.

ـ ولكني عرضتها ذات مرة، بعد أن عملت في النزل، فلم يشترها أحد، ما عدا واحدة بعتها بليرة رشادية لامرأة اجنبية مسنة. قالت انها ستجعل منها قلادة.

ـ أعتقد انها تساوي كثيراً، يجب أن تحتفظ بها.

ـ لم أشأ أن أبيعها، قلت لنفسي احتفظ بها يا الياس. ذكرى أيام الجبل.

ـ آه لو كانت معك الآن!

ـ ماذا لو كانت معي؟

ـ لرأيتها!

ـ وتقول لي ما تعادل؟

ـ ولكني لا أعرف شيئاً عن النقود القديمة.

ـ ستراها ذات يوم، سأحتفظ بها حتى تراها.

تنفس بحسرة ثم تابع:

ـ ظللت سنتين دون أن يراني أحد. كنت أراهم بعض الأحيان. كنت أقترب من الطريق الذي يسلكونه ذاهبين او عائدين للطيبة، ولكني لم أتركهم يرونني ولو مرة واحدة. كنت أستطيع ان أقتل عدداً كبيراً من الناس، ان أقطع عليهم الطريق، أن أجعلهم يرقصون مثل السعادين، ولكني لم أشأ!

بعثوا إليّ مع الرعاة يقولون: عد إلى البلدة، ان امك اتفقت مع

زيدان، وكل شيء قابل للتسوية، ولكنني لم أسمع. عرفت ان كل ما يريدونه هو ان يوقعوا بي، ان ينتقموا مني. أنا أعرف زيدان، أعرفه تماماً. اختلفنا مرة على السقاية، فما كان منه إلاَّ أن بعث من قطع الثمار قبل ان تنضج. لم يعترف، ولم يثبت عليه شيء، ولكن عرفت ذلك في وقت متأخر عندما أخبرني أحد الذين استخدمهم لقطع الثمار!

والآن... ماذا سيفعل زيدان اذا رآني؟ هل سيتركني دون ان يمثل بي؟ انا لم أخف منه، ولكني رأيته انساناً يبتسم ويخون. يقتل القتيل ويمشي في جنازته. أنا لا أحب هذا النوع من الناس، وأخاف ان رأيته ان أتحول إلى مجنون. لن أتركه يفلت منِّي هذه المرة، خاصة بعد ان قطع الأشجار. كنت أظن انه سيتردد كثيراً قبل أن يقطع الأشجار، ولكنه قطعها.

بعثوا إليّ مرة مع راع كان يعمل عند أبي. قال لي الراعي: أمك مريضة يا الياس وقد أوصتني ان تعود لتراك قبل أن تموت ولو كانت قادرة لأتت بنفسها. لم أصدّق أوّل الأمر. ولكن في اليوم الثالث جاءني وقال: امك تموت.. وقد لا تصل. لم أحتمل هذه المرة.

لم تمض أيام حتى تسللت الى البلدة، عندما دخلت البيت كانت أمي تنام على نفس الفراش. صحيح انها بدت مسنة ولكنها لم تزل معافاة، فما كدت أنظر اليها حتى أفاقت، أحست بوجودي، ان الأمهات يا صاحبي يمتلكن احساساً خارقاً بالأشياء، انهن مثل الأشجار لا يتكلمن كثيراً، ولكن يعبرن عن أنفسهن بطريقة لذيذة.

قلت لها: لماذا كذبت عليّ يا أمي؟

قالت: ما كنت أستطيع أن أراك لو لم أكذب. حاولت مرات كثيرة، ولكنك لم تسمع، ولم تأت.

قلت: هل تكذبين؟

قالت: كذب الأمهات من أجل أن يرين أولادهن صلاة.

قلت: ولكنك تعرفين زيدان، لو رأيته لقتلته، واذا رآني لن يتركني أرجع للجبل مرة أخرى!

قالت: ندفع لزيدان ما يحدده المختار وبعض رجال البلد وتعود.

قلت: أمن أجل هذا طلبت إليّ أن أعود؟

بكت، توسلت، قلت لها لم أعد أطيق البلدة يا أمي. ان بلدة لا تنبت فيها الأشجار لا يمكن أن يعيش فيها الانسان. والطيبة التي كانت يوماً خضراء مثل عرق النعناع، تحوّلت إلى مقبرة، إلى أرض غبراء، ولا أطيق أن أعيش فيها يوماً واحداً.

وقبل أن يحل الفجر تركت البلدة. كنت أسمع صوت أمي مملوءاً بالرجاء يدعوني، ولكن لم أستمع إليه.

بعد ثلاثة أيام جاءني نفس الراعي، وكان يعرف المكان الذي أشرب منه وقال: العجوز ماتت هذه المرة، في المرة الأولى لم تكن تريد أن تموت لأنها كانت تأمل أن ترجع. أمَّا اليوم فقد ماتت لأنها يئست من كل شيء. لم يقل هذا فقط، وانما أضاف: ان أهل الطيبة عرفوا مجيئك، وقد شتموا كثيراً وقالوا سيبقى الياس ملعوناً إلى الأبد.

ـ ألهذا يسمونك مغضوب الوالدين؟

ـ ولأني لم أتفق معهم بعد ان عدت إلى الطيبة؟

ـ ومتى عدت إلى الطيبة؟

ـ قضيت في الجبل أربع سنين، مات خلالها زيدان، وابتأست البلدة كثيراً بعد أن شحت مياهها. لم تعد المياه تكفي لري القطن الذي زرعوه، لقد زرعوا القطن في كل مكان، زرعوه في حدائق البيوت، على جوانب الطريق، في السهول التي كانت يوماً تمتلىء بالأشجار. وحفروا في كل شبر بئراً. ولم تمض سنتان أو ثلاث

سنين حتى جفت الآبار، أصبحت مثل ثقوب الجرذان، لا تعطي ماء وانما تعطي وحلاً ورائحة كريهة!

أنت تعرف ان الآبار مثل الأشجار اذا لم تعطها لن تعطيك. ومن أين لهم ان يعطوا الآبار ما داموا قد قطعوا الأشجار؟ الأشجار هي التي كانت تسوق لهم المطر، كانت تسوقها من أقاصي الدنيا حتى تخيم على الطيبة سحب سوداء تظل تمطر اياماً بلياليها. لم تكن الأمطار تتوقف، كانت في بعض السنين تحول الأرض إلى سيول، وكان أبي يقول: اللهم اجرنا من الطوفان. ولكن السنين تمر والمطر لا يأتي إلاّ مثل بول الكلاب، لحظة وينقطع. الأشجار هي التي تأتي بالمطر. ان الاشجار مثل الأطفال، وبمقدار ما ينظر الرب إلى الأطفال ويرعاهم، فإنَّه ينظر إلى الأرض من خلال أشجارها، فإذا قطع الناس أشجارهم فإنَّ الرب يتركهم ويعطي المطر لغيرهم، لمن عندهم أشجار!

وهكذا خسرت الطيبة كل شيء، خسرت الأشجار وخسرت القطن. وأنت تعرف يا صاحبي ان خسارة الأشجار مثل خسارة الرجال، لا تعوض.

فكَّر الناس. استغاثوا بالرب، عمقوا الآبار مرة، ومرة أخرى. ولكن الآبار لا تعطي والقطن يضمر ويموت قبل ان تكتمل خضرته، وتبور المواسم ويهاجر الناس.

حتى كان يوم وهم يفكرون. قالوا: الياس هو الذي جلب لنا النحس وليس أمامنا إلاّ أن نقتله أو نحضره إلى الطيبة.

قلت لهم مع ذلك الراعي الذي أصبح رسولاً بيننا: أعود إلى البلدة ولكن لن يعود لها الخير، ان كنتم تريدون الخير فيجب ان تبحثوا عنه في الأشجار ولكنهم لم يفهموا!

وكان يوم عدت فيه إلى الطيبة. قلت ارجع يا الياس وليكن ما يكون. رأيت الحزن يخيم على الرجال. كانوا متعبين حائرين لا

يُعرف أحياء هم أم موتى، لا يُعرف هل يزرعون أو لا يزرعون.

لا أطيل عليك، قلت لهم: يا أهل الطيبة ان كنتم تظنون ان الياس خلف لكم النحس، فها انا قد عدت. وإن كنتم تريدون ان تحيوا مرة أخرى فإنَّ الأشجار طريقكم إلى الحياة. لن أبقى في البلدة حتى أغرس بستاني وينمو مرة أخرى. فإن كنتم تريدون أن يزول عنكم النحس فاعطوني قسماً من ارضي وساعدوني على غرسها، أمَّا القسم الآخر فإنِّي أتنازل عنه لأولاد زيدان ثمناً للغنم.

ولم أقل كلمة واحدة عن زيدان وجراحه، كان زيدان يستحق تلك الجراح!

تركتهم أياماً ورجعت. قلت لهم هل توافقون؟

بعد تفكير وافقوا، ثم رجعوا. ووافقوا مرة أخرى، ثم رجعوا، فحزمت أمري وقلت سأبقى، ولكن سأكون بعيداً عن الأرض، ازرعوا ما تشاؤون.

فتحت فرناً في البلدة، بعد ان بعت الأرض كان أول فرن في الطيبة. استغرب الناس، سخروا مني، قالوا: انظروا انه يحمل التمر الى مكة! ولم تمض شهور حتى ذهبت الأموال وتوقف الفرن.

لو أرادوا لظللت في البلدة. كانوا قادرين على شراء الخبز الذي أصنعه، ولكنهم لم يشاؤوا. لم أبع الخبز إلاَّ للغرباء العابرين وبعض الرعاة، أمَّا هم فقد كانوا يأكلون خبزهم الذي يصنعونه ويضحكون.

في صباح أحد الأيام لم أجد أمامي سوى الجهة الشرقية مفتوحة تناديني، فركبت العربة التي تسافر الى المدينة البعيدة، وقلت لنفسي: سأترك الطيبة لأهلها وأرحل...

6

في المدينة عملت صانعاً عند دهان، ثم عاملاً للبناء. كان حظي في هذين العملين مثل حظِّي في الفرن. أعمل يوماً وأتعطّل أياماً. جعت في المدينة الكبيرة. تعبت وأنا أدور. صدتني الوجوه القاسية التي لا تعرف رائحة الأشجار ولا تعطف على الغرباء. فكّرت أن أعود للطيبة مرة أخرى، ولكن الكراهية الصفراء التي رأيتها في وجوه أهلها صدّتني بسرعة. ودوت في أعماقي صرخة تؤنبني، تقول لي: ابق حيث أنت، ابحث عن عمل جديد.

وبحثت حتى أصبحت عاملاً في معمل للبلاط. كنت أصب القوالب طوال الصباح، فإذا حان وقت الغداء استريح. كنت آكل الرغيف وأنا أنظر الى الأشجار البعيدة. لم أكن أتمنى شيئاً في ذلك الوقت سوى أن أستظل تحت شجرة من تلك الأشجار، ما أشد روعة الأشجار في ظهيرات الصيف، انها لا تحمل الظل فقط، ان لها رائحة نفاذة تغزو القلب. وأفيق من ذلك الحلم القصير على صوت صاحب المعمل:

ـ أعرف هؤلاء الفلاحين، انهم كسالى مثل حيات الشتاء. أمَّا عندما يطالبون بأجورهم فإنَّ الحيّات تصبح ذئاباً.

وأقوم لأدور مع تلك الآلة اللعينة. كنت أدور وأدور حتى يختل نظري، ولا أعود أعرف إن كنت أنا الذي يدور أم تلك الآلة.

وعند الغروب أتناول أجري الذي يذوب مثلما يذوب الملح في الماء، فندق أهل الطيبة يسرق النصف، والأكل يسرق النصف الآخر.

مرت أيام طويلة لم أستطع خلالها ان أذوق الخمر. ومرت أيام أطول وأنا أفكّر بالطيبة والأشجار إلى أن قال لي صاحب المعمل ذات يوم:

ـ منذ الغد فتش عن عمل آخر، يا الياس!

وظللت أبحث اياماً طويلة عن عمل حتى وجدته. لقد أصبحت وقّاد حمام.

كنت أنزل الى القبو الذي يشبه الجحيم، وأظل هناك الساعات الطوال القي الحطب في الموقد. لم يكن يؤلمني سوى انني أحرق الحطب. كنت أظن ان كل قطعة خشب جاءت من الطيبة، ومن بستاني بالذات. هل شممت رائحة الحطب وهو يحترق؟ انها تشبه رائحة الخبز، رائحة شيء حي. كنت أتألم، ولكن من أجل ان يعيش الانسان لا بدَّ أن يعمل.

لم يكن يسري عني في هذه الساعات الطويلة القاسية، وأنا أحترق في ذلك القبو اللعين، إلاَّ تلك الأصوات الناعمة اللذيذة التي كانت تصلني من بعيد. أصوات النسوة اللواتي يغتسلن فوقي في الحمام. كان دور النساء طوال قبل الظهر، كل أيام الأسبوع، عدا الجمعة. وفي هذه الأيام كنت أحس رضا من نوع ما، مثل ذلك الرضا الذي يحسه الانسان بعد ان يفرغ من عمل كبير، بعد ان ينتهي من القطاف، بعد ان يقوم بفتح القناة ليتدفق الماء وليسقي الزرع.

كنت أحب أصوات النساء، ألتذ بها لدرجة انني فكّرت كثيراً بهذا الأمر. كنت أتصوّر النساء، واحدة واحدة، حتى كدت أعرفهن تماماً. وأصبحت لي بهن علاقة. أصبحت اعرف «عدلة» التي تأتي

كل يوم اربعاء. أعرفها من صوتها، من مشيتها، أعرفها من ضحكتها وهي تطش الماء على «وديعة». وعرفت أيضاً «أم ليلى» و«غزالة». كانت غزالة تحصر بين ساقيها ابنتيها الصغيرتين. وكانت البنتان تصرخان صراخاً حاداً يمزق القلب، حتى اني تمنيت في وقت من الأوقات لو أضرب غزالة، لو أصرخ في وجهها، ان أقول لها كلمة واحدة، أن أقول لها: حرام عليك يا ظالمة... انهم اطفال صغار لا يحتملون هذا الماء الساخن!

عشت في الحمام أكثر من سنة. خرجت بعدها ضعيف البصر، وأصبحت الشمس عدوا لي. لم أرَ خلال تلك السنة كلها شجرة خضراء واحدة. لم أرَ ثمر التفاح والمشمش وهو يزهو ويحمر. كنت قابعاً في ذلك الجحر مثل خلد أجرب، القي الحطب دون توقف، فإذا ما فتح الباب أغلقت عيني خوف ان يقتلني وهج النهار!

ذات يوم، ودون أن أفكّر، شعرت ان روحي تحوم فوق صدري. خرجت فوراً الى صاحب الحمام وقلت له: لا أريد أن أعمل لحظة واحدة اريد الآن أن أغادر هذه المدينة اللعينة، ولن أعود اليها مرة أخرى.

حاول معي صاحب الحمام، حاول كثيراً. قال لي: نعطيك ضعف ما تأخذ، نعطيك راحة. ولكني قلت له اني لم أعد أطيق الحياة تحت الأرض، أريد أن أرى الشمس والأشجار، أريد ان أعيش فوق الأرض، حتى اذا مت نزلت إلى تحتها مرة واحدة وإلى الأبد.

وهكذا تركت الحمام. ظللت شهرين أبحث عن عمل. بحثت في كل مكان. سألت أصحاب الحوانيت، والمارة. سألت مختار الحي الذي سكنت فيه، سألت صاحب نزل أهل الطيبة، ولكن أحداً لم يجبني.

ـ وهل رجعت إلى الطيبة؟

بدا سؤالي باهتاً. لمحت وجهه يتقلص كأنِّي انتزعته من حلم، ودون ان انتظر جوابه تابعت: أقصد ماذا حصل بعد ذلك؟

ـ العمل والبطالة يتكرران مثلما يتكرر الليل والنهار. عملت كثيراً وتعطلت كثيراً. فبعد الحمام اللعين بدأت أنتزع نفسي من الذكريات التي تراكمت في رأسي عن النساء اللواتي يشبهن البلور. ولكن، رغم كل ما حاولت، فقد ظل شيء في داخلي يتحرك، شيء لم ألاحظه من قبل. لم تكن المرأة تشغلني كثيراً ولكن وجدت نفسي دون أن أدري أفكّر فيها، وكنت أحلم أيضاً، وأنت تعرف ان المرأة مثل أمور كثيرة في هذه الحياة لا يمكن أن يفوز بها الانسان اذا لم يكن غنياً، أقصد عنده بعض المال على الأقل، وانا في ذلك الوقت لم أكن أملك شيئاً!

قررت ألاَّ أفكّر بالمرأة أثناء النهار، ابداً. فالمرأة تحتاج إلى وقت هادىء وطويل لكي يتخيلها الرجل. وفي ساعات الليل كنت أملك هذا الوقت. كنت أتخيلها عارية تماماً، لون جسدها يشبه عرنوس الذرة الذي لوحته الشمس، تلمع مثلما تلمع الأشجار بعد المطر. وأكثر من مرة تخيلتها نائمة وشعرها مفروداً معتماً كأنَّه ظلال شجرة الجوز الكبيرة.

لكي لا اطيل، أقول لك اني تخيلت المرأة في كل الأوضاع، عرفت تفاصيل جسدها تماماً، لون حلمتي ثدييها، لون ساقيها، وتجاعيد البطن. كل شيء.. كل شيء، حتى اني كنت أستطيع وأنا نائم أن أمد يدي إلى أي جزء وأعرفه دون أن أراه!

وفي هذه الفترة أحسست بالحرمان كما لم أحسسه من قبل، وكأن الدنيا تطبق عليّ، تريد ان تخنقني، فانتابتني آلام في الظهر، لم أشف منها إلاَّ وأنا أدور مثل مكوك الحائك في ذلك المقهى التعيس حيث وجدت عملاً!

كنت أحمل صينية الماء طوال الليل والنهار. عندما يرتوي

الناس وترجع الكؤوس مليئة مثلما كانت، كان أبو ذياب، صاحب المقهى، يصرخ في وجهي بصوتٍ يزلزلني، كان يقول:

- ستبقى حماراً، ولن تتعلم أبداً. ألا تسمع الزبائن يطلبون ناراً؟ مَن سيحمل لهم النار؟ هل تريدني ان أحملها بنفسي؟

ومثل معتوه اصطدم بالكراسي، بالطاولات، وأنا ذاهب لأحمل المجمرة بدل صينية الماء. وأظل ألف على كعبي: نارة. نارة. حتى أسمع صوت المعلم مرة ثانية:

- والماء؟ هل تريد من الزبائن ان يذهبوا الى رأس النبع لكي يشربوا؟ ماذا تنتظر حتى تحمل اليهم الماء؟ وأشير إلى المجمرة في يدي، أهزها لعله يراها، ولكنه لا يرى شيئاً أبداً، وانما أسمع صوته:

- يا ابني ان الله خلق العقل زينة، لماذا لا تستعمل عقلك، اترك المجمرة الآن واحمل صينية الماء!

- كنت أعاني كثيراً ولكنني اضطررت للبقاء، لأن العمل في المقهى كان يطعمني ويوفر لي مكاناً صغيراً أنام فيه. كنت أنام بعد أن يذهب جميع الناس، وبعد ان أجمع الكراسي مثل تلال الجراد فوق الطاولات.

كرهت أبا ذياب. وكرهت هؤلاء الذين لا يرتوون من الماء. كرهت النار التي أحملها لأناس متبطلين ليس لهم عمل سوى ان ينقروا على طرف الأركيلة بملقط صغير ويقولون دون ملل: نارة. نارة.

خلال السنة التي قضيتها عاملاً في المقهى لم أفكّر بالمرأة، لم أرَ طيفها، لم أسمع صوتها. كانت تتراءى لي بعيدة من وراء الزجاج، حتى ظننت أنها أصبحت مستحيلة، أو هي مجرد شبح يتلاشى ان وضع عليه الانسان يده. وحتى في ليالي البطالة التي تألمت فيها وأنا أعاني من الجوع، كنت أتصور المرأة، كنت أتخيلها، فأستريح. أمَّا الآن فإنِّي لا أكاد أضع رأسي على الوسادة

حتى اتلاشى وأغيب عن الوعي، وكأنّي أسقط في بئر لا نهاية لها!

كنت وأنا أدور وصينية الماء بين يدي، انظر الى فئة سعيدة من الناس وأحسدها. وكنت أنتظر اليوم الذي أستطيع ان أجمع بعض المال لأبدأ العمل.

لا تظنِ أني أنظر إلى زبائن المقهى، فهؤلاء رغم اني قضيت معهم عمراً، لكني لم أرهم، وحتى لو قابلت احدهم الآن لما عرفته.

كنت أرقب باهتمام لا يعرف الملل الباعة المتجولين، الذين يحملون الجوارب والعطور والملابس الداخلية، ويبيعونها في المقهى. كنت أقترب منهم أنظر الى وجوههم، أسمع كلماتهم التي يردّدونها دون تعب وهم يقنعون الناس بالشراء.

لقد قرّرت بيني وبين نفسي ان ابدأ عملاً من هذا النوع، عندما تتاح لي الفرصة. وقد تجرأت اكثر من ذلك، وقادني طموحي لأن أفكّر بهذا العمل، ولكن بشكل افضل.

بعد سنة، وكان أبو ذياب غاضباً يصرخ ويشتم، صدف ان رآني أنظر اليه. ودون سبب شتمني. لم أحتمل، ولكن لم أتفوه بكلمة واحدة. ذهبت إلى الزاوية التي كنت أنام فيها، جمعت ثيابي وقرّرت امراً خطيراً: قررت ان أغادر المقهى.

هل رأيت في حياتك ثوراً هائجاً؟ لقد غضب أبو ذياب مثل ثور، ذلك اليوم، وهو يراني أقف أمامه بهدوء وأطلب منه ان يحاسبني!

هجم عليّ، أمسك بكتفي وأخذ يهزني، ولكن ظللت هادئاً لا أجيب ولا أتحرك. ولما بدأ يشتم قلت له، ولا أعرف من أين اتتني الفكرة:

ـ أنت حيوان مفترس، تماماً كالضبع، لأنك لا تحس بألم الفقراء.

تطلع إليّ مصعوقاً، ولما تأكد من ان الياس يقف امامه، وانه قال هذه الكلمات صرخ:

- اخرس يا كلب.

نظرت اليه طويلاً وقلت:

- اذا تكلمت كلمة أخرى كسرت رأسك.

دهش وكأنَّه لا يصدق. تجمع الناس حولنا. نظروا إلينا وبهدوء لم أعرفه في نفسي قلت بصوت عال:

- ادفع لي يا أبا ذياب اجري، وقل كلمة حلوة لكي أغادر بسلام، وسكت لحظة ثم تابعت:

- الكلمة الحلوة قبل الأجر!

تغيّر الجو في التو واللحظة. نظر إليّ أبو ذياب نظرة تمتلىء مرارة وحقداً، الناس حولنا صامتون ينتظرون ما سيقوله، وأنا في مكاني ثابت وقد صممت على عمل شيء ان هو حاول ان يعتدي علي، وسمعت صوته، كان صوته راجياً وقاسياً وهو يقول لي:

- قم غيِّر ملابسك وارجع الى عملك يا الياس.

ولكن لم أقم. ظللت صامتاً انتظر فراغ صبره. كرّر الطلب مرة أخرى ومرة ثالثة. وفي كل مرة تتغير لهجته. ولكني في مكاني لا أتزحزح، أصوب اليه نظرات قاسية، حتى سمعته يقول ولم يعد يطيق ان يراني:

- يا خسارة الاحسان في غير مكانه، كلب تعطيه عظمة ثم يعضك!

صرخت في وجهه، شتمته، قلت له انت الكلب يا ابا ذياب، الكلب مَن لا يحترم الناس، مَن لا يحترم نفسه. الكلب يا أبا ذياب مَن يعتدي على الناس، مَن يهينهم، وأنا والحمد لله أحترم نفسي ولا أعتدي على أحد، وخاطبت الناس الذين كانوا لا يزالون متجمعين: احكموا أينا أحسن اخلاقاً!

سرت في الناس حركة شجعتني. لم أسمع ما قالوا، ولكن رأيت وجوههم تمتلىء جسارة وتأييداً وكأن شيئاً يشبه الانصاف يسندني. تطلعت اليه، ثم هززت رأسي بأسف وقلت: أعطني أجري. . . ولا أريد شيئاً آخر.

7

بعد ثلاثة أيام اشتريت حماراً أبيض قوياً. وفي الخرج الذي على ظهره عشرات الحاجات الصغيرة التي يمكن أن تُباع في القرى: مرايا، دبابيس، خرز، حناء، مناديل ملونة، أمشاط، خيوط، وتجرأت واشتريت ملابس داخلية رخيصة وبعض قطع القماش، وخمسة أزواج من الأحذية.

وقبل أن أغادر المدينة باتجاه القرى، اشتريت سكراً وشاياً وملحاً ولم أنسَ أن أشتري ثلاثة صاعات من الشعير للحمار.

لقد كان شراء الحمار أهم شيء في حياتي، حتى أنّي خلال فترة طويلة نسيت الأشجار من فرط الفرح وأنا انتقل من قرية إلى أخرى، أبيع وأشتري. ربحت كثيراً، وندمت لأنّي لم أفعل ذلك من قبل. كما اني أصبحت معروفاً في القرى التي أمر عليها، وقامت بيني وبين الناس علاقات المودة والتفاهم.

ـ حتى ذلك الوقت لم تكن تعرف النساء..؟

سألته وابتسامة ماكرة تشعره اني لا أصدقه.

نظر إليّ وهو يهز رأسه، ثم فتح فمه وأمسك شفته السفلى بثلاثة أصابع يريد ان يرى مكان أسنانه المتساقطة.

بدت أسنانه صغيرة متآكلة، وقد علتها طبقة من سواد، ومكان الأنياب فجوة كبيرة تبرز تحتها لثة فقدت لونها الأحمر فأصبحت بلون

التراب. ولما اطمأن اني فهمت اشارته، قال:

ـ فقدت أسناني ـ كما ترى ـ ولم يبق لي في هذه الحياة إلاّ أعوام قليلة ثم أمضي، ومع ذلك فإنَّ السر الوحيد الذي لم أكتشفه ابداً هو المرأة.

ـ المرأة ليست سراً، الرجل هو الذي يحاول ان يجعلها كذلك، وكأنَّه يلتذ بلعبة القطة والفأر!

ـ ان كنت تفكر هكذا فأنت لا تعرف شيئاً عن هذه الحياة!

قلت بلهجة بدت لي كاذبة مصطنعة:

ـ أنا لا أعرف شيئاً، أحاول أن أتعلم!

قال وقد تغيّر كل شيء فيه: ملامحه، لهجته، بريق عينيه:

ـ كثيراً ما تبدو الأشياء بسيطة، وكأن ليس فيها سر، ولكنها تتغيّر فجأة، فتبدو جديدة تماماً، جديدة حتى لكأنك تراها أول مرة. وسكت.

لم يرتح لهذه البداية. تاهت عيناه وهما تفيضان، واستغرقته حالة من التفكير او الذكرى. بدا الصمت قاسياً، وهدير القطار يشق الظلام مثل حيوان مجنون.

قلت وأنا أتظاهر بالموافقة على رأيه:

ـ لا أدَّعي ان الحياة خالية من الأسرار، ان ادعاء مثل هذا لا يقوله أحد، ولكن الانسان ميال بطبيعته لأن يضفي على بعض الأشياء الغموض والقداسة، ويرتاح وهو يكتشفها!

ـ أنا لا أفهم أشياء كثيرة في هذه الحياة، ومع ذلك تبدو لي أقل غموضاً من المرأة! ان النساء والأشجار لهن طبيعة واحدة.

ـ كيف؟

سألته وقد أصبح الأمر شيقاً وعابثاً في نفس الوقت، فأجاب بحدة:

ـ هل رأيت الأشجار تنفجر في نيسان؟

ـ رأيت الأشجار في نيسان.

ـ أسألك ان كنت رأيتها تنفجر، تتمزق باللهب الصاعد من أعماق الأرض؟

ـ العادة ان يرى الانسان الأشياء التي يحب!

ـ هذا هو الفرق بين الانسان الذي يحب الأشجار، وبين الذي لا يرى فيها سوى أعواد خضراء.

قلت وقد بدت لي مداعبة الكلمات والأفكار مملة:

ـ ألا تريد ان تحدّثني عن المرأة وأسرارها؟

ـ عنها أتكلم.

قال ذلك وقد جفَّ وجهه حتى أصبح مثل قطعة الحجر.

ـ نتحدث عن أشياء تتوهمها، تشتهيها!

ـ نعم عن أشياء أشتهيها. أحبها أكثر من أي شيء في هذه الحياة.

ـ لن أقاطعك، تكلّم كما تشاء عن هذا السر الذي تحبه وتطارده.

ـ هل أحببت يوماً؟ قد أكون متطفلاً، ولكن ما سأقوله لا يفهمه الذين خطبت لهم أمهاتهم وتزوجوا ثم ماتوا!

ـ لكي أوفر عليك أنا غير متزوج.

ـ وهل أحببت؟ هل تحب؟

ـ كثيراً!

ـ أنا لا أمزح

ـ أتعرف؟ نظرت إلى عينيه بتحد وقلت: أنت لا تعرف المرأة، ولذلك تبدو سراً، لو كنت تعرفها لتحدثت بطريقة أخرى!

ـ أنا الذي قلت لك اني لا أعرفها.

ـ احكِ الشيء الذي تعرفه!

ـ انتظر!

وحاول ان يرفع أكمام يده اليسرى، فلم يستطع. بدا يخلع ستراته واحدة بعد أخرى، حتى شمّر عن ساعده. رأيت أثر جرح كبير، ووشماً أخضر متداخلاً لا تبان خطوطه، وسألني:

ـ أترى؟

كانت عيناه على الجرح والوشم لا تفارقهما!

ـ أرى

ـ هذا أحد أسرار الحياة!

ـ كيف؟

ـ بعد ان اشتريت سلطاناً، وقد نسيت أن أقول ان هذا الاسم اطلقته على الحمار الذي حدثتك عنه، تولدت بيننا الفة قلَّما تجتمع لاثنين. كان حماراً عجيباً وذكياً، نعم أعجب حمار رأته عيني. كان يفهم أكثر من البشر دون ان يقول كلمة واحدة، وصدقني انه هو الذي كان يشتري ويبيع للناس أكثر مما أفعل! كان يقودني من قرية لأخرى، وكأن الحيوانات تمتلك حواساً تجعلها تفهم أكثر من البشر، أو ربما كان هو بالذات يملك وحده هذه الحواس. فعندما أطيعه نبيع ونربح، أمَّا اذا عاندته، وهذا ما كنت أفعله أوّل الأمر، فينقضي يومنا دون أن نربح شيئاً. كنت أعرض البضائع، أقول للنساء هذه جيدة، هذه رخيصة، ولكنهن يتضاحكن ولا يفعلن شيئاً سوى ذلك.

تكرّر الأمر مرات، اكتشفت بعدها ان الرزق حيث يقودني هو. نعم. . لقد كان ذلك الحمار عجيباً، كنا اذ وصلنا مفارق الطرق أسأله: أين سنذهب يا سلطان؟

لم يكن يجيب، كان يرفع رأسه، وبعد ان يعب الهواء كأنه يتشربه يقف ليفكر، ثم ينهق ويأخذ اتجاهاً. لم أكن أخالفه. كنت أسأله: ولكننا يا سلطان منذ وقت طويل لم نذهب الى قرية

العزراوية؟ ألم تسمع ما قلناه لأهلها آخر مرة عندما كنا نبيعهم المناديل الملونة؟

كان يسمع ويفكر، ولكنه في النهاية يقرر أين يجب أن نذهب!

هكذا ابتدأ الأمر. ومن ذلك الوقت لم أعرف النساء، إلاَّ ما صوّره لي خيالي وأنا ألقي الحطب في موقد الحمام، أو ما سمعته من قصص في الطيبة، ونحن ما نزال صغاراً. ودون أن أشعر بدأت أفكّر بالنساء!

وربما كان ذلك وأنا أجوب القرى وأرى النساء، وليس الحال مثلما كنت في المقهى.

بدأت أسمع أصواتهن الطرية الناعمة، وأرى صدورهن. كانت الصدور تثيرني والأطواق التي احملها مدلاة عليها، وكانت أردافهن تهتز مثل كتل النار وهن يحملن جرار الماء فوق رؤوسهن.

في هذه القرى عرفت ان الحياة بدون المرأة لا تعادل روث سلطان، وبدأت استغرب كيف يمكن للرجل ان يحيا بدون المرأة، لا يهم إن كانت زوجة او شيئاً آخر، المهم ان توجد، وان يلتقي بها الرجل. بدأت أفكّر بالأمر حتى اكتشفت شيئاً لم أكن أصدقه، لقد اكتشفت ان المرأة سهلة لدرجة لا تحتاج لهذا التفكير كله لكي تصل إليها. أتعرف ما تحتاجه المرأة؟

- قلت لك لن أتدخل.. قل لي ما تحتاج؟

- ولكن لا بدَّ وان تكون عرفت ذلك، اكتشفته بطريقتك الخاصة!

- لقد اكتشفت، وبطريقتي الخاصة، ولكن أريد أن أسمع رأيك، ثم أقول لك!

- بعد تفكير متعب اقتنعت ان المرأة شيء مستحيل. صحيح انك تراها كل يوم، وفي كل مكان، ولكن مثل الشمس لا يمكن أن تلمسها!

ـ كيف عرفتها، قل لي بحق الشيطان.

ـ المرأة يا صاحبي عكس الطريقة التي تقول فيها الآن!

ـ كيف؟

سألته وقد أصبحت كلماته مثل أشواك تنخز جنبي.

ـ المرأة خرز وكلمات حلوة.

ـ خرز وكلمات حلوة؟

ـ نعم خرز وكلمات حلوة، ولا شيء غير ذلك.

ونظر إليّ يريد أن يرى تأثير كلماته، ولكني شددت وجهي لكي لا أتركـ له ان يرى شيئاً، لعل كلماته الغامضة تفقد سحرها. قلت:

ـ وهل هذه الوصفة لا تزال سارية المفعول؟

ـ كأنَّك لا تصدق!

ـ أصدّق! أصدق! أريد أن أفهم. كان يريد ان ينفذ صبري بسرعة، فابتسم ابتسامة ظفر ثم قال:

ـ ماذا تحتاج المرأة؟ وتابع بسرعة، المرأة تحتاج إلى كلمات حلوة. صحيح انني أعطيت كثيراً مما كنت أحمله في الخرج: مناديل، مرايا وحناء، وبعض الأحيان سكراً وطحيناً، ومع ذلك فإنَّ قلب المرأة لا تفتحه إلاَّ الكلمات!

وبهدوء بدأ يلبس ستراته من جديد، وعيناه تبرقان وتخبوان كل لحظة، وكأنَّ هذا التتابع، اشتعال للذكريات في رأسه، الذكريات الحزينة التي مرت، والذكريات الحلوة التي تلوح في هذا البريق المتوهج.

بعد ان انتهى وزرّر سترته الأخيرة باحكام، ألقى برأسه الى الخلف وتابع:

ـ نقف أنا وسلطان، فتتجمع حولنا النسوة. هذه تريد أزراراً

وابراً. هذه تريد مشطاً كبيراً أبيض. هذه تريد منديلاً بلون شقائق النعمان. . أقول لها هذا المنديل أجمل. البسيه، جرّبيه! كنت في أول الأمر اريد أن أبيع المناديل التي أحملها، ومن اجل ذلك كنت أقول:

ـ أنت جميلة عندما تلبسين هذا المنديل الأخضر. ولكن رأيت شيئاً في العيون أثارني وحيّرني فما أكاد أقول لواحدة ان هذا المنديل جعلك جميلة حتى أرى في عينيها أكثر من ضحكة. كنت أرى فرحة ترقص، شيئاً غامضاً لا أعرف ما هو!

ومن ذلك الوقت درجت هذه الكلمات على لساني. وتعمدت ان أقولها لأغلب النساء اللواتي يشترين مني.

تصوّر. . حتى النساء المسنات اللواتي لم يبق منهن شيء، كن يفرحن وأنا أقول لهن: «لقد نقص عمرك يا أم وردة عشرين سنة بعد ان لبست هذا الثوب».

تقول لي: يجب ان تشرب عندنا الشاي. يجب أن تأكل لقمة قبل ان تمشي!

وأنت يا فرحة، هل يوجد في المنطقة كلها ولسفر يومين، رجل أسعد من زوجك؟ وبغنج تسألني: لماذا؟ فأقول لها: الله يبارك له بهذا المال. وأشير اليها من رأسها حتى قدميها. وتضحك وتقول لي: أنت ابليس ولكنك مجرب وفهيم!

كنت أقول الكلمات من اجل أن أعيش، ولكن بعد فترة تغيّر كل شيء فيّ.

لم أعد أتصرف بالكلمات مثلما يتصرف الانسان بروث البقر. لا. . . أصبحت اختارها، أجلوها، أفكّر فيها، وعندما اطلقها تصيب في هذا المكان تماماً.

وأشار إلى صدره، جهة اليسار، وهو يضحك!

وتابع وهو يهز رأسه:

- ومع الأيام أصبحت الكلمات كائنات عجيبة، تماماً مثل الحمار، لها حياتها المستقلة وتأثيرها الغريب. فإذا تجمعت النساء، وبدأت كل واحدة تقلب الأشياء التي أحملها، كنت أتصرف معهن بطرق مختلفة: واحدة أحب ان أبيعها، لأن وجهها يشبه الخبز الناضج، فكنا نتحدث عن المناديل والمدينة، وأسألها عن زوجها وعن أولادها، وبشكل غامض لم أستطع ان أفهمه أبداً نصل إلى ما نريد دون تعب! وواحدة لا أطيق أن أساومها لأن في عينيها عفة الكلاب، فهي تريد ولا تريد، وهذا النوع من النساء لا يمكن ان تصل اليه، لأنَّ عقولها تقفز دون توقف، مثل الجراد. تظل تحوم وتحوم دون ان تتعب، حتى اذا اصطادتك طالبتك بكلمات كبيرة، وتسقط من عينيها دمعة كالبصاق وتقول: هذه الخطيئة ستعذبني حتى أموت، لن أكرّرها مرة أخرى. ولكنها تكذب، أنا أعرف هذا النوع، فإذا حاولت أنت معها فقد لا تعود الى هذه القرية مرة أخرى، لأنَّك فاجر وخنزير. تقول احتال عليّ فنظر إلى ساقي وقرصني وأراد ان يعتدي علي!

وتغيّر شكله وهزَّ رأسه مرات كثيرة، كأنَّه يتذكر، ثم تابع يقول:

- أتعرف الأشياء التي يحملها البائع على الحمار؟

لم أجب. . .

- لا أريد منك جواباً، أنت لا تعرف مهما حاولت، لأنَّ هناك دائماً شيئاً تنساه، وأنا الذي كنت بائعاً لم أكن أتذكر. عشرات المرات حاولت ذلك، ولكن اكتشفت دائماً أشياء جديدة.

لاحظ اني لم أفهم كلماته، ابتسم أوّل الأمر، ثم قهقه وقال:

- النساء بقدر هذه الأشياء وأكثر. تتذكر واحدة وتقول هذه. تحوم وتحوم، وفجأة تترك وتمشي. تسأل نفسك لماذا حاولت؟ أين هي اللحظة الضعيفة التي انفجرت في رأسك وقالت لك شيئاً؟ أنت

لا تعرف. ومرة أخرى لا تكون رأيت هذه المرأة من قبل، فما هي إلاَّ كلمة حتى تربط الحمار في حاكورة أو تحت شجرة وتمضي معها الى مكان لا يراكما فيه أحد!

- أنت تتوهم، مَنٍ يسمعك تتحدث هكذا يظن أنك لم تبق امرأة واحدة في القرى إلاَّ ونمت معها.

- أنا لا أقول ذلك!

- هل تراجعت؟

- لم أتراجع، ولكن أقول لك اني عرفت نساء كثيرات!

- كم امرأة عرفت؟

- لا يهم العدد، قد لا أكون مثل غيري، ولكن عرفت أنواعاً كثيرة من النساء!

- النساء نوع واحد، كل امرأة تشبه المرأة الأخرى، تشبه كل النساء.

- وحق يسوع المسيح أنت لا تعرف شيئاً!

- قل لي أنت الذي تعرف كل شيء!

- أنا لا أعرف لقد حيّرتني المرأة.

- كنت تتحدث عن الأسرار، وحتى الآن لم تتحدث إلاَّ عن أوهام تتخيلها، تماماً كما كنت تفعل وأنت في الحمام!

- تريد الحق؟ المرأة بدون خيال الرجل لا تعني شيئاً. ماذا تتصور ان تكون المرأة لو لم يوجد الرجل؟

- أتعرف يا الياس، سألته بلهجة استفزازية. . ان كل ما رأيته مجرد وهم. انت لم تعرف النساء، خيالك هو الذي أوحى لك انك تعرف!

- والجرح الذي رأيته الآن؟

- ما قصة هذا الجرح، قل لي بربك وأرحني!

ـ أكثر ما يهين الانسان أن يعرض نفسه، دون أن تكون هناك حاجة!

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا أقصد شيئاً . . .

وبدأ يتحدّث كما لو كان يحدِّث نفسه:

ـ أنت حيوان يا الياس، لماذا تزعج الناس؟ مَن قال لك ان تدلي لسانك مثل كلب عطشان؟ مَن قال لك أن تتحدث؟

ـ أنا الذي سألتك.

ـ لو كنت مثل المسافرين الآخرين لما تحدّثنا.

ـ ما زلت أريدك ان تتحدث، وتأكّد ان الشوق الذي أحسه نحو ما تقوله يزداد في قلبي، ولكنك تريد ان تعذبني، كما عذبت النساء!

ـ أتريد الحق؟

ـ لا أريد شيئاً غيره!

ـ أنا الذي تعذبت من النساء، ولم أعذب سوى واحدة.

ـ هل تحب ان تحكي لي عن العذاب؟

ـ لأترك أشياء كثيرة، وأقول ان الجرح الذي رأيته الآن هو الجرح الوحيد الذي لن يشفى. سأموت خلال سنين، عشر سنين، على أبعد تقدير، ولكن هذا الجرح سيبقى ينز دون انقطاع.

ـ والجراح التي تركتها عند النساء؟

ـ كانت جراحاً صغيرة!

ـ لا يهم ان تكون صغيرة أو كبيرة، فعندما يجرح الانسان لا ينسى!

ـ ومَن قال لك اني نسيت؟

ـ لنتحدث عن جراحك أنت، الجرح الذي رأيته الآن.

ـ أتعرف . . ؟

نظر إليّ وابتسامة حزينة تطوف فوق ملامح وجهه كلها، وتابع:

ـ سلطان هو الذي جرحني!

ـ كل هذا الحديث عن النساء والجراح، ويكون الحمار هو الذي جرحك؟

ـ نعم هو الذي جرحني، ومنذ ذلك الوقت لم أعد أطيق أن أراه. صحيح ان ذلك حصل بعد وقت طويل، بعد اكثر من سنتين، ولكني لم أترك الأمر يمضي دون أن أفعل شيئاً، لقد انتقمت منه!

ـ لا أفهم ما تقول!

ـ أعرف ذلك، لأنَّ الأمر كله مهزلة مجنونة!

ـ عن أي شيء تتحدث؟

ـ عن المرأة. عن المرأة الوحيدة التي مضت قبل سنين طويلة ولكن لا أزال أراها حتى الآن، وفي كل لحظة! لا أطيل عليك، فإنَّ القصة حدثت ونحن نطوف القرى. صحيح اني عرفت عدداً من النساء غيَّرن من طبيعتي، ولكن هذه المرأة وحدها هي التي جعلت مني انساناً جديداً!

ذات يوم مررنا على بيت منعزل، تسكنه امرأة مسنة وابنتها. وكان الى جانب البيت بستان صغير وأرض لا يزيد عرضها عن أربعين ذراعاً، وطولها مائة أو أكثر قليلاً، وقفنا أنا وسلطان، نريد ماء نشرب ونعرض بضاعتنا لعلَّ المرأتين تشتريان.

حملت لنا المرأة العجوز الماء فشربنا، وكدت أمشي عندما لاحظت عدم الرغبة بالشراء، ولكن سلطان أبى أن يسير، وكأنَّ شيئاً يربطه إلى الأرض، يشده اليها. لم يكن يريد أن يتحرك أبداً. تحدثت معه، شتمته، ضربته، وهو في مكانه لا يتحرك، ولا يمشي!

قلت في نفسي ان الحمار قد جن، لقد جنَّ تماماً، وإلاَّ لماذا

لا يمشي؟ وقلت في نفسي ان تعب اليوم قد هدّه، فلنجلس قليلاً ونسترح، وبعدها نواصل سيرنا.

جلسنا وطال جلوسنا. وقد حاولت أكثر من مرة أن أتحدث معه بهدوء. قلت له ننام في القرية وهي لا تبعد عنا أكثر من ساعة. قلت ننام في الطاحونة، وهي لا تبعد أكثر من ساعة من الناحية الثانية. قلت له نستريح يوم غد كله، فلا نبيع ولا نشتري.

كان صامتاً لا ترف عينيه. قلت يجب أن تتحرك يا سلطان، ولكن لم يسمع كلمة مما أقول، فقد ذهبت محاولاتي في الهواء!

ورأت المرأتان ما يصنعه الحمار. لم تتكلما كلمة واحدة، أوَّل الأمر. ولكن عندما اقتربت الشمس من المغيب، وأنا أضرب سلطان وأشتمه، جاءت العجوز تحمل لي شاياً وتقول: اتركه يا ولدي، لا تضع عقلك في عقله، ان الحمير تحرن فما عليك إلاَّ بالحسنى.

قلت: ولكن نريد ان نصل القرية قبل ان يحل الظلام.

قالت: تنام عندنا هذه الليلة، حتى اذا جاء الصباح أصبح حمارك حماراً آخر!

وهذا ما حصل، نمت ذلك اليوم عندهم!

قلت انني رأيت عدداً كبيراً من النساء، ولكن لم ترَ عيني امرأة تشبه ابنة العجوز. ظلت صامتة وهي تعمل دون توقف. كانت تنتقل من مكان لآخر. تعلف الدجاج، تطعم الثور، تهش على الكلاب. كانت تعمل كل ذلك دون تعب ودون أن تقول كلمة!

لم أرها تنظر إليّ مرة واحدة طوال ذلك المساء. وحتى عندما وضعت لي طعاماً وطلبت مني أن آكل، كانت تدعوني وكأنَّها تدعو شبحاً لا تراه. وفي الليل وضعت سراجاً في الغرفة المجاورة، حيث نمت، والتقت نظراتنا، وربما عرضاً، عندما كانت تخرج.

كانت تلك النظرة الصغيرة التي لم تدم لحظة واحدة، هي التي خضت حياتي كلها، لقد غيّرت كل شيء فيّ. فكّرت كثيراً تلك

الليلة. قلت في نفسي ان هذه المرأة لا تشبه أي امرأة أخرى. لم تكن جميلة، ولكن فيها شيئاً لم أستطع ان أفهمه. شيء يؤثر في الانسان، يؤلمه ويفرحه!

وفي تلك الليلة خفت. قلت لنفسي لن آتي إلى هنا مرة ثانية. خفت من نفسي على هذه الفتاة. وخفت من أمر لم أستطع أن أفهمه ابداً، وان كنت أعرف كم من الشرور تجيش في هذا الصدر اللعين وتخض دمائي كلها، حتى اني شتمت الياس مرات كثيرة قبل أن أنام، وتذكرت العذاب الذي يحيط بروحي بعد كل مرة ألتقي بامرأة!

وقبل أن يطلع نور اليوم التالي، وضعت الخرج على سلطان، وقد صممت أن أسرق نفسي قبل أن يستيقظوا، وقبل ان يروني، وقلت سأترك لهم حاجات بسيطة. ولكن ما كدت أنتهي من تجهيز الحمار حتى أطلت ابنة العجوز تحمل شاياً وأكلاً. وجاءني صوتها من الخلف رطباً مخيفاً في عتمة الصباح الناصلة، قالت: تأكل شيئاً قبل أن تمشي!

مرَّت ثلاثة أيام، كدت أنساها. ولكن في الليل لم أعد أحس بتلك الراحة، ولم يعد يهمني ان أحسب الغلة او ألبي طلبات النساء!

وفي اليوم الثالث، عند الظهر، وكنا ما نزال بعيدين عن المحربة، القرية التي كنا نريد ان نصلها، رأيت سلطاناً ينحرف يساراً باتجاه قرية المغيريب. أمسكت بالرسن. قلت: هذه المرة تطيعني ولا أطيعك يا سلطان، هذه المرة نذهب إلى المحربة. حاولت معه، ولكن مع زيادة الحاحي كان يزداد عناداً. تركت له الرسن لأرى أين سينتهي بنا المطاف. وخلال ساعتين وجدت نفسي مرة أخرى عند العجوز وابنتها!

لو لم اطع سلطان لانتهت الأمور، ولكن عندما يطيع الانسان حماراً، فإنَّ عليه ان يتحمل النتائج كلها، ولا يحق له ان يلوم أحداً، أو ان يشكو!

في هذه الليلة تحدثت الى المرأتين عن الطيبة والتجارة، وعن سلطان الذي قادني الى هنا دون أن أطلب منه، وقلت لهما: لقد رأيتما كيف حاولت معه لكي نتابع سيرنا في المرة الماضية، ولكنه أبى، وهذا ما حصل اليوم، وان هذا شيء عجيب لم يفعله ابداً من قبل!

ضحكت المرأتان، كانت أول مرة تضحك فيها الأبنة. وقرّرت في تلك الليلة امراً خطيراً!

فما كدنا ننتهي من العشاء، حتى بدأت اللعنة الثانية، والتي لا تقاس شيئاً بلعنة سلطان.

بدأت الكلمات تطغى عليّ، تخرج من فمي دون تفكير، ودون قصد.

وقبل أن ننام قالت العجوز: أمهلنا أسبوعاً نفكر في الأمر، ويجب أن لا تغضب اذا سألنا أهل المحربة عنك.

قبل ان ينتهي الاسبوع، تمَّ كل شيء. وخلال شهرين تزوجت!

بدا حزيناً وهو يتذكر. رأيت دموعاً صغيرة في عينيه، ولكن غيَّر جلسته وكأنَّه يجلد نفسه على هذا الضعف الذي بدر منه دون ان يستطيع مقاومته. وبجلسته الجديدة تغيّر صوته، وتغيّرت ملامحه. نظر اليّ بعينين فارغتين وتابع:

ـ قد يكون معيباً ان يتحدث الانسان عن زوجته. ماذا يمكن ان يقول عنها؟ خاصة تلك الأشياء الصغيرة والتي لا تشكل حادثة او صراخاً؟

لم أترك الحمار ولم أترك الأمشاط والمرايا، ولكن الدائرة التي أصبحت أدور فيها ضاقت لدرجة اني نسيت كثيراً من القرى ولم أتذكر نساءها. أصبحت أعود عند المغيب إلى البيت، فأجد كل شيء رائعاً مثلما كان في الطيبة وأنا صغير: الأشجار تنمو وتخضر، ثم يعربد فيها الثمر فتنحني ثقيلة مكتنزة. فإذا اكتمل الصيف أترك الخرج

وأحمل التفاح واللوز اليابس على سلطان وننزل الى المدينة، ولما أعود أكون قد حملت معي الطحين والسكر، وتجرأت مرة واشتريت سريراً صغيراً للولد الذي بدأ يتكون في بطن حنة، ولكن الدنيا لا تمهل أحداً. . . ذات يوم وحنة في شهرها الرابع ماتت العجوز، وفي أقل من شهر بعنا الأرض بعد ان قررنا العودة إلى الطيبة!

8

تغيّرت الطيبة كثيراً خلال هذه السنين، فالأشجار الصغيرة التي زرعت في أماكن عديدة من الحقول نمت، وأوشكت أن تثمر. والقطن الذي كان مثل موج البحر يغطي الأرض كلها، اقتصر على مساحات كبيرة في الجهة الشرقية وحدها، وكان لابن الحاج زوين ـ المهندس الزراعي، فضل في ذلك، فقد قال لأهل الطيبة انه يجب زراعة الأشجار من جديد لكي تمطر السماء. رفضوا، لكنه اصر. قال لهم لا تقطعوا القطن، ازرعوا إلى جانبه الأشجار. لم يسمعوا. ولكن لم تمض شهور حتى تغيّر كل شيء واضطر الناس لأن يزرعوا الأشجار بعد ان مرت السحب فوق الطيبة ولم تتوقف. كانت سماء الطيبة أشبه بالأرض السبخة، تعلوها الغيوم دائماً ولكن لا ينزل فيها المطر.

. . . لا أطيل. . خلال هذه السنين بدأت الطيبة تعود إلى ما يشبه رأس الأقرع عندما يعود اليه الشعر!

لم يقتصر الأمر على ذلك، لأن صالح الأعور فتح فرناً، وفكَّر الخوري سمعان أن يفتح فرناً ثانياً، وقلت في نفسي عندما رأيت الناس يأكلون خبز الفرن، ان الياس المشؤوم، مغضوب الوالدين، لا يفعل شيئاً في وقته، وحتى لو قال لأهل الطيبة ان الشمس تشرق من وراء جبل الظهور لسخروا وأنكروا، رغم انهم يرون الشمس تركب

جبل الظهور وتظل هناك، كل يوم، حتى تتعب، ثم تمشي باتجاه بستان الخوري سمعان الذي تحوَّل ايضاً إلى مزرعة قطن!

عدت إلى الطيبة، وعادت إليّ الهموم. ماذا أستطيع أن أفعل؟ هل أزرع الأشجار؟ هل أطلي بيوت أهل الطيبة بلون أخضر يشبه لون الشجر؟ هل يريد أهل الطيبة حماماً لأصبح فيه وقاداً؟

لم أعرف ماذا يريد أهل الطيبة، ظللت أياماً أفكّر حتى استقر رأيي أن أعمل في المطحنة عند العم شكري، قال العم شكري: أريد انساناً وأريد حماراً. وكنت أنا وسلطان.

عدت إلى المحربة بسرعة، حيث تركت الحمار لأحضره ونبدأ العمل.

أتعرف، يا صاحبي، ان للحمير ولكل جنس الحيوان ارواحاً مضيئة تشتعل بالحنان والرغبة، وهذه الأرواح تموت ان تركت، او اذا ما قسا عليها الانسان!

ما كدت أرى الحمار حتى أنكرته تماماً. كان ضعيفاً مهزولاً، كأنَّه لم يأكل ولم ينم منذ وقت طويل. وفي زاوية الحاكورة، حيث كان يقف ووجهه إلى الجدار بدا لي حزيناً وهو يمسح وجهه بالجدار. تقدمت نحوه بهدوء، لا أريد أن يراني، ومثلما كان يفعل دائماً، أحسَّ بشيء. رفع رأسه، عبَّ الهواء، حرَّك أنفه أكثر من مرة. ثم بدأ يلتفت. لقد أحسَّ بوجودي. وفي لحظة تغيَّر كل شيء، تحرَّك فيه الدم، ضرب الأرض بحوافره، نهق، فبدت أسنانه بيضاء لامعة، كأنَّه يضحك من الفرح.

كنت أسمع ان الخيول وحدها تحزن وتنقطع عن الأكل والماء ان هي فارقت أصحابها، وقد تموت كمداً. اما الحمير فكانوا يقولون عنها انها جنس رديء لا تعرف صاحباً ولا تشعر إلاّ برغبة الساعة التي تعيش فيها.

سلطان لم يكن كذلك. كان أشبه بالحصان، فما كاد يراني

حتى سمعت صوتاً ضعيفاً أقرب إلى البكاء يمتلىء به صدره، وبدأ يدور حول نفسه من الفرح، ثم تهاوى على الأرض، ومرَّغ جسده على الجانبين بالتراب، كأنَّه انسان يسجد الى الأرض ويقبّلها!

وفي الطريق إلى الطيبة تحدّثنا من جديد عن القرى التي زرناها، ونحن نبيع ونشتري. وتذكرنا أناساً كثيرين، ولم أترك له فرصة ليتحدث عن النساء، لأنه لا يليق برجل متزوج أن يتذكر النساء اللواتي عرفهن من قبل. وما كدنا نقبل على الطيبة، بعد ثلاثة أيام من السير المضني، حتى شممت رائحة خاصة، كنت أعرفها وانا طفل. لقد كانت رائحة المطر، فانتعشت روحي، وأصابني ما يشبه الدوار وأنا أتذكر كل شيء في هذه الأرض!

وتوقف لا يريد أن يضيف كلمة واحدة، كأنَّ رغبة قوية لا يستطيع مقاومتها تسيطر على الزمن، فتوقفه. ودون أن أحس قلت له:

ـ وفي الطيبة اصبحت طحاناً. . أليس كذلك؟

ـ لم تمض أربعة شهور حتى بدأت أركض في الظلام هارباً من الطيبة. كنت أتصور ان أشباحاً ورائي تطاردني، وان خيطاً من نار يمتد بين يدي هذه ـ ورفع يده قليلاً، يشير إلى الجرح ـ وبين لعنة سوداء خلقت في الطيبة.

لو تُركت دقيقة واحدة لانتهى الأمر تماماً. ولكن كثيراً ما يتحول احساس الناس إلى ألم ينحفر في العظام ويظل هناك إلى ما بعد الموت!

لقد دخل فيَّ شبح عكَّر دمي، أصبح ينفث فيه بولاً أسود. والانسان اذا خالط دمه بول الأشباح لا يشفى ابداً. يظل ملعوناً ومطارداً إلى يوم يموت. هكذا قال لي قس التقيت به قبل سنوات، ولكن لم أصدّقه في ذلك الوقت، حتى رأيت تلك المرأة تموت.

ـ قل بربك عن أية امرأة تتحدث؟

ـ لم أشعر في حياتي كلها ان الانسان يمكن ان يكون غاضباً وحزيناً إلاّ مرتين: المرة الأولى عندما قطعت الأشجار، والثانية عندما ماتت حنة.

ـ ولكن لمَ تركتها تموت؟

ـ أتعرف كيف قطعوا الأشجار؟

وتابع بحزن:

ـ كنت أدور في الطاحونة مثل ثور أعمى، غبار الطحين يملأ وجهي وعيني، والشمس في الخارج ترسل دفئاً ناعماً يفجر الأرض والأشجار. كنت أقول لنفسي: لن تبقى هنا طويلاً يا الياس، لن تبقى في هذا الوكر اللعين، كنت أفكر أن أترك الطاحونة، وأشتري ارضاً لأبدأ بغرس الأشجار من جديد. وكنت أفكر ان يكون القادم الجديد مثلما كنت لأبي: أن نزرع ونتعب معاً. كنت أتصوّر ان يساعدني وأنا أفتح الساقية لكي ترتوي الأرض. ويقفز فوق الأشجار مثل قرد لكي يقطف الثمار العالية. ويسوق الدواب في الصباح الباكر حاملاً لأهل الطيبة والقرى المجاورة التين والعنب. هكذا كنت أتصوّر وأقول لنفسي وأنا أدور، وبين فترة وأخرى أنظر إلى الشمس.

وجاؤوا. لم أعد أتذكر من جاء، وأي شيء قالوا.

كنت أصرخ والسكين في يدي. أريد ان أقتل هذا الذي قتل زوجتي وهي تلد. سألت الناس الذين حولي، ان كانوا قد رأوه، فلم يجيبوا أول الأمر. ثم قالوا لا تكفر!

سألتهم ثانية. صمتوا، صعدت إلى سطح الدار أبحث عنه. دخلت الى دار الجيران لعله يكون هناك مختبئاً. ولكن لم أجد أحداً.

كنت أسمع أصوات الناس مثل نعيب الغربان. كنت أرى وجوههم سوداء مثل بول الأشباح. وحنة ممدّدة على الفراش، وقطرات العرق فوق ذقنها. وشعرها مثل الأسلاك الخشنة الممزقة، كان شعرها على الفراش وعلى الأرض.

وتذكّرت كل الليالي. حنة لا تعرف وسادة غير هذا الذراع، وفي هذا المكان بالذات.

وأضاءت نفسي. رأيت نوراً وهاجاً ينبع من داخلي فيضيء كل شيء.

وبهدوء كان أكثر قداسة آلاف المرات من الخوري سمعان، اقتربت من حنة، ودون أن يحس الغربان الذين حولي، أدخلت السكين في هذه اليد تماماً في نفس المكان الذي كانت تنام عليه، وظللت أقبّلها!

لكم كانت قبلاتها دافئة ولذيذة، كانت تحرقني، تشعل في نفسي رغبات مجنونة. وامتلكتني لذة شعرت معها ان الموت أجمل آلاف المرات من الحياة، وحسدت الموتى.

ولم أعد أتذكّر بعد ذلك، حتى العصر.

كان كل شيء قد انتهى.

دُفنت حنة والطفل ما يزال في بطنها، ويدي ملفوفة الى صدري وبقع الدم على القميص وعلى الصدر، والدنيا صغيرة.. صغيرة لدرجة يمكن لإنسان واحد أن يغيّرها.

لم أعد أسمع من الأصوات التي حولي سوى صوت سلطان. لم أعد أرى وجهاً سوى وجهه.

وفي تلك الليلة بالذات، بعد ان تركني الناس نائماً، استيقظت على صوت سلطان. كان صوته ضعيفاً مثل ذلك اليوم عندما رأيته في المحربة.

وخرجت بسرعة، وسلطان يركض ورائي كأنّه غزال، وما كدت أبعد قليلاً عن آخر بيوت الطيبة، حتى توقفت. أخرجت السكين، وبهدوء لا يملكه إلاّ الناس الملعونون، بدأت أمسح رأس سلطان وأنا أبكي، ثم تحدّثت معه، وشممت وجهه ورقبته، ومسحت بيدي على جسده كله حتى حوافره، ولما أحسست ان قلبي

يمتلىء بشيء أسود ويفيض الى الخارج. . أدخلت نصل السكين الحاد في رقبته، وانتهى كل شيء!

طفرت الدماء مثل بول الأشباح، غزيرة ساخنة، فامتلأت يدي حتى الساعد، وظللت أمرّر السكين، وسلطان هادىء مستسلم، حتى سقط على الأرض، فأخذ يمرغ جسده مثلما رأيته في المحربة. كان في تلك اللحظة مثل قديس في أصفى ساعات الصلاة!

وبدأت اركض خارجاً من الطيبة نحو الفلاة، والأشباح تسد في وجهي الطريق، وخيط من النار يمتد بين يدي هذه، والبلدة الملعونة.

9

سجنت ثلاثة أيام وأنا في طريقي إلى المدينة. رأوني أركض مفزوعاً، والدماء اليابسة تملأ يدي ووجهي، فقالوا: قاتل. لم يعطوني خبزاً. لم ينظروا إلى عيني الباكيتين. تجمّدت عيونهم على الدماء، وتحرّك في داخلهم نداء وحشي لأن يجهزوا عليّ. ولما سلموني للدرك لم أستطع أن أقول كلمة واحدة!

نسيت كَل شيء: الطيبة وحنة وسلطان، ولم تكن تملؤني سوى رغبة واحدة، رغبة لذيذة تلح عليّ: أن أقتل نفسي.

وفي السجن حاولت أن أقتل نفسي. ضربت رأسي بالجدار، ولكنهم امسكوا بي وقالوا كلمات قاسية. نزعت اللفائف عن الجرح، ولكن في لحظة شعرت اني متعب لدرجة لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

وفي اليوم الثالث، عند الظهر تماماً، تركوني. قالوا لي: اصبر، الصبر مفتاح الفرج. قالوا: لا يليق بالرجال أن يقتلوا أنفسهم من أجل امرأة ماتت وهي تلد. وقالوا: انا لله وانا اليه راجعون.

تركوني لأعود إلى الطيبة. ولكن ما كدت ابتعد قليلاً، حتى غيّرت وجهي نحو الشرق، باتجاه المدينة.

ان المدن الكبيرة تستر الانسان، رغم انها تظل تنهشه من الداخل حتى يموت. والموت في هذه المدن عادة مألوفة تقع كل يوم، لذلك لا تحرك الناس ولا تعني شيئاً بالنسبة لهم. أمَّا في القرى

الصغيرة، حيث لا يموت الناس إلاَّ عندما يتعبون من الحياة، فإنَّ الموت، يقف على قبة الكنيسة مثل الغراب، وقد يصبح مثل الجمرة في العين، يحرق ويصرخ، فلا يستطيع الانسان أن يعيش في هذه القرى بعد ذلك!

شربت ماء كثيراً في طريقي إلى المدينة، كان ماء لذيذاً لم أشرب في حياتي مثله منذ تركت الجبل، فأحسست بالشبع ولم أكن أريد شيئاً سوى ان أنام. وأنت تعرف أن المدن الكبيرة المليئة بالأسرة الدافئة والفراش، لا يمكن للغريب أن ينام فيها اذا لم يكن غنياً. وحتى الجوامع تسد أبوابها في وجه الغرباء.

اتجهت إلى المقهى. قلت لنفسي: لا بد أن يكون أبو ذياب قد نسي الاساءة، وعنده سأشرب شاياً ساخناً وأنام.

كان أبو ذياب قد نسيني تماماً، ولكنه عندما تذكّر، لم يتذكر غير الاساءة! قال لي وهو يضع في يدي قطعاً صغيرة من النقود:

ـ يا ولدي مقهاي يجلس فيه أناس محترمون، ولا يمكن أن أحوّله إلى فندق. اذهب... اشحذ لك قرشين ودبّر لنفسك مكاناً تنام فيه.

ذهبت إلى الحمام، فوجدت أناساً غير الذين أعرفهم. وعندما سألتهم عن أبي النور، قالوا: باع الحمام منذ سنة. ولم أقل شيئاً.

ومن جديد انتشلتني امرأة، لكي لا أموت مثل كلب في المدينة الكبيرة.

ـ امرأة؟ انت محظوظ، لا تترك امرأة حتى تجد غيرها!

ـ أنت عجول. ستموت في سن مبكرة، نعم ستموت قبل ان تجد الآثار التي تبحث عنها!

ـ اتركني الآن، لا يهم متى سأموت، أريد أن أسمع كم مرة مت أنت في هذه الدنيا!

ـ أتعرف؟ لقد مت قبل زمن طويل، وربما في تلك الليلة التي وافقت فيها على أن ألعب على الأشجار. ليس لأنّي خسرت، فالانسان معرّض دائماً للخسارة، ولكن لأنّي قامرت على شيء لا يجوز لأحد أن يقامر عليه. قامرت على الطبيعة، على هذا الشيء الذي لا أملكه.

الحياة كلها مقامرة، وأغلب الأحيان مقامرة خاسرة. ولكن لنترك الحياة الآن، احك لي عن هذه المرأة الجديدة!

ـ تستغرب اذا قلت لك انه لم ينقذني من الموت غير هذه المرأة. وأية امرأة؟ هذه التي أسأت إليها من قبل!

ـ أنت تحب ان تؤذي نفسك، تتصور أن أي شيء تفعله اساءة للآخرين!

ـ لا . . . لا تحسن بي الظن. أنا رجل شرير، وأهل الطيبة لم يخطئوا عندما سمُّوني ملعوناً.

ـ لا أدري . . . اذ حدّثتني عن هذه المرأة، أقول لك ان كنت قد أسأت اليها أو انك تتوهم ذلك!

ـ تتصور انني لا أعرف نفسي، لا أعرف أكوام الشرور التي تنام تحت هذه السترات اللعينة؟ لا أريد أحداً أن يقول مَن أكون!

ـ أنت تعرف، ولكن أنا الذي يريد أن يعرف!

ـ اسمع :

كان الناس يسمُّون هذه المرأة أم البيادر، واسمها الحقيقي نهاد، أمَّا في المدينة فقد تغيّر اسمها إلى نهدة. تعرفت عليها عندما كنت أذرع الأرض انا وسلطان. كانت من اهل قرية بيلة، امرأة مقطوعة من شجرة، كما يقولون، تعيش وحيدة، وتستقبل في بيتها بعض الرجال لتعيش. وقد رآها اناس كثيرون مع رجل لم يعرفوه. كانت تقضي وقتها مع ذلك الرجل، خاصة في ليالي القمر، على البيادر. كان الرجل ملثماً دائماً، ولا يكاد يرى انساناً حتى يبتعد،

كأنّه يخاف من أحد، ونهدة مع ذلك الرجل تسرح وتضحك، حتى اذا جاء الفجر افترقا. والرجال الذين رأوها تعود، لاحظوا انها حزينة، كأنّها فرغت لتوها من البكاء. كان الرجال يصادفونها عندما يذهبون الى الحقول، ومع انها في العادة تمزح معهم وتتقبل كلماتهم البذيئة، ولا تعترض كثيراً على الأيدي التي تمتد الى صدرها، فإنّها وهي تعود من البيادر لا تنظر إلى أحد، ولا تسمع كلمات الرجال.

وظلَّ الأمر سراً حتى التقينا في المدينة!

أمّا كيف أسأت اليها، فأنا رجل مثل باقي الرجال، اذا تملكتني تلك الرغبة المجنونة نسيت كل شيء.

كنت أعطي بعض الناس الحاجات التي يريدونها وأستوفي ثمنها بعد فترة. وقد اعطيت نهدة مثلما أعطيت غيرها. أخذت مني منديلين ومشطاً ومرآة وقالت اعطيك ثمنها.

وذات يوم تعرفت إلى امرأة اخرى، اشترطتْ لكي أنام معها أن أذهب لنهدة وأسترد الحاجات التي أعطيتها.

قالت: يجب ان تأخذ الحاجات ولا تقبل شيئاً غيرها، حتى ثمنها لا تقبله!

لم أتردّد. ذهبت لنهدة وقلت: أريد الحاجات.

قالت: اعطيك نصف ثمنها الآن.

قلت: لا.

قالت: أعطيك غداً ثمنها كلها.

قلت: لا.

قالت: لبست المنديل!

قلت: اعطني الحاجات مهما تكن.

رجتني، بكت، قالت اتركهم لي هذا اليوم فقط، ولكن لم أقبل.

وعندما عدت بالحاجات الى تلك المرأة، أخذتها بيدها قلّبتها، ثم أعادتها إليّ وقالت:

ـ يمكن أن تواصل مشوارك الآن!

قلت: والوعد الذي بيننا؟

ـ قالت: الرجال دائماً أوفياء لوعودهم! وانفلتت ضاحكة وهربت.

لم أعد لنهدة ولم أرها إلاّ في المدينة. لما رأتني تطلعت إليّ بلهفة. أمسكت بكتفي وهزّتني وهي تسألني عن يدي الملفوفة. خجلت. لم أرد أن أقول كلمة واحدة. ولكن لم تتركني، فما هي إلاّ دقائق حتى كنا نمشي سوية باتجاه الغرفة التي تسكن فيها.

تصور. . . الرجال الأغنياء ينظرون اليك كأنّك حشرة مفزعة، لا يريدون إلاّ أن تفارقهم، وبعد ان يروا ظهرك تنبسط وجوههم وقد علتها ابتسامة الرضا، اما الفقراء الذين لا يملكون شيئاً فإنّهم يقاسمونك الفراش الذي ينامون عليه ويقاسمونك الماء الذي يشربونه.

كانت نهدة تواصل المهنة التي بدأتها في بيلة، وعندما تعود الى الغرفة تكون متعبة وحزينة، ولكن مع حزنها تحمل في قلبها شيئاً يشبه الرمان، شيئاً لذيذاً تريد ان تعطيه. كانت تعطيني كثيراً، حتى اني خجلت من كل لقمة آكلها، إلى ان قررت ذات يوم ان أتركها، بعد ان وجدت عملاً!

قلت لها: أريد أن أذهب يا نهدة.

سألتني بلهفة: هل ضايقتك بشيء؟

قلت: لا.

قالت: لا أريد منك شيئاً. . . لم أفكّر أن نتزوج، ولم أفكّر بالسعادة، ولكن لو نبقى نحن الاثنين معاً في هذه المدينة الكبيرة!

لم أستطع ان أقول كلمة واحدة، ظللت صامتاً، وفي هذا

المساء عندما خرجت، وضعت لها على السرير منديلين ومشطاً ومرآة، وتركت البيت.

ومنذ ذلك الوقت لم أرها.

عندما انتهى نظر اليّ وسألني:

ـ هل عرفت الآن كيف أسأت لأم البيادر؟ لم أسيء اليها مرة واحدة، أسأت مرتين، وربما أكثر من ذلك، وهذا هو الفرق بين الرجال والنساء!

قلت بصوت بدا لي بارداً وكئيباً:

ـ اساءات صغيرة، ولم يكن ممكناً ان تعمل غير ذلك!

ـ كما قلت أنت: الجراح لا تنسى، الجراح الصغيرة والجراح الكبيرة، والانسان المجروح لا ينسى أبداً!

ـ ظلت نقطة واحدة.. وذاك الرجل الملثم؟

تطلع إليّ بحزن وقال:

ـ أيضاً قصة رجل. كانت نهدة تحب ذلك الرجل المجهول، الذي التقت به صدفة على البيادر. وظلت معه فترة طويلة، وقد قالت لي أنها وافقت على أن ينام معها دون أن يرفع لثامه. تصوّر كان ينام معها واللثام حول وجهه.. لماذا؟

وفي الليلة الأخيرة اكتشفتْ فيه خوري القرية!

ولم تطق أن تبقى يوماً واحداً في بيلة بعد ذلك. وأهل بيلة حتى الآن لا يعرفون سوى أم البيادر أمَّا أبو البيادر فلا يعرفه أحد!

ـ وانت كيف واصلت مشوارك في المدينة؟

ـ واصلت العذاب في تلك المدينة اللعينة. كنت أشرب، مع كل شمس جديدة، مع كل لقمة خبز، العذاب والمذلّة. ومثل المرة السابقة انتقلت من عمل لآخر، حتى لم أترك عملاً يعتب عليّ.

كان بامكاني ان اشتري حماراً وأتنقل بين القرى، ولكن ما

كدت أفكّر بهذا الخاطر حتى انتابني حزن لم أعرف كيف أقاومه. ولم ينته هذا الحزن إلاَّ بعد أن أقسمت أمام نفسي، وبصوت عال، أن لا أفكّر بهذا الأمر مرة أخرى.

بدأت العمل. عملت أول الأمر في ورشة بناء. ثم انتقلت الى رصف الطرق. كنت أنام في الأبنية التي لم ينته عمارها. وفي هذه الأبنية الكبيرة المفتوحة من كل الجهات، أحسست بالوحشة والألم، كأنّي في باخرة مهجورة يتقاذفها بحر هائج. مرت ليالٍ كثيرة لم أستطع أن أنام خلالها. كنت اختبىء في الزوايا هرباً من الريح الباردة. كنت أسد النوافذ التي تفتح أفواهها مثل القبور، بقطع الخشب والكرتون. وكانت رائحة الخشب الذي أحرقه تشبه رائحة العظام بعد ان تكون قد تلوَّثت بالماء والسمنت. لم تكن هذه الأخشاب مثل خشب الحمام، ولا مثل خشب الطيبة. كنت القيها بحقد لكي أمتص منها الدفء، ولكن في لحظات تتحول إلى دخان أسود يملأ الصدر.

لم احتمل هذه الأبنية طويلاً، فقد هجرتها. واستغربت كثيراً ذات يوم، وأنا أمر أمام واحدة منها. كانت البناية تتلألأ بالأنوار، كأنها لم تضم قبل شهور أناساً بائسين. كان الناس يدخلون ويخرجون. أيديهم لامعة، ابتسامتهم تملأ الوجوه. ودون تعب كانت النوافذ تنفتح بأيديهم. ان هذه الحياة عجيبة يا صاحبي لدرجة لا تصدق!

هربت، دون أسف من هذه الأبنية الكبيرة، إلى غرفة صغيرة، وجدت فيها لذة الحياة. كانت صغيرة لدرجة ان الانسان لا يتعب ابداً وهو يدور فيها. اما الدفء فإنَّه ينساب من كل جنباتها. كان يكفي أن أتنفس حتى تتحول الى غرفة دافئة تشع خدراً وأحلاماً، وقد تصورت مرات كثيرة ان حنة وسلطان الى جانبي في هذه الغرفة.

ظلَّت الأمور تتغير شهراً بعد آخر. مرة أشقى حتى لا أعود

أطيق الحياة، ومرة تمتلىء روحي بنشوة غريبة تأتيني فجأة. وفي مثل هذه الحال كنت أفكّر كثيراً بالحياة. أحلم اني اشتريت ارضاً، وغرست فيها أشجاراً. وأحلم اني تزوجت. وقد تجرأت ذات يوم، وحلمت أني اشتريت حصاناً أسود. كان حصاناً جميلاً وقوياً، وفي صباح كل يوم، في العتمة الخفيفة عند الفجر، اسرجه، ثم اركبه، ونطوف خلال ساعات الصباح الأولى في كل أنحاء البستان. وكنت أنفض عن كتفي الندى المتساقط من أوراق الشجر، فيسقط على الأرض، وأسمع لسقوطه رنة عذبة. كنت في ذلك الوقت أشعر بلذة لا تقاوم وأنا أرقب الأشجار تنمو وتثمر!

ولكن الحياة لا تترك للانسان حتى أن يحلم.

تعطلت عن العمل، وطال بحثي عن عمل جديد، ولا أعرف كيف قادتني قدماي إلى مقهى أبي ذياب. دخلت دون أن أدري، ووقفت مثل كلب بائس أمام الطاولة الكبيرة، حيث كان يجلس. وبعد ان سألني عن أحوالي، قال لي بلهجة أب قاس:

ـ اشتر، يا ولدي، صندوقاً لمسح الأحذية، وتعال إلى هنا.

10

في صباح اليوم التالي كنت أول القادمين إلى المقهى. كان على كتفي صندوق لامع علقت عليه صورتين، إحداهما لحصان أبيض. وهكذا بدأت أعيش من جديد في المقهى!

لقد عوّدني ذلك الصندوق عادات سيئة. أصبحت انظر إلى الناس من تحت، وأصبحت الأحذية والجوارب عالمي الجديد والوحيد!

هل جربت أن تجلس على كرسي صغير وتنظر إلى وجوه الناس فوقك؟ لو حاولت ذلك لاكتشفت أشياء عجيبة. كانت تبدو لي الأنوف كبيرة، كبيرة جداً. أمَّا العيون فإنَّها مثل الخطوط الطويلة السوداء، ولكنها مقطوعة النهاية. والذقون كأنَّها قطع من اللحم التصقت بالوجوه في اللحظات الأخيرة. هكذا كانت تبدو لي الوجوه وأنا أنظر اليها من تحت.

أمَّا الأحذية والجوارب فإنَّها عالم عجيب أيضاً. أحذية ملونة، وأخرى بلون واحد. سوداء، بنيَّة، بيضاء.. والجوارب: ممزقة، وحريرية. نظيفة وأخرى لها رائحة لا يطيقها الخنزير. والناس أياً كانت الجوارب التي يلبسونها يضحكون، ويلمعون أحذيتهم ايضاً، وأخيراً يقدمون اليك القطع النقدية الصغيرة، دون أن ينظروا.

وفي عالم الأحذية الكريه، كان الفقراء أفضل من الأغنياء.

كنت أعرف الفقراء من أحذيتهم. من ابتسامتهم، من السيجارة التي يمدونها اليك. وقد تعلمت الغش في صنعتي الجديدة: كنت أمسح أحذية الفقراء باخلاص لا يعرفه أي مساح أحذية غيري. كنت أفرك جلود الأحذية، حتى لكأنّي أريد أن أمزّقها، وأطيل التلميع حتى ليشعر هؤلاء بالحرج. أمَّا الذين لا يتكلمون معي، لا ينظرون إليّ، فقد كنت أمر على أحذيتهم بقرف، وأنظر اليهم بحقد!

وفي وقت من الأوقات اشتريت نعلين، وبدأت أدور في المقهى لكي أمسح الأحذية في الزاوية بعيداً عن هؤلاء المترهلين. فمَن يريد أن يمسح حذاءه فليخلعه. وهكذا قرّرت، وقلت ان ذلك أفضل لي ولهم. ولكن الأمر لم يطل، اذ ما لبث أبو ذياب ان اعترض، قال لي ان الرجال يكرهون أن ينزعوا أحذيتهم، انها تتعبهم او تشغلهم عما هم فيه. ومن جديد عدت أدور والصندوق على كتفي، وأنادي دون تعب، وأدق الصندوق لكي أنبه الناس!

ظل الأمر هكذا شهوراً. اعتدت على الصندوق، وارتبطنا بألفة غريبة. كنت أعتني به، ألمعه كل يوم عدة مرات. واشتريت جرساً صغيراً، أصفر اللون، وعلقته في وسطه. وكنت استعمل هذا الجرس في تنبيه الزبائن لكي ينقلوا أرجلهم بعد ان انتهي من تلميع الأحذية.

وجاء يوم... ولا تستغرب يا صاحبي، لأنَّ هذا اليوم يجيء للياس كثيراً، جاء يوم كنت أمسح حذاء شاب صغير، بدا لي ان عمره لا يزيد عن ثماني عشرة سنة. كان الشاب يلمع مثل الضوء، ثيابه جميلة لدرجة انها تعادل كل السترات التي احملها الآن، ووجهه يتدفق صحة، وكل شيء فيه يصرخ بالحياة!

ما كدت أبدأ بمسح الحذاء حتى قفز، وكأنَّ حية قرصته. قال لي: يا ابني افتح عينيك جيداً. لا تقترب من الجوارب. ألا ترى الجوارب البيضاء نظيفة؟

وبحرص عدت للمسح، ولكن لم تمض لحظة صغيرة حتى قفز مرة أخرى، وهو يقول: يا ابني كل مرة يجب أن أفهمك؟

وفي المرة الثالثة، عندما تحرَّك، أمسكت برجله وثبتها بقوة على الصندوق، وقد اعترتني حالة من الغضب انفجرت في داخلي، فنويت الشر. وما كاد يقول يا ابني مرة اخرى حتى كانت الجوارب التي أمسكها قطعة من السواد. لقد لوَّثتها تماماً. وعندما تطلع اليّ يريد أن يتكلّم، عاجلته بضربة على وجهه، ثم أخرى.

وفي نفس اليوم غادرت المقهى ولم أعد إليه في حياتي. أمّا الصندوق فقد بقي عندي ثلاثة أيام، ثم بعته.

قلت أريد ان أعيده لجو النساء:

ـ أراك قد نسيت المرأة في رحلة الحياة الطويلة، ألم تقل ان المرأة سر غامض؟ ألم تكتشف هذا السر؟

ـ الحياة هي المرأة، ولا يمكن للرجل ان ينسى المرأة إلاّ وهو يغادر هذه الحياة. لم أنسَ يا صاحبي، ولكن كثيراً ما تسد اللقمة طريق المرأة، تجعل رؤيتها امراً مستحيلاً، ومع ذلك فقد ظلت النساء الدودة التي تنخر قلبي دون توقف!

ـ ومع ذلك لم تتحدث عن المرأة في رحلة هذه السنة كلها!

ـ بعد حنّة أصبحت المرأة شيئاً مختلفاً.

ـ ألم تعرف النساء بعدها؟

ـ عرفت نساء كثيرات، لكن مثلها لم أعرف.

في البداية لم أفكّر بالمرأة، وحتى عندما فكّرت فيها، فإنَّ طيف حنة هو الوحيد الذي كان يتراءى لي. وبعدها مرت النساء في قلبي مثلما يمر الماء تحت الجسر، لا يتوقف لحظة أبداً.

ـ هل يمكن أن أسمع القصص الأخرى؟

ـ كما قلت لك، قلب الرجل لا يخلو من امرأة، قد تكون امرأة حية أو ميتة، قد تكون زوجة أو صديقة، وقد تكون شيئاً آخر. دائماً توجد امرأة. أمَّا اذا رأيت رجلاً ليس في قلبه امرأة فتأكّد ان ما تراه ليس رجلاً، انه جثة تريد قبراً.

ـ أتريد ان تقول ان حنة ظلت في قلبك ولم تدخل أخرى مكانها؟

وبانفعال شديد دق على صدره وقال:

ـ في هذا المكان تنام امرأة. نامت هنا وستظل حتى يأتي محراث ويقلب الأرض ويحول عظامي الى تراب، الى نخالة.

ـ حنة... أليس كذلك؟

ـ وهل يليق هذا الصدر لغيرها؟ صحيح انني انسان فقير، مَن يراني يقول هذا الرجل المعتم الوجه لا يعرف سوى الرغيف، وليس لديه وقت ليفكر بسواه، لكن لو أن سكيناً حادة انغرزت في صدري لرأيت هنا قلبين، وليس قلباً واحداً!

ـ عنها تتحدث...؟

ـ لقد كفرت بكل شيء بعد موتها، لولا الفراخ الصغيرة التي تنتظر الآن الطعام لتركت كل شيء وسافرت.

ـ إلى أين؟

ـ لا أدري، المهم ان أخلص من الأشباح!

ـ آن لك أن تنسى. إن السنين هي المعلم الوحيد للانسان!

ـ ولكن لم أتعلم، ولا أعتقد انني سأتعلم بعد هذا العمر!

ـ الانسان ينسى كل شيء، لا أريد الآن أن أواسيك، فأنت الذي يواسي. المهم ان يظل الانسان واقعياً، ويفكر بما هو ممكن.

قلت هذه الكلمات وأنا أشعر ببؤس كل كلمة. كانت تبدو لي

تافهة، لا تعني شيئاً، لكن الصمت والحزن اللذين ظهرا على وجه الياس، جعلاني أقول شيئاً.

هزَّ رأسه بأسى، وهو ينظر إليّ، وقال:

ـ هذا ما فعلته، وهذا ما أندم عليه!

ـ تندم انك نسيت وأصبحت واقعياً؟

ـ ندمت لأني لم أعد أتذكرها مثلما كنت أفعل من قبل. وندمت أكثر لأنَّني عرفت نساء أخريات!

ـ أنت مخطىء!

ـ لأني تزوجت، ولأني عرفت نساء أخريات!

ـ لك فلسفة قد لا نتفق عليها.

ـ لا أريد من أحد ان يوافقني، ان هذا لي وحدي. والحب يا صديقي شيء خاص تماماً. لا أعرف كيف أقول لك ما يدور في هذا الرأس المتعب، ولكن أشعر بالتعاسة. لم يكن الفقر عيباً بالنسبة لي، وسأموت وأنا فقير. الخبز يأتي ويروح، أمَّا الحب فإنَّه يبقى مع الانسان حتى اللحظات الأخيرة... تذكَّر هذا جيداً، فإنَّ لم تعرفه، فسوف تعرفه ذات يوم!

وصمت قليلاً. جرَّ المطرة وصب قدحاً، ودون أن يتكلم قدمه إليّ، وهو يقول:

ـ لنشرب في صحة الموتى!

وشربنا، وبدا انه تعب من الذكريات والحديث، ولكن لم يرق له الصمت القاسي الذي خيَّم علينا، نظر اليّ بعيون حزينة، وقال:

ـ لنقض ما بقي لنا من وقت في أحاديث اخرى!

ـ كما تشاء.

وفجأة تغيّر فيه كل شيء، أغمض عينيه قليلاً ورفع وجهه مائلاً نحو اليسار قليلاً، وقال:

ـ وأنت. . . نعم أنت، ألم يحن دورك في الكلام؟

وغيَّر من نبرة صوته وهو يتابع.

ـ لقد قاطعت الكنيسة منذ كنت صبياً صغيراً، ومن ذلك الوقت لم أعترف ولم أقرع جرساً، ولكن خلال هذا الوقت تكلمت كما لم أفعل ذلك من قبل!

ـ ما زال عندك الكثير لتقوله. أمَّا أنا. . .

وضحكت ضحكة بلهاء، ثم قلت:

ـ ما زلت صغيراً، ان للرجال الكبار وحدهم الحق بالكلام!

ـ أنت تتهرب، في عينيك قصص كثيرة، ولكنك تخاف منها أكثر مما أخاف أنا من حنة!

ـ ليس عندي شيء مهم!

ـ لا يتاح للإنسان أن يتكلم غير مرة او مرتين في هذه الحياة، عندما يشعر انه على وشك الرحيل. وكل انسان عنده ما يقوله. أتعرف. . . لو قال الناس ما عندهم لشعرت ان الحياة التي أعيشها تافهة، وقد لا تستحق أكثر من بصقة!

وتغيّر صوته، كأنَّه يكلم نفسه، قال:

ـ ما هي الحياة؟ فعلاً ما هي هذه الزانية؟ لو فكّرنا بهذا الأمر طويلاً لأصابنا الجنون. نولد، نشقى بطفولتنا ونحن نتلقى الضربات على مؤخراتنا، ثم لما يتقدم بنا العمر نساعد آباءنا في غرس الأشجار، ويأتي الناس بعد ذلك ليقطعوها! ومتى يقطعونها؟ بعد أن تكبر وتخضر، بعد أن يرتبط بها الانسان وتصبح كل شيء بالنسبة له. وهنا تبدأ المأساة، ثم نكبر مع أيام الجوع والركض وراء الرغيف، فإذا جاءت النهاية نموت وقلوبنا مثقلة مثل اشجار الصبّار بالهموم والتعاسة!

كنت أتشرب كلماته، أوافقه على كل كلمة، ولكن شيطاناً نبع

في قلبي، كان هذا الشيطان يريد ان يزعج الياس، ان يستفزه، قلت:

ـ ليس الأمر لهذه الدرجة من السواد، ولكن من عادة الانسان ان يلتذ عندما ينسى سعادته، ولا يتذكر غير همومه!

ـ وحق الشيطان لم يمر عليّ يوم واحد من السعادة!

ـ لا يمكن ان تكون الحياة هموماً كلها. ألم تكن سعيداً عندما كانت حنة بجانبك؟

ـ هذا الشيء الوحيد الذي لا أعرفه. لقد نسيته في طوفان الأحزان!

ـ أنت لا تعرف شيئاً... لا تعرف السعادة، لا تعرف المرأة، ولو تحدثنا الآن في أي موضوع لقلت لا أعرف!

ـ ربما تطاولت عليك، ولكن كما قلت لك، يجب على الانسان ان يتكلم كلماته الأخيرة ويمشي، وهذا ما أفعله الآن، قد أشعر بالراحة وأنا أثقب جدار الصمت!

ـ فعلاً نحن مجانين، نريد الآن أن نقاتل بعضنا دون أن ندري لماذا!

وشربنا من جديد. وابتسم وهو يغير جلسته، كأنَّه ينتزع نفسه من الوحل. نظر إلى النافذة وقال:

ـ بعد الأحذية عامل بناء مرة أخرى، ثم بائع يانصيب. ورعيت الغنم لمدة ثلاثة شهور، انتهيت منها وصاحب الغنم يقول لي بصوت غليظ قاس:

ـ يجب ان تشكر ربك لأنَّك ما تزال تعيش الآن. لقد استطعت ان تنام وتأكل طوال هذه الفترة! وهزَّ رأسه علامة التهديد، ثم احمر وجهه واحتقن وهو يقول لي بعصبية خفت ان تتطور فتصبح شيئاً خطيراً:

ـ الأجرة: كانت الأكل والشرب... ولا شيء غير ذلك.

كنت أفكّر ان أربح، ولكن الخسارة التي لحقت بي لا تجعلني أنام الليل. وبصوت أقسى من قبل وأغلظ: اغرب عن وجهي ايها المنحوس، وإلاّ فإنَّني سأدبغ جلدك.

ودون مناقشة، من أي نوع، تركت صاحب الغنم لأهيم على وجهي من جديد. ان الفم يا صاحبي هو العضو الوحيد في الانسان الذي لا يتوقف. انه يتحرك في كل الأوقات: أثناء الأكل، وأثناء الحب، وعندما يشتم الآخرين!

11

وجدت عملاً جديداً، دباغة الجلود هذه المرة.

وفي هذه الفترة بالذات التقيت بامرأة جميلة!

قلت لك ان النساء عالم عجيب، ولكن يبدو أنَّك لا تصدق!

كنا نسكن في حوش كبير. كنا أربعة: ثلاثة رجال وامرأة. أما صاحبة الحوش، وهي امرأة عجوز لعينة، فإنَّ لها غرفتين على السطح، أو في الطابق الثاني كما تحب أن تسميه!

كنا، نحن الرجال، نخرج من الفجر، أمَّا المرأة، والتي أصبحت زوجتي فيما بعد، فكانت تعمل خادمة. تعمل يوماً وتستريح يوماً. وفي الفترة التي تعطلت عن العمل، أصبحت أراها كثيراً. طلبت منها سكراً، ومرة أخرى رغيفين من الخبز. وطلبت مني أن أدق لها المسامير في الحائط ففعلت، وطلبت مني مرة أخرى أن أساعدها في نقل الخزانة التي قالت انها اشترتها، ثم اعترفت لي في وقت متأخر، وبعد الزواج، انها حصلت عليها مقابل عملها في أحد البيوت.

المهم أنِّي تعرفت إلى هذه المرأة، ومثلما يحدث دائماً تحدثنا عن الأغنياء وقسوتهم، وتحدّثنا عن الفقراء الكسالى، وعن الحظ. كانت تبدو لي لينة العظام، خجولة، بعد فترة عرفت أنَّني أجهل كل شيء في هذا العالم!

عندما تزوجنا تنازلت لنا صاحبة الدار عن الغرفتين اللتين على السطح، ونزلت إلى غرفة زوجتي، وأجَّرت الغرفة التي كنت أسكن فيها.

وعلى سطح الدار كنا نقضي حياتنا: نأكل وننام ونفكر بخبز الغد ونحلم. لم أكن أحب أن أتكلم كثيراً، لأنّي لم أجد أشياء كثيرة أقولها. ولو تكلّمت أكثر مما فعلت لحدثت زوجتي الجديدة عن حنة، ولكني لم أفعل!

بعد شهور قليلة بدأت زوجتي تقول لي بصوت عال وقاس: لقد تغيّرت يا الياس. كنت قبل أن تتزوج رجلاً آخر. كنت تحب أن تضحك وتتكلم، أمَّا الآن... وتهز رأسها بأسف.

انا لم أتغير ابداً، فالأحاديث التي أعرفها قلتها لها، وما زلت أشعر بالسعادة معها مثلما كان الأمر قبل الزواج، ولكن لم تفهم هذا أبداً.

أصبحت حين تراني تنشغل بأزرار تخيطها، أو تتظاهر بالنوم، ثم بدأت تقضي وقتاً طويلاً عند تلك العجوز اللعينة. لا أعرف عن أي شيء كانتا تتحدثان، ولكن بدأت ألاحظ ان زوجتي لم تعد تحبني! كانت تصرخ في وجهي. تعيرّني أني مقطوع من شجرة، لا أب لي ولا أم. لم أكن كذلك، ولكن الحياة تجعل الانسان مثل ثور يدور في الفراغ.

قضيت معها ثلاث سنين، وفي هذه السنين لم أعرف امرأة غيرها. كنت أشتري لها المناديل والأمشاط، واشتريت حذائين وأشياء أخرى كثيرة. وكنت أموّن البيت بالسكر والطحين. كان في بيتنا أغلب الوقت سكر يكفي شهراً. وعندما كنا نتحدث، أقول لها كل شيء أعرفه، ما عدا حنة!

أنت لا تعرف أنه لا يليق بالرجل ان يتحدث مع امرأة عن امرأة

اخرى. كانت تسألني فلا أجيب. كانت تستفزني، تقول أنت الذي قتلتها، فينتابني حزن يهجم عليّ مثلما يهجم المطر في نيسان. ولكن أكظم الحزن.

قلت لها ذات مرة:

ـ لماذا تغارين منها وهي تنام منذ سنين في قبرها؟

قالت: أنتم الرجال ليس لكم أمان، تقولون شيئاً وتفعلون شيئاً آخر.

قلت: عن أي شيء تتحدثين؟

قالت: أتحدث عنك.. لا أصدق أنَّك لا تعرف غيري.

ومنذ ذلك الوقت بدأت أفكر بحنة اكثر مما كنت أفعل من قبل، وبدأت تعاندني وتذهب إلى العجوز، وحتى عندما ينام الناس كنت أسمعهما تتحدثان. فإذا ناديت عليها خرجت إلى الحوش وصرخت بي: لا توقظ النيام، نم وسآتي. وأنتظر ولا تأتي!

وذات يوم أفقت مبكراً فلم أجدها، لقد سرقت كل شيء يمكن أن يسرق وهربت. وحتى الآن لا اعرف لماذا حصل ذلك كله!

سألت نفسي مرات لا تنتهي لماذا حدث ذلك؟ تذكرت حياتنا كلها، ولكن لم أجد سبباً أو تفسيراً.

قلت في نفسي: أنت يا الياس أخطأت في فهم هذه المرأة، كان يجب ان تهرب!

ـ ثلاث سنوات ولم تستطع أن تفهم لماذا هربت!

ـ تسخر مني... أليس كذلك؟

ـ أنت تعرف ان ليس للسخرية مكان هنا، ولكن أستغرب أنك لم تنتبه في الوقت المناسب، ألم تلاحظ شيئاً؟

ـ من الخطأ أن يعتمد الرجل على ملاحظاته وحدها في فهم

المرأة، اذا هي لم ترد ان تساعده فلن يستطيع فهمها ابداً؟

ـ أقصد هل بدر منها ما يوحي انها ستهرب؟

ـ أنا بطيء الفهم، لا أستطيع أن أفسّر الأشياء إلاَّ بعد وقوعها. . .

ـ وكيف تفسر هروبها؟

ـ قلت لك إنّي لا أعرف، لم أستطع أن أفهم هذا الشيء ابداً، والآن أقول لنفسي: لو كنت يا الياس رجلاً معقولاً لما هربت منك. ولكن لا أعرف ماذا كان يجب أن أفعل!

ـ ألم تنجب لك أطفالاً؟

ـ قتلت الأطفال!

ـ قتلت الأطفال؟

ـ نعم وقد دفنت في تلك المدينة ولدين، لو ظلوا أحياء لكانوا الآن إلى جانبي يلبسون سترات كثيرة ويعبرون الحدود!

ـ وكيف قتلتهم؟

ـ لا تكاد تصل الشهر الثالث أو الرابع حتى تبدأ تنوح وتبكي. كانت تعكر حياتي كلها وهي حامل، حتى انها لا تترك لي فرصة لأنام. كانت تحمل الخزانة كل يوم مرتين لكي تسقط الأطفال. كانت تقفز من السرير إلى الأرض على كعبيها. كانت تتشاور مع الخنزيرة طوال الليل. وفي كل مرة تجد لنفسها حلاً!

ـ وأنت ألم تستطع أن تفعل شيئاً؟

ـ حاولت أوَّل الأمر، ولكن كلماتها الخشنة صوَّرت لي الأولاد كريهين، وكأنهم الخراف الصغيرة التي تبول على نفسها، فلم أطق الأمر، تركتها تفعل ما تريد. كانت تقول لي: الجلود جعلت منك جيفة، هل تريد أن يكون أولادك دبّاغين؟ فكّر بنفسك يا الياس قبل أن تفكّر بالأولاد.

كانت كلماتها تحز في نفسي، تقتلني. حتى عندما ننام، كانت تعطيني ظهرها، وترفض ان تنظر إليّ. لم أكن قذراً او قاسياً. كنت أفرك يدي وجسدي بالماء والصابون حتى أتعب. وفي أيام الشتاء الباردة لا اقترب منها قبل ان اكون قد اغتسلت، ولكن يبدو ان رائحة الجلود تعلق بالدم.

ـ والمرأة العجوز... ألم تكن تعرف؟

ـ هذه هي رأس الحية!

ـ هل علمت شيئاً؟

ـ سألتها عنها، ولم أحب أن أذكر اسمها، بعد ان أخطأت أكثر من مرة وأنا أناديها او أتحدث عنها. سألت العجوز، نظرت اليّ وابتسامة ساخرة تملأ وجهها. ردّت:

ـ لا أعرف. وهزَّت كتفيها.

وسألتها مرة ثانية:

ـ أين يمكن أن تذهب؟

وبحدة أجابتني وقد فارقت الابتسامة وجهها:

ـ ولماذا تسألني؟ هل أنا أُمّها؟ أُختها؟

ـ ولكنك تعرفينها جيداً، تعرفين كل شيء عنها وأين يمكن أن تذهب!

قالت: أنا لا أعرف!

قلت: أنتِ السبب أيَّتها العجوز اللئيمة.

وباستغراب أقرب إلى الذهول رددت لنفسها الكلمات، وكأنَّها تحاول أن تستوعبها: العجوز اللئيمة ها... ثم فجأة انفجرت وتغيّر فيها كل شيء، ولكني لم أمهلها، قلت لها:

ـ وهذه الكحلة التي تضعينها في عينيك، ألا تخجلين؟ تتصورين نفسك صبية؟

قالت: أتريد أن تربيني؟

قلت: إذا فشل أبوك وأزواجك العشرون في تربيتك، فكيف أستطيع أنا؟

ودون أن تجيب بصقت في وجهي، وأخذت تصرخ وتقول كلمات قذرة، لم أكن أتصور ان أية امرأة تعرفها! لا أستطيع الآن أن أعيد نفس الكلمات لأنّي أخجل. وفي سورة غضبها دفعتني بصدري، فأصبحت خارج الغرفة. وعندما أخذت بصعود الدرج، صرخت بي صرخة أرعبتني، سمعتها تقول:

ـ أنت لست رجلاً، حذاؤها حرام فيك، حذاؤها أحسن من رأسك، كان يجب أن تهرب... هل أنت رجل؟

لكني واصلت صعودي، وإن كان عقلي قد اختل، فلم أعد أعرف ماذا أفعل. وعندما سمعت صوتها يندفع ورائي حاداً متوعداً، وجدت نفسي أحمل جرة الماء التي كانت على طرف السور وأقذفها بها. كادت الجرة ان تحطم رأسها، ولكن الله أنقذها في اللحظة الأخيرة. ان أغرب شيء في هذه الحياة يا صاحبي، ان الناس السيئين لا يموتون. يعيشون أكثر مما يجب لكي يفسدوا حياة الآخرين!

ـ وكيف انتهى الأمر بعد ذلك؟

ـ ظلت تصرخ حتى جمعت عدداً كبيراً من الناس. كان صوتها يصلني وأنا في الغرفة مثل نار تنهش جسدي. ولما خرجت اليها مرة أخرى صاحت:

ـ أنت يا.. أنت يا الياس تعرض على زوجتك ثم تسأل الناس أين ذهبت؟ يا قليل الشرف، انت لست رجلاً. لا ذمة لك ولا دين. الآن... الآن أريد أجرة الثلاثة شهور. ثلاثة شهور لم يدفع اجرة، وأنا ساكتة، لم أقل كلمة واحدة. كنت أقول لنفسي لا بدَّ ان الجماعة في ضيق. ولكن كما ترون من يحسن إلى الناس لا يلاقي غير

الاساءة. والتفتت اليّ مرة أخرى، وقالت بهدوء هذه المرة: اسمع يا الياس أمام الجماعة الواقفين، اليوم، قبل مغيب الشمس تدفع الأجرة، وقبل انتهاء ثلاثة أيام تترك البيت، لا اريد سوى ان تترك البيت، أنا حرة في بيتي، بيتي شريف، ولا أريد فيه جماعة من أمثالك.

أردت أن أقول شيئاً ولكنني لم أستطع.

كان من عادة زوجتي ان تدفع لها الأجرة في بداية كل شهر، وما أعرفه ان الأجرة بكاملها قد دفعت، ولكن كيف لي الآن أن أقول كلمة، مَن سيصدقني؟ مَن سيقف معي؟

المهم أنني بعد يومين كنت أغادر الحوش اللعين، ولم أدفع سوى أجرة شهر واحد. قلت لها: لو انقلبت السماء على الأرض فلن أدفع أكثر من اجرة شهر واحد.

كانت تريد أن أخرج، ولم أجد حلاً غيره. خرجت وأنا ألعن كل شيء في هذه الدنيا: النساء والبيوت والأجرة. ولعنت نفسي مرات لا تنتهي.

كنت حزيناً لدرجة لم أتصوّر ان في هذه الحياة هذا الحزن كله، او أن الانسان يمكن ان يتحمل حزناً بهذا المقدار. وقد قرّرت في بعض اللحظات ان أقتل نفسي، ولكن في لحظات أخرى شعرت أني مظلوم وبريء!

ـ وكيف نسيت هذا الجرح؟ ألم تجدها مرة أخرى؟

ـ لم يكن صعباً أن أجدها لو أردت. كان يكفي أن أراقب ذلك الحوش الذي سميته عش البوم، ان أراقبه يوماً أو يومين حتى تأتي عند العجوز، ولكنها خرجت من نفسي.

بعد ان هدأت ندمت كثيراً اني سألت تلك الخنزيرة عن زوجتي، ما أتعس الانسان عندما يسأل الناس عن زوجته. لقد أخطأت كثيراً مثلما يحصل كل مرة!

ـ وانتهى الأمر دون أن تفعل شيئاً؟

ـ ماذا كان عليّ ان أفعل؟ يجب ان تعرف يا صاحبي ان المرأة إذا قرّرت امراً، فلا يمكن ان يقف في وجهها سوى شيء واحد.

ـ وما هو هذا الشيء؟

ـ الموت. . . نعم الموت هو الشيء الوحيد الذي يمنع المرأة!

ـ وواصلت الحياة في المدينة. . .

ـ نعم واصلت العذاب. فكّرت أوّل الأمر ان أهجرها ولكن هاجساً في داخلي منعني. كنت أسمع صوتاً يقول لي: أنت رجل يا الياس، أنت رجل وما تزال شاباً، لا تترك شيئاً. ابق حيث أنت. ابق في المدينة، وابق في عملك.

وهذا ما فعلته. انتقلت الى حي بعيد، أبعد ما يكون عن عش البوم. وواصلت العمل بالدباغة. ولم تمض سنتان حتى أصبحت شريكاً بالثلث في دكان الدباغة التي كنت أشتغل فيها. وبعد سنة شريكاً بالنصف. وقبل أن تنتهي ست سنوات مات صاحب الدكان وأصبحت المالك الوحيد!

ـ وأصبحت غنياً؟

ـ نحن الفقراء لا نعرف كيف نصبح أغنياء. وربما ليس مطلوب منا ان نكون، فالنقود التي تدخل الى جيوبنا لا تستقر فيها. صحيح انَّني لم أعد أنام في العمارات الجديدة او المهجورة، ولكن رأسي كان يشتغل بالأفكار الجديدة، أريد ان أخلص من الدباغة، ومن المدينة، ومن كل شيء! ولولا أنَّني شعرت بتحد خفي لتركت الأمر قبل أن تهرب!

كانت تقول لي: الدباغة! الرائحة الكريهة! أولاد دباغ، وتضحك بسخرية. وكنت أقول لنفسي: على الانسان ان يعمل،

العمل ليس عيباً. وعندما هربت قرّرت ان اظل دباغاً! الدباغة أفضل ألف مرة من أعمال كثيرة في هذا العالم. كنت احسّ بالراحة عندما يتحول الجلد بين يدي الى قطعة من الحرير الطري، اقلبه، انظر اليه باعجاب، ثم انظر الى يدي وأقول: سلمت يداك يا الياس.

ـ أراك الآن بائعاً تحمل الملابس عبر الحدود.. كيف تركت الدباغة؟ لماذا تركتها؟

ـ في الطيبة مثل يقول: فلان ما عنده طيز، أي انه لا يستقر في عمل، ولا تسخن الأرض تحته، إذ يظل ينتقل من عمل لآخر، من مكان لآخر... وأنا هذا الانسان.

ظللت في دكان الدباغة بعد ان أصبحت لي، سنتين. ربما كانت هذه الفترة أحسن الفترات التي شعرت خلالها بالراحة والاستقرار، ولكن أحلاماً مجنونة بدأت تحوم في رأسي. كانت تمر الساعات وأنا أحلم، وبدأت تعاودني فكرة الأرض والأشجار. أبعدت هذه الأحلام مرة، أبعدتها مرة أخرى، ولكنها لا تغيب يوماً حتى تعود أقوى وأشد في اليوم التالي، الى أن سيطرت عليّ ولم أستطع مقاومتها!

بدأت رائحة الأرض تنغل في قلبي ليل نهار، وأصبحت الأرض الشوق الوحيد الذي أحسه يسيطر عليّ. أصبحت أنظر بحقد متزايد الى هذه الجلود اليابسة التي تأتي وتروح كأنَّها أوراق ميتة. ويوماً بعد يوم تحولت معاملاتي مع الناس إلى الخشونة والجفاء.

ـ متى ينتهي الجلد يا الياس؟

ـ بعد شهر!

ـ شهر؟

ـ إذا لم يعجبك فتّش عن غيري.

ـ ولكن الشهر فترة طويلة جداً.

ـ ليس عندي وقت. . . إذا كنت لا تستطيع أن تنتظر خذ جلدك وامش.

ـ عشرون يوماً تكفي، يا الياس!

ـ قلت لك شهر، شهر إلاّ يوم واحد غير ممكن. وانتهى الأمر بأن أصبحت أتعامل مع عدد محدود، وحتى هؤلاء لاحظوا الخشونة والجفاء فانكمشوا. وجاء يوم قرّرت أن أبيع المحل!

12

ـ ما كادت النقود تصل إلى يدي، حتى زلزلني نداء وحيد: أن أزور قبر حنة.

لم أكن حتى ذلك الوقت أفكّر ان أستقر في الطيبة، ولكن سمعت وأنا أجثو على قبر حنة صوتاً ضعيفاً أقرب إلى البكاء. كان صوتها، وكان بكاءها. اهتزت كل عضلة في جسدي وانتابتني موجة حارة من البكاء.

لقد مرت سنوات طويلة لم أزر هذا القبر، لكأنِّي نسيت حنة، أو كأنَّها امرأة مثل باقي النساء. شتمت نفسي، لمتها، قلت يا الياس ما أنت إلاَّ رجل مثل باقي الرجال، لا تحفظ عهداً ولا مودة. ثماني سنين، نعم ثمان واكثر ولا تحمل لهذا القبر غصناً أخضر، وردة من ورود الطيبة؟

امتلأت روحي بالعذاب. خجلت من نفسي. بكيت. همت في الفلاة لا أعرف ماذا أفعل!

وفي اليوم التالي وجدت نفسي اشتري بالنقود ارضاً.

تصوّر، يا صاحبي، الياس يشتري ارضاً في الطيبة. ليست ارضاً عادية، وإنَّما هي أرض ما تزال مليئة بأعواد القطن وروث الدواب!

نظرت إلى الأرض، تأمّلتها بلهفة، وفي أقل من لحظة بدت لي

خضراء لدرجة ان بستاني لم يكن شيئاً أمامها. رأيت أشجار الجوز كبيرة. كأن لها من العمر آلاف السنين، تقف بشموخ رائع حول البستان، ثم رأيت أشجار اللوز والمشمش، وفي الناحية الشرقية العنب والتين. اما في الوسط فإنَّ أشجار الكرز ترتفع رشيقة ناحلة كأنَّها تفاخر الأشجار التي حولها بطولها ورشاقتها، وإلى جانبها أشجار التفاح المثقلة، ورأيت حبات العرق تغسلني وأنا أحاول وضع الركائز لهذه الأشجار قبل ان تتقصف أغصانها من الثمر.

لما فتحت عيني كان صوت الريح يخش في أعواد القطن اليابسة، كأنه صوت الجلود قبل دباغتها. كنت أحزن وأفرح في كل لحظة. كنت أرى جميع الأشياء في تشابكها المستمر: الأغصان الخضراء، أعواد القطن، أثمار الجوز الكبيرة، بعر القطعان التي مرت فوق هذه الأرض، الساقية، الأشجار.. كنت أرى كل ذلك!

ولم أكن أعرف ماذا أفعل...

ظللت أفكّر ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع كنت أقتلع الأعواد بحقد، وقد قرّرت أن أزرع الأرض أشجاراً. لو رأتني حنة لظهرت على وجهها ابتسامة كبيرة، وركضت لتساعدني، كانت ستحمل الأعواد إلى طرف الأرض لتجعلها كومة كبيرة، حتى اذا انتهت أشعلت فيها النار. اما سلطان فإنَّ حوافره الثقيلة لن تتعب وهي تدوس الأعواد، حتى اذا مزّقها باعد بين رجليه وبال عليها! آه لو كان سلطان حياً الآن... لو كان حياً لما توقف لحظة واحدة: يذهب إلى الطيبة ويعود منها عشرات المرات كل يوم يحمل الغراس والمحراث، يحمل الثمار والعلف، يفعل كل شيء بسعادة. وفي المساء يحملني دون ان أقول له كلمة، ويمشي وانا فوقه أغنِّي، حتى اذا وصلنا وجدنا طعامنا جاهزاً وقد امتلأ بأنفاس حنة التي لا تنسى!

كنت أحلم كثيراً وأنا أعمل. لم أشعر بالتعب، ولم أنسَ شيئاً واحداً مما يجب أن أفعله!

حفرت الأرض بعد ان اقتلعت أعواد القطن اليابسة، قلبتها مرتين، ثم أطلقت عليها الماء حتى ارتوت. وخلال هذه الفترة تجوّلت في الطيبة كثيراً، مررت على بساتينها، اشتريت غراساً وسماداً، ثم سافرت الى مكان قريب أحضرت منه أشتالاً من السرو جعلتها سوراً للبستان.

وفي أقل من شهرين انتصبت عيدان نحيلة متوازية في طول الأرض وعرضها. كنت أنتظر بصبر حتى تحتضنها التربة وتمنحها الدفء والغذاء. كنت أنتظر كل يوم، لعلّي أرى براعمها تتكور حمراء صغيرة على أطراف العيدان. كانت الأيام طويلة، أطول من أية أيام غيرها، حتى جاء الربيع.

وفي الربيع يتفجر كل شيء.

كنت أجلس عند كل عود، أنظر اليه بلهفة مجنونة، أحدثه، أسأله إن كان يشكو من عطش او عذاب، وألح عليه ان يجيب، كنت أسأل دون تعب حتى اذا جاء الدفء رأيت كثيراً من الأعواد النحيلة تحمر عقدها وتتكوّر، ثم لم تمض أيام حتى خرجت من هذه العقد أوراق صغيرة لونها بين الصفار والخضرة، كانت أوراقاً لامعة بحزن وهي ترفع رؤوسها اول مرة أمام الشمس. أمَّا الأعواد التي لم تظهر براعمها فقد حزنت لأجلها كثيراً، مثل حزني على الأطفال الذين يموتون بعد أن يولدوا... تركتها أياماً لعلها تعاود الحياة، حفرت حولها، سقيتها، تحدّثت معها بصوت عال، اشجعها على ان تبدأ الحياة، ولكن ما كادت تقسو الشمس ويطول النهار حتى التوت هذه الأعواد وجفت. شعرت بالألم وأنا أجمعها في حزمة صغيرة لأضعها في طرف البستان خوف أن يدوسها أحد!

ـ والطيبة، كيف أصبحت هذه المرة؟

ـ لقد تغيّرت هذه البلدة الملعونة، تغيّرت كثيراً!

بنى الخوري سمعان كنيسة جديدة، لها قبة عالية تقف من

الداخل شامخة في الهواء دون أن يسندها عمود من أي نوع، ومن اجل هذه القبة تكلّف نصارى الطيبة مبلغاً كبيراً، دفعت نصيبي منه، رغم اني لا أحب الكنائس وليس لي بها أية علاقة!

ولم يقتصر الأمر على ذلك، لأنَّ أحداثاً هامة وقعت في الكنيسة ايضاً، فقد طرد الأب فؤاد، بعد ان حامت حوله أقاويل كثيرة، خاصة تلك المتعلقة بالاعتراف! ورغم ان الناس لا يتحدثون عن ذلك بصوت عال، لكن كل انسان في الطيبة، حتى أولئك الذين قضوا سنوات خارجها، يعرف كل شيء دون اشارات، ودون كلمات، لذلك لم يعد ممكناً ان يستمر الأمر كما كان من قبل.

غادر الأب فؤاد الطيبة، بناء على أوامر مشدّدة، نقلها اليه الخوري سمعان. وكان ذلك نهاية فترة، لأنَّ الأب الجديد الذي حلَّ مكانه، كان غريب الأطوار، محباً للعزلة، ولم يألفه الناس ابداً. وقد زاد شعور الكراهية بينه وبينهم ان اسمه كان ثقيلاً من تلك الأسماء التي لا يحسن أهل الطيبة نطقها. وبدأت الأمور تلتبس كثيراً، خاصة فيما يتعلق بالمواليد والأحداث المهمة، فقد كان التاريخ قبل ذلك يستند إلى إشارات معروفة، وأغلب الأحيان تاريخ وصول أحد الآباء او وفاته.

لما تعذّر على الناس نطق اسم الأب الجديد، سموه من عندهم. سموه متى، وسموه ميخائيل. اما أهل القرى المجاورة فاقتصروا على تسميته بالأب الجديد، ولم يضيفوا له شيئاً آخر.

كانت الكنيسة اذن احد مظاهر التغير في الطيبة. ويجب ان تعلم أنَّني مسيحي متواضع، لا أحب الكنيسة، وليس لي علاقة بالآباء، وعندما أحدثك الآن عن الكنائس فيجب ان تعرف ان الكنيسة سببت لي متاعب كثيرة وتركت في نفسي آثاراً لم أستطع حتى الآن محوها.

أمَّا الذين ماتوا خلال السنين، والذين هاجروا، فإنَّ شأنهم شأن

جميع الناس في كل القرى. مات عدد كبير من أهل الطيبة، عدد يزيد على العشرات، وكذلك الذين هاجروا.

أمَّا الأشياء الأخرى، فإنَّ الطيبة مثل غيرها من البلاد، يولد فيها الناس ويتزاوجون. يحبون ويكرهون، تنتابهم المخاوف إذا انقطع المطر، ويتحدثون ليالي بطولها عن مقتل الدركي، الذي قيل انه وجد في الوادي القريب من العين، دون أن يعرف احد عن قتله شيئاً!

كانت الروايات حول مقتل الدركي كثيرة. يقول بعض الناس انه قتل عند أول المساء وهو عائد من مهمة، ويقولون انه كان قبل ذلك قد اعتدى على الشيخ مطوي في نفس اليوم، وانتزع من خيمته رأسين من الماشية وسبع دجاجات، وقد قبض الدرك على الشيخ وضربوه، ولكن سكان قرية التلة يؤكِّدون ان الشيخ مطوي لم يترك القرية في ذلك المساء.

وآخرون يقولون ان الدركي قتلته امرأة. ولا يذكرون شيئاً مهماً حول الأمر، سوى انهم يستندون إلى وجود بعض ملابس امرأة قريبة من الجثة، ولا يضيفون شيئاً عن هذه المرأة، مَن تكون ولماذا قتلته!

ومرة أخرى أذكر هذه الأمور لأن همساً دار حول الياس، فقد وجد من قال ان الشجار الذي وقع بيني وبين ذلك الدركي قبل شهرين من مقتله يكمن وراء الحادث، ونتيجة لذلك اوقفني الدرك وضربوني حتى كدت أموت ولكن شيئاً لم يثبت عليّ، لأنَّ القاتل اكتشف بعد شهور، وبعد معركة وقعت بين الدرك وأحد المهربين. فقد قتل المهرب وعثر في جيبه على دفتر صغير، كتب فيه: «الخنازير يجب ان تموت، وأنت يا مسيفر الأقرع يا عين الأفعى التاسع». ثم بعد ذلك بصمة الدم وداخلها توقيع!

صحيح ان الدرك لم يعتبر القضية منتهية عند هذا الحد، لأنَّ المهرب قد قتل، وهم يريدون انساناً حياً، ولكن بعد بحث طويل،

وانتظار أطول سجّل الحادث على أساس ان المهرب ربما كان القاتل، نظراً للشواهد المتوفرة!

تغيّر رجال الدرك مرات عديدة في الطيبة. كانت آخر مرة قبل وصولي بشهرين، وظنَّ الناس عندما جرى الحديث عن الرجال الجدد، انهم سيكونون أحسن من الذين سبقوهم، ولكن ما وقع بعد ذلك جعلني أقتنع ان هؤلاء الرجال أسوأ من كل الرجال الآخرين!

وفي الطيبة وقعت خصومات كبيرة بين النصارى والمسلمين. صحيح انها انتهت بعد عناء ووقت طويلين، وتدخّل فيها رجال من المدن البعيدة، ولكن لم أحب أن تقع هذه الحوادث، وقد سببت لي تعاسة كبيرة، لأنّي لا أريد ان أتدخل فيها، كما لا أستطيع ان أكون بعيداً عنها.

ففي اليوم الثالث لوقوع المجزرة كما يسمِّيها النصارى، والغزو كما يسمِّيه المسلمون، جاءني بطرس وابن خلدة وقالا لي ان الخوري سمعان يريدك.

ذهبت وقابلته، ولم اكن لأفعل ذلك لولا ضرورات سأذكرها لك، قال لي: «الطائفة تكلفك بقتل الشيخ مقبل، لأن قتل الشيخ انتصار للمسيحية واستجابة لطلب الاله، وان المسيحي الذي يقوم بهذا العمل سوف تحفظ له الكنيسة سجلاً مكتوباً بماء الذهب. ليس ذلك فقط، بل سوف تعلم الكنائس المسيحية في جميع أنحاء الأرض، بهذا الابن المبارك للاله، وسوف يكون انساناً مرموقاً!».

رفضت، وسخرت من الجوائز التي يتحدث عنها الخوري سمعان. وهذا الشيء أغضبه كثيراً. وانتهى الأمر بيننا بأن قال وهو يهز اصبعه يحذرني:

«اسمع يا الياس ـ لقد رفضت نداء الاله وخالفت الكنيسة، والأمر حتى هنا لا عقاب عليه، ولكن إذا عرف أحد ما قلناه، فيجب ان تعتبر نفسك منبوذاً ومحروماً، ليس ذلك فقط. . .» وهزَّ الأب

سمعان رأسه ويده بشكل أفهمني تماماً ان حياتي أصبحت بخطر إن تكلمت حول الأمر كلمة واحدة!

وفي الطيبة أقيم لأول مرة نزل للغرباء، سماه صاحبه «نزل السعادة». لقد ضحك الناس كثيراً عندما رأوا الانسان الغريب يدور ويدور مثل حجر الطاحون. كان يشتري الصوف والقطن، وأوصى على أسرة من المدينة البعيدة، بعد ان عجز النجاران اللذان كانا في الطيبة عن تلبية طلبه. تندر الناس كثيراً في مجالسهم على صاحب النزل، وتنبأوا له بالخسارة، حتى ان عدداً من الشباب تراهنوا على ذلك!

وأصرَّ الرجل على فكرته. لم تثنه كلمات المختار وأحاديث الرجال المسنين الذين قامت بينه وبينهم علاقات، عندما اشترى الصوف والقطن وبعض البسط. ظلَّ هذا الرجل يقاوم حتى جاء يوم أصبح يشار اليه بالبنان، باعتباره أحد الأشخاص الأغنياء في البلدة.

وفي هذه الفترة بالذات انتهى عصر الأخوين نصراوي.

كان هذان الأخوان أطباء البلدة منذ زمن طويل. كانا يقدمان الأدوية والعلاجات اللازمة لكافة الأمراض، وكان النصراوي الكبير يخلع الأسنان ويطهر أولاد المسلمين بعض الأحيان، أمَّا الصغير فقد كان دكانه المقابل للكنيسة القديمة يحوي كل شيء: العقاقير والحشائش والحبال، وأنواعاً عديدة من العلف والسماد، ولكن أهل الطيبة لا يسمون الدكان إلاَّ «الأجزخانة».

كان النصراوي الصغير قصيراً يشبه حجراً مربعاً، لأن كل شيء فيه يشبه الحجر، لونه، قسوته، علاقته مع الناس، عكس النصراوي الكبير، والذي كان عالماً متنوعاً من المهارة والطرب. لم تكن تحدث حفلة من أي نوع في الطيبة والقرى المجاورة، إلاَّ ويكون النصراوي الكبير على رأسها، ومن جملة الأسباب التي حببت الناس فيه انه لم يكن ينظر للمال باهتمام، عكس أخيه.

في هذه الفترة انتهى عصر النصراوي، لأنَّ طبيباً اسمه نعيم الآغا وصل إلى الطيبة وفتح في بيته عيادة ومستشفى، وأصبح الناس يذهبون اليه بدل ان يذهبوا إلى النصراوي، وبارت أشغال النصراوي الصغير ما عدا علاقاته مع البدو، والحاجات التي يبيعها مثل الدكاكين الأخرى. اما العقاقير فقد انتهت من الطيبة لتحل محلها أدوية الطبيب المغلفة بألوان زاهية، والتي كانت تباع بأسعار خيالية! ولكن الناس منذ ان دخل القطن إلى الطيبة لم تعد النقود تعني شيئاً بالنسبة لهم!

اما النصراوي الكبير فقد ظلَّ موجوداً، وان اختلف وضعه عن قبل، صحيح ان السنين غيّرته، ولكن السنين تغيِّر كل شيء! اصبح صوته خشناً مخدوشاً، سريع التعب، وأصبح لا يغني إلاَّ بعد ان يشرب ويكثر من الشراب، وحتى المسلمون وافقوا على ان يقدموا له المشروب من اجل ان تكون سهراتهم طويلة ممتعة مثل سهرات المسيحيين!

ظلَّ النصراوي الكبير يخلع الأسنان، ويطهر أولاد المسلمين. اما اعمال الطب الأخرى فقد تراجعت، ولكن لم تنته. فالنساء اللواتي تعودن على تربية الأولاد بعقاقير معينة كنَّ يذهبن الى النصراوي الكبير ويطلبنها منه، والرجال المسنون الذين أخذوا يحسون بالتعب وضعف القوة كانوا يذهبون الى النصراوي الكبير، وبسرية يطلبون اليه ان يساعدهم. ويضحك النصراوي وهم يعطيهم سفوفاً ومقومات من جذور النباتات!

تحدثت طويلاً عن النصراوي لأن ارتباطاً جديداً أصبح يجمعنا، زيادة على القرابة التي بيننا، فقد تزوجت أخته، ولكن لذلك قصة أخرى!

13

ـ لتحترق الطيبة، ليأتها الطوفان ويغرقها كلها، لقد أتعبتك وأنا أتحدث عن هذه البلدة المشؤومة!

ـ أما التعب، فأنت الوحيد الذي تعبت، ولكن تبقى الطيبة ماضيك، سعادتك وتعاستك. والانسان عندما يتحدّث عن الماضي يشعر بالمرارة ويشعر بالبطولة ايضاً. لا يصدق أنه عاش كل تلك المآسي واحتملها!

ـ اترك البطولة يا صاحبي. تأكّد ان ليس بطلاً إلاًّ الأشجار، ولا شيء سواها!

ـ إذن تحدث لي عن أشجارك الجديدة، أراك الآن تتحدث عن الطيبة في نهايتها!

ـ مَن يسمعني أتحدث عن الطيبة هكذا، يظن أني أتحدث، عن أكبر المدن وأهمها في هذا العالم!

ـ كل انسان يحب مدينته، ويعتبرها أهم المدن!

ـ أمّا انا لم أعد أحب شيئاً. لم أعد أطيق الطيبة او غيرها من المدن.

ـ وذاك القبر الذي حملك من أقصى الدنيا، لتنثر عليه باقات من الزهر؟

ـ في وقت من الأوقات أصبح ذلك القبر مثل قيود في رجلي يمنعني من الحركة، من التفكير.

ـ إذا كان في بعض الأوقات، فإنَّك لا تزال سعيداً!

ـ هل يمكن أن يسعد الانسان الى جانب قبر؟

ـ لم يعد قبراً، أصبح ذكرى. والذكريات هي التي تحرك الانسان، تسعده وتشقيه، تساعده على احتمال المصائب والأحزان. ولكن لنترك الذكرى، حدّثني عن الأشجار.

ـ أتعرف ما هي المدن؟ ما هي البلدان؟ هل هي الأحجار وقباب الكنائس؟ هل هي عقاقير الأخوين نصراوي؟ هل هي الدركي المقتول عندما أدفع ثمن قتله أربعة أشهر في السجن؟

أتعرف. . .؟ ان المدن هي البشر والأشجار. والبشر والأشجار في الطيبة لم يعودوا كما كانوا من قبل. لقد اختفت الطيبة. تغيّرت. قال لي الناس عندما بدأت أسألهم عن هذا التغير الذي أراه في كل مكان، ان الياس هو الذي تغيّر اكثر مما تغيرت الطيبة، الطيبة لم تتغير كثيراً. . صحيح ان بعض بيوتها تهدمت وقامت أخرى مكانها، وان الكنيسة الجديدة حلت مكان اسطبل المعلم زخريا، وان القطن امتد على طول الأرض شرقها وغربها، وقد تقلص الآن وعادت للأرض الخضرة الدائمة والبساتين. . . هذه الأشياء تغيّرت كلها، ولكن قل لنا أي بلد لم يتغير؟

وعندما اصمت لا أجيب، يقولون: إنَّ الذي تغيّر هو الياس. لم يعد الياس يحب الطيبة، لم يعد ينظر اليها بذلك الحنان الذي كان يحركه عندما قتل ماشية زيدان.

المدينة البعيدة هي التي غيّرتك يا الياس. أصبحت انساناً لا يعرف رائحة الأرض، ولا يحب شيئاً.

نعم يا صاحبي. . إنَّ الذي تغيّر هو الياس.

الدودة التي ولدت في قلبه تكبر كل يوم. لم يعد الياس ذاك الذي يحب الطيبة، يهواها، يقتل نفسه من أجلها. أصبح الياس انساناً معتوهاً، لا يعرف ما في قلبه، ولا يعرف ما يريد.

نعم الدودة التي ولدت صغيرة ذات يوم، أي يوم؟ يوم قطعوا الأشجار؟ يوم ذهبت الى الجبل وعاديت أهل الطيبة كلهم؟ يوم ذهبت إلى المدينة لأنام في العمارات الخالية؟ يوم تزوجت حنة أو يوم موتها؟

صدّقني انني لا أعرف. وقد أكون مبالغاً وأنا أتحدث معك الآن، ولكن تأكّد من شيء واحد أعرفه تماماً: لا تظن أنّي سعيد، ولكن لست تعيساً. إن شيئاً في داخلي يضغط على عقلي يدفعني في الاتجاهين. ان الياس مثل أمواج البحر، لا يستقر لحظة واحدة، لأنّه اذا استقر يكون قد مات!

ـ والمال والنساء؟

ـ أركض وأركض، أحفر حول الأشجار، أسقيها، أضع لها السماد، وفي أيام الشتاء الباردة أدفئها بالخرق وبأنفاسي، لعلها تقاوم المطر والثلج ولكن في النهاية تبدو لي أقل خضرة من تلك الأشجار التي كانت يوماً من الأيام!

ـ والنساء. . ؟

ـ عرفت كثيرات. . ركضت في الليالي المرعبة، أتصور كل ظل شبحاً، وكل شبح امرأة. لقد عرفت النساء، قضيت ساعات هنيئة ورطبة، نمت مع نساء سمينات، ومع نساء ضعيفات، مع أمهات ومع باكرات، ولكن في كل مرة أخرج أكثر بؤساً. هل هي حنة التي هدمت روحي؟ فكّرت بالأمر طويلاً. قلت لنفسي انسَ كل شيء يا الياس، وابدأ حياتك مع النساء من جديد، ولكن كما قلت لك، عندما كنت صادقاً مع هذه التي هربت، وكنت أغسل نفسي حتى أتعب لكي أبدو نظيفاً، وأحمل لها المناديل. . هربت. قد أكون

مخطئاً لأنّي فضلت أن أبقى صامتاً. ولكن ليس هذا كله خطئي، فالكلمات هي التي تهرب. كانت تجول في رأسي كلمات كثيرة وانا أحس الجلود، ولكن عندما أعود في المساء، ترتسم فوق رأسي صورة حنة، أتذكّر وجهها الحزين، طعامها الذي يفوح برائحة الفلفل والنعناع، أتذكر أشياء كثيرة، وعندما أتذكر تضيع مني الكلمات، لا أعود أفكّر إلاّ بها. وتغضب هذه، تشتمني، تسخر مني، تقول لي: وتريد أولاداً أيُّها الدباغ؟

ماذا كنت أستطيع ان افعل؟ لقد اختل عقلي كثيراً.

ـ أنت تحلم كثيراً يا الياس!

ـ لم أعد أملك إلاّ الحلم، هل تريد ان تسرقه مني؟

ـ هذا الشيء الوحيد الذي لا يمكن ان يسرقه احد!

ـ وهذا الشيء الوحيد الذي يخفف من عذاب هذه الحياة. صدق انه لولا الحلم لما تمكّنت من الحياة لحظة واحدة! قل لي ما هي الحياة بدون الحلم؟ بدون ان يحلم الانسان ان اياماً أجمل من الأيام التي يعيشها تنتظره في المحطة القادمة، ان امرأة أجمل وأكثر حناناً من زوجته تنتظره في المدينة الثانية! من ان اشجاراً أجمل ألف مرة من أشجار الطيبة، التي أصبحت صفراء قاسية، سوف تنبت على الهضبات والسهول، وعلى جوانب الطرق وفي كل مكان. من اجل هذه الأحلام يعيش الانسان!

صحيح ان هذه الأحلام ستتبدد تماماً عندما يفتح الانسان عينيه، ولكن يبقى الحلم خاصاً به.

ـ لكل انسان أحلامه، ولا يشاركه فيها آخر. لا أريد ان أفسد احلامك ولكن ماذا لو حدّثتني عن الأشجار الجديدة التي زرعتها في الطيبة؟ عن المرأة التي تزوجتها؟ لقد قلت لي أنك تزوجت أخت النصراوي.. ألم تتزوجها؟

ـ لم تعد الحياة في الطيبة تشوق أحداً. والياس نفسه اكثر الناس رغبة في نسيان هذه الحياة، لماذا تصر أنت على ان تعرف كل شيء؟

ـ أليس في قلبك دودة هي التي تخض هذا القلب ليل نهار؟ في قلبي أنا دودة من نوع آخر. . . ودودتي ان أعرف حياة الناس، ان اكتشفها.

ـ لماذا؟

ـ لا استطيع ان أجيب عن هذا السؤال!

ـ أتريد ان تسرق حياتي؟ ان تقلدها؟ ان تقص هذه الحياة على الأدنياء؟ الأدنياء الذين أعرفهم، والذين لا أعرفهم!

ـ ما تقول بي؟ هل ابدو انساناً سيئاً ونذلاً؟

ـ لم أعد أستطيع ان أحكم على انسان!

ـ صحيح أننا لا نعرف بعضنا، التقينا صدفة، وبعد قليل سنفترق، ولكن كما أتصور نفسي لست سيئاً؟ لم تراودني فكرة الاساءة اليك، او سرقتك، اما ان أقلد حياتك، فإنَّ هذا ما أتمناه! فالذي سمعته حتى الآن يغري. . . هل تسمح ان أقلد حياتك؟

ـ هذا الشيء الوحيد الذي لا تستطيعه!

ـ لماذا؟

ـ لأن لكل انسان حياته، ولا يمكن ان تتشابه حياتان ابداً. يمكن ان تقلد حياتي ولكن من الخارج، أمَّا هنا، ودق على صدره، فهذا لا يمكن ان يقلده أحد. وحتى لو أردت ان تقلد حياة انسان آخر، أياً كان، فلن تستطيع!

أشواقي، عذاباتي، السفر الطويل، الدباغة، الأحذية، والبيوت المهجورة، ثم رعي الغنم، ثم حنة وذلك الموت القاسي الذي سرقها مني. لو افترضنا ان هذا كله توفر لك، فمن أين تستطيع أن تجد سلطان؟ قد تقول ان الحمير كثيرة على هذه الأرض، ليس أكثر من

الحمير، ولكن مثل سلطان لن تجد، نعم لن تجد. والأشجار؟ هل تملك أشجاراً؟ وهل قطعت أشجارك؟ هل قامرت بحياتك وندمت؟

- كيف تقول انه لا يمكن لحياتين ان تتشابها تماما؟ ولكن حياتك أنت وحنة أليس فيهما شبه كبير؟ قارن حياتك معها بحياتك مع الثانية، تجد ان أشياء وبشراً كثيرين يتشابهون!

- تريد ان توقعني. . ؟

- أريد منك ان تظل أميناً معي!

- إن حياة الانسان تتشابه مع الكلاب والحمير، ومع البشر الآخرين، اذا كانت صادقة، أمَّا إذا أصبحت حياة الانسان مثل حياة النصراوي الصغير فإنَّها تشبه الخنازير، تشبه أعشاب المستنقع القريب من الطيبة!

- نحن نتفق كثيراً. . . وقد نتشابه!

- ماذا تريد منِّي؟

- لا أريد شيئاً. أردت منك ان تحدثني عن الطيبة عندما رجعت اليها مرة أخرى!

- لا يمر أسبوع إلاَّ وأغادر الطيبة، ثم أرجع اليها، قد أتركها لقرية قريبة، للجبل، لسفر طويل، ولكن أعود!

- أنت تحبها ولذلك تعود اليها!

- هل أصبحت دركياً؟

- لماذا؟

- لأنك تطوقني مثلما طوّقني الدرك!

- آسف إذا أزعجتك.

- لا يتعلق الأمر بالازعاج، ولكن هذه الطيبة المشؤومة لو ان ناراً تحرقها، طوفاناً يهدم كل بيوتها، لو ان شيئاً من هذا حدث، لانتهى الأمر الآن.

ـ منذ متى وأنت تحقد على الطيبة؟

ـ منذ أن بُني فيها أول حجر!

ـ حتى قبل أن يقطعوا أشجارها؟ قبل أن يقطعوا أشجارك؟

ـ عندما قطعوا الأشجار قطعوا آخر الخيوط بيني وبينها. وكما قلت لك، ان الأشجار تنبت دائماً، تنبت ثم تكبر وتخضر، ويأتي يوم تموت فيه. هذا شيء أعرفه، ولكن شيئاً آخر يقطع مع الأشجار، شيئاً لا يُرى وليس له اسم، هذا الذي قطعوه عندما قطعوا الأشجار!

ـ إنَّك تتحدث بطريقة غير مفهومة.

ـ لو كنت أملك غير هذه الطريقة لتحدثت بها. انا نفسي لا أعرف كيف حصل الأمر. فجأة هوى وانقطع شيء في داخلي، إنَّه أشبه بالوتر عندما ينقطع! ومن ذلك الوقت هوى قلبي، سقط تماماً في حفرة مظلمة وابتدأت الرحلة المتعبة، رحلة ان أنقذ نفسي!

ـ إنك تسرف كثيراً، تسرف حتى العذاب وأنت تتصور ان الأشجار التي قطعوها كانت بمثل هذه الأهمية. كنت تبحث عن سبب فوجدته في الأشجار المقطوعة. غيرك وجده في أشياء أخرى!

ـ دعنا يا صاحبي من هذا كله... فلم أعد أطيق.

ـ كما تشاء، أنت الذي تتحدث، انت الذي يحلم، الانسان يملك حياة خاصة لا يجبره احد ان يعطيها، أن يبوح بها، فإن كنت لا تريد أن تتحدث، فأنا أحترم صمتك، مثلما أحترم كل شيء فعلته!

ـ ليس عندي أسرار خطيرة أخاف ان أبوح بها، ولكن هذه الطيبة أتعبتني، إنَّها رمز مستمر لكراهيتي لنفسي، لكل شيء؟

ـ والمدينة التي تعذبت فيها طويلاً؟

ـ المدينة مثل الطيبة!

ـ والمدن الأخرى؟

ـ كل المدن متشابهة، واحدة. ولكن يجب أن تعرف ان هذه

الدودة لا تنمو في المدن، إنَّها تنمو داخل الانسان، نعم في داخله تنمو حتى تصبح في وقت من الأوقات كل جسده، من شعر رأسه حتى أقدامه.

ـ إذن الانسان هو المصيبة! اللعنة!

ـ لا أعرف، ولا يهمني ان أعرف.

ـ لو تركنا الانسان للحظات، هل يمكن ان نتحدث عن الياس، كما لو كان انساناً آخر؟ الياس عندما عاد إلى الطيبة وبدأ يغرس الأشجار...

ـ أتصر على أن تعرف؟

ـ نعم اذا كان إصراري مجدياً!

14

كانت الطيبة، بالنسبة لي، قبر حنة. هذه الأرض التي لا تزيد على مترين بالطول ونصف متر بالعرض. كانت أرضاً قاسية نمت على جوانبها أشجار الشوك. لا تتصور أنَّني لا أحب الشوك، انا عكس كثير من الناس، أرى في الشوك عبقرية من عبقريات الطبيعة، وأنت لو تمعنت بهذه الأشجار لرأيتها أجمل بكثير من الأشجار والزهور التي يحبها الناس.

قلت لنفسي وأنا أرى أشجار الشوك: ان الطبيعة لا تنسى أحداً، حتى القبور التي لا يزورها انسان، تجد مَن يراها، مَن يمر عليها بيده.

انتزعت أشجار الشوك مثلما أنتزع شوكة من أصبعي، لكي لا أزعجها، وقلت لها: ستعودين أيَّتها الأشجار المقدسة التي تنبت على قبور الفقراء.

وخلال ثلاثة أيام بنيت لحنة قبراً أجمل من كل القبور. لم يكن كبيراً، ولم استعمل قطع الرخام. لا لم أفكّر بذلك ابداً. جلبت على بغل حملين من حجارة الجبل. من تلك الأحجار التي نمت عليها أغلب ليالي في تلك السنوات الأربع، وبدأت أعمل مساعداً للمعلم زكي. وخلال النهار انتهينا من البناء، وفي الفتحة الصغيرة، فوق القبر، التي ملأتها بتراب من بستاني القديم، أعدت غرس أشجار

الشوك، ثم وضعت شجرتين صغيرتين من أشجار السرو، وعند رجليها جلبت أحجاراً من تلك التي مات عندها سلطان وصنعت حوضاً صغيراً زرعت فيه برسيماً!

كما قلت لك، خلال ثلاثة أيام، أصبح في مقبرة الطيبة قبر لا يماثله قبر آخر. الحجارة بلون التراب، لكنها قوية متماسكة. ومكان الشواهد التي توضع عليها الصلبان، حفرت غابة من الأشجار، حاولت ان أجعلها تشبه أشجار اللوز والتفاح. وألقيت كمية من الماء على كل حجر، وكنت أقول في سري وأنا أحمل الحجارة للمعلم زكي: أيّتها الأحجار الصديقة، لم يعد لها في هذه الحياة أحد. مات صديقاها الوحيدان الياس وسلطان، فكوني بدلاً عنهما، كوني أكثر رحمة منهما!

وعدت إلى الطيبة وفي قلبي جرح كبير، كأنّي كنت لتوي أدفن حنة. كانت تبدو شاحبة وحزينة: عيناها نصف مغمضتين، وشفتاها يابستان. أمّا حبات العرق فما تزال رطبة حول رقبتها... هكذا كنت أراها وأنا عائد للطيبة. وفي تلك الليلة لم أنم. سكرت، شربت اكثر من أية مرة في حياتي.

وبدأت أزورها في الأيام التالية. كنت أحمل إليها الزهور، كانت زهوراً برية لم يزرعها انسان وانما الطبيعة تقذف بها سخية كل يوم. وأنثر الأوراق الخضراء في كل مكان: عند رأسها، عند قدميها، ولم أكن أنسى سلطان.

ولما شبعت من رائحتها التي تشبه رائحة الزعفران، التفت إلى البستان. وكما قلت لك لم يأتِ فصل الصيف حتى كانت أكثر الأشجار التي زرعتها قد اخضرت. كانت صغيرة، ولكن رأيتها تتشبث بالأرض، تمتد داخلها بحنان، وأنا أقف فوقها اسألها، وأعيرها بتلك الأشجار التي كانت لي في البستان القديم!

وذات يوم وجدت نفسي لا أملك قرشاً واحداً، لقد نفدت كل

النقود، والأشجار لا تزال صغيرة لا تطعم أحداً. فكّرت ان استدين. ذهبت إلى أكثر من واحد، ولكن لم يعطني سوى أولاد زيدان.

ان في الانسان شيئاً محيّراً. عندما قلت لمتري، ابن زيدان الكبير، يا متري، وأنا أطلب منك قرضاً، لا أريد أن أكسر نفسي لأحد. قل لي: أتعطيني أم أفتش عن غيرك؟ ابتسم وقال لي:

ـ ربما لا تدري، والدي وهو يموت قال: يا ليت انكم تصبحون مثل الياس، تحافظون على الأرض وتحمونها حتى لو متم من أجلها!

هكذا قال أبي، وحتى لو قال المرحوم شيئاً آخر، فإنَّ الحياة قصيرة لا تحتمل ان يقتل الإنسان أخاه الانسان، قل لي ماذا تريد من نقود، وتعال غداً لتأخذها!

لم أصدّق أذني، قلت لنفسي ما أزال في منام، ولكن في الغد كانت أوراق النقود تدفىء يدي وأنا أعدها، ورفض متري أن يكتب ايصالاً او يشهد احداً على الدين. قال لي وهو يشد على يدي: الناس للناس، اذا احتجت مرة أخرى فلا تذهب إلى أحد، تعال عندي، تجد ما تريد!

زرعت الى جانب الأشجار بعض الخضار. وفي الجانب الغربي، قريباً من أشجار الجوز زرعت برسيماً وعدساً، وخلال فترة لم تكن طويلة، استطعت أن أعيش من جديد على هذه المحاصيل. أمّا نقود متري فلم يرضَ ان يأخذها خلال السنة الأولى. قال لي: نحن الفلاحين نعرف متى نحتاج الفلوس!

دون أن أطيل عليك، عشت في الطيبة من جديد، صحيح ان روحي تغيّرت كثيراً، فلم تعد تستجيب للصخب ورفقة الناس، ولكن خلقت لنفسي حياة جديدة.

عند الغروب أزور قبر حنة، ثم أشتري أكلاً وعرقاً وأعود للغرفة التي استأجرتها عند قريبة عمتي.

ومرَّ الشتاء ومرَّ الصيف، وأنا أسد أذني عن كل ما أسمع، وأسد عيني عن كل ما أرى، قانعاً بهذه الحياة، أنظر للأشجار تكبر وتزداد خضرة في الصيف، ثم تصفرّ ويغادرها الورق اذا جاء الخريف. أزرع الخضار وبعض المحاصيل، حتى جاء يوم تغيّرت فيه حياتي من جديد.

أقول وأنا أقتلع العدس: يا الياس أنت لم تخلق مثل باقي الناس، لم تخلق للزوجة والبيت. اترك الفكرة تموت. وأجر بخشونة العروق التي بدأت تصفر، لكي اقتلع معها الفكرة التي تلح عليّ بالزواج.

ذات يوم أواخر الصيف، وأتذكر الآن كل شيء كما لو كنت أراه:

ذات يوم، كان الأحد، نعم الأحد، أتذكّر جيداً، حملت باقة من الزهور إلى قبر حنة، وعند الحوض الذي يحمل دم سلطان، عند قدمي حنة، جلست، ولا أعرف كيف ساقتني هواجسي لأقول لحنة كل شيء!

تردّدت أول الأمر. خفت. ولكن في لحظة قلت لها:

تعرفين يا حنة زوجك الياس. لم يكن زوجك فقط، كان خادمك، حارسك، عبدك، ولا تظنِّي انه لم يعد كذلك... لا تظنِّي. الياس يراك كل يوم، يزداد حبه لك، وأنت تشاركينه لقمة الخبز، كأس العرق، لكنه في الليل أصبح يخاف من نفسه.

وتوقفت لأنظر في عينيها لعلّي أرى شيئاً. ثم قلت فجأة:

ـ ماذا لو تزوجت من جديد يا حنة!

ندمت كثيراً عندما سألتها، ولكن لم أستطع ان اتراجع. وبعد صمت قصير وجدت نفسي أقول:

إذا تزوجت مرة أخرى، فأنت التي طلبت مني أن أتزوج. اذا

رفضت لن أفكّر بالأمر لحظة واحدة. وانتظرت أريد ان أسمع جوابها.

كان انتظاراً قاسياً، أقسى من السنين الأربع التي قضيتها في الجبل. ولكن شدّني من عيني، وبألم ممض لم أكن أتصور ان الانسان يتحمله، ضوء أزرق يشبه البرق خرج من القبر. ضربني على عيني أوّل الأمر، ثم ارتفع الى السماء. وفي أقل من دقيقة سمعت صوتها:

«يا الياس... كنت أحن انسان عليّ. كنت قوياً وشجاعاً، لماذا أنت الآن خائف؟».

لم أستطع أن أجيب. صمت.

وبنبرة حزينة، أقرب إلى الرجاء، سألتني:

«أما تزال تحبني يا الياس؟»

ودون أن أسمع كلماتها قلت:

حتى أنت يا حنة بدأت تنظرين إليّ هذه النظرة؟ هل أحب انسان مثلما أحببتك؟ هل يوجد انسان يتذكر انساناً مثلما أتذكرك؟

سمعت صوتها رقيقاً كأنّه الندى:

«ولكنك تعرف المحبين يا الياس... إنَّ الشيء الذي لا يملون من ترديده هو هذا السؤال: هل تحبني؟ أينا يحب أكثر؟ هل نسيت يا الياس ليلة الزلزال؟ كنت أحتمي بك وأنت تضمني وتقول: لا تخافي، لن يقع عليك حجر ما دام الياس حياً.. هُدمت كثير من البيوت، أمَّا بيتنا فقد وقف على ظهرك، كأنَّه الصخرة، وفي تلك الليلة قلت لي أحبك مائة مرة! أتذكر؟ والآن... لا تقول لي أحبك إلاَّ مرة او مرتين!».

بكيت وأنا أسمع صوتها. بكيت حتى أصبحت لا أسمع ولا أرى. ندمت كثيراً انِّي تغيّرت. أين حبي لها، هل بدأت أفكّر

بغيرها؟ قلت لنفسي وأنا أقوم: أحبك يا حنة. . . ولا أريد شيئاً.

ولكن ما كدت أستدير حتى رأيت نوراً أزرق مثل الشهاب ينزل في القبر. خفت. أردت ان أهرب. أن أصرخ. شل عقلي تلك اللحظة، حتى جاءني صوتها أقوى من كل المرات:

تزوج يا الياس. أنا التي أريدك أن تتزوج. تزوج منذ الغد، ولكن انسها ان جئت لزيارتي. لا تحدّثني عنها، لا تذكرها أمامي. تزوج، أريد أن أرى أطفالك. الطفل الأول لي. سمّه الياس. وليحضر معك كلما جئت لزيارتي!

الآن وأنا أتذكّر، أشتم نفسي. لو اني لم أزر قبرها ذلك اليوم، لما وقعت في الخطأ.

في ذات الليلة جاءني طيفها.

كانت تلبس أول ثوب قدمته لها. كان سلطان معي والعجوز تنظر إليّ وفي عينيها ذلك البريق الذي لا تراه إلاَّ في عيون الأمهات. قلت لها، أتذكّر للآن جيداً كل ما حصل: يا حنة هذا القماش يناسبك. لا أريد أن أقول لك كما أقول للنساء وأنا أبيعهن. الكلمة الوحيدة التي أقولها دون خجل: هذا القماش يناسبك. ومدّت يدها بصمت، دون أن تنظر إليّ وأخذته. وبعد أيام كانت تلبسه!

لم أر في حياتي ثوباً أجمل منه. قد توجد أثواب أغلى، أنعم، وقد يكون في بعضها وردات وفراشات، لكن مثل جماله لا يوجد ثوب أبداً!

لو أنَّها جاءت بثوب آخر لكان تأثيرها عليّ قليلاً، فأنا رجل عنيد قد احتمل وأصمت، ولكن انفجر في داخلي شيء فجأة، فلم أستطع مقاومته. كان من الممكن ان أقول لها:

يا حنة اغفري لي. لقد اخطأت عندما سألتك عن الزواج. ليس في الطيبة او في غيرها امرأة أعرفها وأريد أن أتزوجها، وإنَّما هي

خواطر يفكر فيها الانسان اذا كان وحيداً، وأنت تعرفين ان الانسان يفكّر كثيراً، ولكن ليس كل ما يفكر فيه يريده او يقدر عليه. ستغفرين لي يا حنة.

ولكن لم تترك لي لحظة واحدة لأقول. كانت تلبس ذلك الثوب وابتسامة خضراء تملأ وجهها، ودون أن تنتظر قالت:

«انت حبيبي يا الياس، أعرفك جيداً، ولن أنسى تلك الأيام التي عشناها. ولكن بدأت أخاف عليك الآن. أخاف عليك من نفسك. ولا يمكن أن ينقذك إلاّ ان تموت وتأتي إليّ، او ان تتزوج». وصمتت قليلاً ثم تابعت: «لا أريدك الآن أن تأتي... ولم يبق أمامك إلاّ ان تتزوج!».

لو تركتني لحظة واحدة اقول لها كلمة، لقلت: سوف آتي يا حنة. أريد أن أموت. ولكنها لم تتركني. وضعت أصبعها فوق شفتي، وأضاءت ابتسامتها وهي تقول:

«لن أغضب اذا تزوجت. أريدك ان تتزوج، واذا تأخرت عن الشتاء، وقريباً سيدق أبوابنا، فإنّي سأبكي حتى تغرق دموعي كل شيء! سوف أحزن يا الياس. ولكن تذكر... اذا جئت لزيارتي فلا تذكرها أمامي أبداً، ولا تنس ان يحضر معك الياس، ابني الذي انتظرته وما أزال أنتظره».

وبدأت حياتي تتعكر من جديد، ولكن حنة تعكرها هذه المرة، لأنَّ الطيف بدأ يزورني كل ليلة. كانت تأتي بنفس الثوب، تأتي مرة وحدها، وتأتي مرة ومعها سلطان. وتظل تردّد، دون انقطاع: تزوج... تزوج.

❀ ❀ ❀

ذهبت لزيارة عمَّتي بعد انقطاع دام أكثر من سنة. نزلت إلى سوق الطيبة. جلست في المقهى. زرت أولاد زيدان اكثر من مرة.

ذهبت الى حفلة غنى فيها النصراوي. أردت أن أنسى. حتى كانت تلك الليلة التي انتهى فيها الأمر:

قالت عمَّتي، وهي تقدّم لي زبيباً وجوزاً:

ـ الله يرحم والدك، كان يريد ان يزوجك قبل أن يموت، ليرى أولادك، والآن مرَّت على وفاة المرحوم سنوات طويلة، وأنت كما يقول أهل الطيبة: يد من أمام ويد من خلف. لا أحد ينتظرك ولا أحد يودعك، وبيتك فارغ كأنَّه جامع المسلمين!

ونظرت إليّ عمتي طويلاً وهي تفكّر، ثم تابعت:

ـ الناس يعرفون ان حنة أكثر حياة بالنسبة لك من كل أهل الطيبة. اذا أرادوك فعند قبرها، واذا سمعوك تغني فتلك الأغاني التي يردّدها الرعاة. واذا سألك احد عن أمر أدرت ظهرك ومشيت.

يا الياس، أنا عمتك. ليس في هذه الدنيا مَن يحن عليك ويحبك مثلي. وبعد وفاة امك وأبيك أصبحت اقرب الناس إليّ. ويجب ان تسمع كلمتي الآن.

قلت: ماذا تريدين يا عمتي؟

قالت: أن تتزوج.

كدت أسألها عن المرأة، ولكن تردّدت، قلت:

ـ قبل ان يأتي الشتاء، إمَّا ان أتزوّج أو أترك الطيبة!

قالت: بل تتزوج!

ولا أدري لماذا زرت النصراوي الكبير في بيته، تلك الليلة.

ان الحياة، يا صاحبي، لغز كبير، لا يفهمه الانسان. اذ لو لم أزر النصراوي الكبير لانتهى الأمر، ولكن في ذلك المساء ونحن نشرب القهوة وندخن، وكان معنا ثلاثة من أهل الطيبة جاؤوا إلى بيت النصراوي ليأخذوه إلى حفلة، في ذلك المساء، لا أدري كيف دار الحديث عن الزواج.

كنت أعرف هؤلاء الناس، فالطيبة صغيرة والناس فيها يعرفون بعضهم. . . وعندما جرى الحديث عن الزواج سخروا منِّي وقالوا:

ـ لم تعد صالحاً لشيء يا الياس، لو كنت عاقلاً لبحثت عن امرأة وعشت معها مثل باقي الناس!

قلت: ماذا أفعل؟ لقد كبرت ولم أعد صالحاً للزواج، وحتى لو أردت فمن أين لي أن أجد امرأة؟

وما كاد النصراوي يغيب لحظة صغيرة، حتى قال لي الذي يجلس بجانبي:

ـ أخت النصراوي هي المرأة الوحيدة التي تناسبك. إنَّها تنتظر زوجاً. . . ثم هي قريبتك.

15

بعد أيام كنت أزور عمَّتي. فرحت بي أكثر من كل مرة سابقة. قالت وهي تقدّم لي الشاي:

ـ لا يحن على العود إلاّ قشره... لقد ابتدأت يا ولدي الياس تعرف أهلك!

ودون أن تسألني عن الزواج، سألتها عن أخت النصراوي، قطبت حاجبيها وهي تحاول أن تتذكر ثم طبطبت على كتفي وابتسامة كبيرة تملأ وجهها. قالت:

ـ ذكرتني، الله يذكرك بالخير. بنت مناسبة، وأهلها لن يقولوا شيئاً. إذا أردت اترك لي الأمر وسينتهي على خير. وبعد ان صمتت قليلاً اضافت: صحيح ان البنت كبيرة في السن، وجمالها وسط، ولكن أنت لا تحتاج إلاّ لامرأة تلمك وتقعد انت وهي تحت سقف واحد.

وخلال فترة لا تزيد عن أسبوع زارت عمَّتي بيت النصراوي وجرى الحديث عن الزواج، ولكن الأمر لم يكن زواج الياس، لأنّه لم يبق أحد في الطيبة إلاّ ونهشني، انتزع قطعة من جلدي، حتى اولئك الذين لا أعرفهم!

والآن، وأنا أتذكّر لا أعرف كيف استطعت ان احتمل. قلت قبل قليل ان الحياة بطولة، خاصة اذا تذكّر الانسان المصاعب التي

واجهها واحتملها. قد لا تكون بطولة، ولكن الانسان قوي. تصوّر الناس... الذين لم يريدوا قطعة من لحم الياس، أخذوا قطعة من جلده، والذين لم يريدوا اللحم والجلد اكتفوا بأن سخروا وقالوا بصوت عال كلمات كبيرة، ولكن أشد ما آلمني النصراوي الصغير:

قال لي بلهجة حازمة، كأنَّه يخاطب طفلاً صغيراً:

- تكتب لها ما تملك!

قلت: لا أملك سوى هذه الأرض.

وبعد فترة صمت سألته:

- لماذا؟

قال: الدنيا حياة وموت، ونحن نريد ان نؤمن مستقبل أختنا.

قلت: ولكن اختك ستكون زوجتي، وما أملك سيكون لنا نحن الاثنين.

قال: ولكنك تسافر كثيراً، لا تستقر على أرض، ولا نريد ان نركض وراءك!

قلت: أنت ترى أنّي في الطيبة منذ سنين. أمَّا سفري فقد كان نتيجة ظروف أنت تعرفها!

قال: لماذا أنت خائف إن كتبت الأرض باسمها!

قلت: لا أخاف، ولكن لا أرى ضرورة لهذه الشروط!

قال: على خيرة الله، لم نرك ولم ترنا.

ولكن عمَّتي والنصراوي الكبير قالا أشياء أخرى، وتركت للنصراوي الكبير أن يقرّر ما يراه. فابتسم وقال: «الأمر لا يتعلق الآن بالأرض ولكن بالخوري سمعان».

سألته: وما علاقة الخوري سمعان؟

- قال:

ـ أنت برأيه ما تزال رجلاً متزوجاً، ولا يمكن ان يكللك مرة أخرى!

وفكّرت أن أترك الأمر نهائياً، ما دام معقداً لهذه الدرجة، ولكن في اليوم التالي جاءني النصراوي الكبير يبتسم وهو يشتم الخوري سمعان. قال:

ـ ماذا تنتظر من هؤلاء؟ انهم يحدثونك عن الرب. يقولون هذه الحياة ما هي إلاّ رحلة قصيرة، أمَّا ملكوت السماء... اما... اما... وفي النهاية يكونون هم وحدهم الذين يملكون الحياتين: الدنيا والآخرة، يملكون الضياع والدواب وحتى الناس، ويملكون الجنة أيضاً!

قلت: هذا الحديث اعرفه، ولكن ماذا يريد الخوري سمعان الآن؟

قال: الخوري سمعان لا تمتد يده إلى رأسك حتى ترضيه.

قلت: ماذا يريد؟

قال: قسماً من الأرض.

قلت: والنصراوي الصغير... ماذا يريد؟

قال: اترك هذا الحارس الصغير، المهم الآن أن يرضى ناطور الرب.

قلت: من أراد ان يكون مسيحياً صالحاً يجب أن يعطي الخوري ليكسب رضا الكنيسة والرب!

قال: بدأت تفهم. نعطي الخوري سمعان الجزء الشرقي من الأرض.

قلت: أوافق ان وافقت أنت!

قال: ادمة يجب ان تتزوج، ولن تجد زوجاً أفضل منك.

قلت: ليرض الخوري من أجل رضا السماء.

قال: اتفقنا.

لو اقتصر الأمر على القسم الشرقي من الأرض لهان الأمر، لأن الدرك قالوا: ان نسجل وفاة حنة ونسكت لا تقول شيئاً آخر، لا نقول انك تزوجت غيرها، ولكن لهذا ثمناً.

وكان من نتيجة ذلك، أن أخذ النصراوي الكبير من أخيه مبلغاً دفعناه للدرك، وأصبحت الأرض باسم ادمة ما عدا القسم الشرقي، فقد سجله الخوري باسم ابنه مطانيوس!

لو ان كل انسان يتزوج مثلما فعلت لما تزوج أحد! ولكن كما يقول مثل أهل الطيبة:

«رزق المهابيل على المجانين». فلو لم أكن مجنوناً لظلت ادمة دون زواج، وكانت الأرض ما تزال إلى الآن لي. أمَّا الخوري سمعان فإنَّه أضاف لثروته قيراطاً. صحيح انه لم يغتن من أرضي، ولكن كما قلت لك، مثلي كثيرون وهؤلاء هم المجانين الذين يعطون الخوري كل ما يريد!

كانت يد الخوري سمعان ثقيلة وهي تمر فوق رأسي، كانت مثل الرصاص ثقيلة وباردة، وأنت تعرف الصرامة التي تظهر على وجوه هؤلاء الناس، وهم يباركون الانسان وقت ان يتزوج، ووقت ان يموت، وكأنَّهم لم يأخذوا الأرض الشرقية، ولم تمتلىء جيوبهم بالنقود... انهم يقومون بعمل من أجل الرب.

وفي نفس اليوم الذي كلَّلني الخوري سمعان، ذهبت من الفجر إلى قبر حنة، جثوت، وبكيت وقلت لها: هذه مشيئتك يا حبيبتي. أنت التي أردت ان يتشرد الياس من جديد. لم تعد له ارض، ولم تعد له أشجار.

نعم لم تعد له أشجار، وحتى هذه الأشجار الصغيرة أخذوها مني، وربما قطعوها غداً. صمتت. لم تقل شيئاً، ولكني لاحظت أن

أشجار الشوك التي كانت فوق القبر اخضرت اكثر من قبل. وبدت جميلة اكثر من أي شيء. قلت لنفسي: ان الأزهار تتكلم، اذا رفضت حنة الكلام. اعتبرت الزهور وهي تداعب الريح الغربية، موافقة خضراء، ولكنها كانت موافقة مليئة بالعذاب.

وهكذا تزوجت!

16

انقضى على زواجي عشر سنين، جاءني خلالها خمسة أولاد، ولدان وثلاث بنات. سمّيت الولد الأول الياس، رغم احتجاج ادمة وتأنيبها وكانت تقول لي:

ـ انك تعرف ان أهل الطيبة لا يسمّون الولد باسم أبيه إلاَّ إذا توفي الوالد قبل ولادته، هل تريد أن تعتبر نفسك ميتاً؟

لم تدر ادمة انني ميت منذ زمن طويل. ولم تدر ان نداء حنة في تلك الليلة وهي تطلب مني أن أتزوج كان أعمق نداء سمعته في حياتي كلها. سخرت من كل كلماتها وأنا أصر على الاسم. اما الخوري سمعان فقد تردّد طويلاً وهو يسجله، كأنَّه أحس ان في الأمر شيئاً. ولكن الحاحي ونظراتي القاسية، والتي كانت تتهمه، لم تترك فرصة لأن يمتنع. صحيح انه تردّد. قال لي كلمات حلوة وهو يذكر لي أسماء البابوات والقديسين ويصر على ان اختار اسماً من بينهما، ولكنه لم يستطع ان يصمد أمام الحاحي!

ان ادمة امرأة مثل باقي النساء. نعم نحن أقرباء، نعرف بعضنا منذ سنوات الصغر، ولكن لم تكن معرفة وثيقة، وان كانت هي تعرف كل شيء عني. كان يمكن ان نتحدث طويلاً عن أيام الصغر، والغناء، وسرقة البساتين، ولكن لم أترك لها ان تتحدّث، ففي هذه الفترة لم أكن أحب ان أحدثها عن شيء، كما لا أحب ان أسمع

الأصوات حولي وأنا أفكر، وسرعان ما تغيرت ادمة. اذ لم يكد يأتي الولد الثاني، وكانت بنتا ماتت بعد شهرين من ولادتها، حتى تغيّرت تماماً.

أصبحت امرأة لا تعرف إلاَّ ما تريد. كانت تأكل كثيراً، وأنا أكره الأكل. وكانت تنام كثيراً، وأنا أكره النوم. وكانت تحب ان تنجب اطفالاً، وانا أعتبر ان هذا واجب ثقيل عليّ لدرجة لا أطيق أن أفكر فيه!

قلت لها ذات يوم:

ـ ألا تتعبين من الأكل يا ادمة؟

ردت عليّ بسخرية:

ـ ان كنت خائفاً على الأكل فالحق معك، اما اذا كنت خائفاً عليّ فأنا أعرف كيف أحافظ على نفسي!

ومرة أخرى قلت: أنت مثل أخيك النصراوي الصغير، وكنت أصر على ان أسميه هكذا، تحبين الكنيسة وتحبين يسوع المسيح، فلماذا لا تتبعين وصاياه؟

سألتني بدهشة: عن أي وصايا تتحدّث؟

قلت: لقد أطعم يسوع المسيح شعباً بكامله رغيفين وسمكة واحدة... هل نسيت؟ لقد أكلوا حتى شبعوا، أمَّا أنت فتأكلين كل يوم لا أعرف أي عدد من الأرغفة ولا تشبعين!

قالت: وأين السمكة؟

قلت: لو اشترينا سمكاً لأكلت وحدك عشراً، دون أن تشبعي!

قالت: عين الفقير دائماً ضيقة... أنت تعد لقماتي!

قلت: انسي ما قلت يا ادمة، فأنا أمزح.

قالت: والنوم هل يضايقك؟

قلت: حياة الانسان قصيرة لدرجة انك تقضين حياتك نائمة، ألاَ تريدين أن تعيشي؟

قالت: وهل أنت تعيش يا الياس؟ أنت في الليل تعد النجوم وتحلم، أمَّا في النهار فإنَّك تزور قبرها وتحرث الأرض، ولا تفعل شيئاً غير ذلك!

قلت: أنا راض بالحياة التي أعيشها!

قالت: وأنا راضية... هل تريد شيئاً آخر؟

قلت: والأطفال..؟ لماذا تريدين اطفالاً كثيرين؟

قالت: لقد جربت الاخوان والزوج فكان حظِّي معهم سيئاً، أريد الآن ان أجرّب حظي مع الأولاد!

قلت هل يختلف الحظ اذا كانوا عشرة أو أربعة؟

قالت: ليس لدينا شيء نفعله إلاَّ أن ننجب أولاداً. لست أنا وحدي أنجبتهم، لو لم تكن تريد لما جاؤوا!

ولم أجد كلمة أرد عليها، نامت تلك الليلة وهي تمضغ آخر لقماتها، وظللت وحدي اعد النجوم وأحلم!

وبهدوء اسطوري التفت بكليته إلى الوراء، انتزع المطرة وصب قدحاً شربه دفعة واحدة، وقد بانت على وجهه آثار التعب والهموم، ثم صبَّ قدحاً آخر وقدّمه إليَّ، وقال:

ـ هل تريد مني شيئاً آخر؟ هل بقي شيء آخر لم أقله؟ وهل بقي عندك شيء تسأله؟

قال ذلك بلهجة سخرية.

قلت: ما زلت أريد كل شيء. بعد ان استولى الخوري سمعان على القسم الشرقي من الأرض، وسجلت الباقي باسم زوجتك، كيف كانت حياتك؟

ـ أتمزح..؟

قال ذلك بسخرية لاذعة، ثم تغيّرت نبرة صوته، وهو يحدّق في عيني تماماً.

قال: اذا كان لا بدَّ من الأسئلة، فاسأل مثل الرجال! وصمت قليلاً، ثم تابع: كيف تريدني أن أعيش؟ كيف يمكن ان يعيش الانسان اذا لم يبقَ شيء يربطه بما حوله؟

ـ افترض انك ما تزال في الأرض، كما أصبحت لك زوجة تشدك إلى الحياة الواقعية!

قال وهو يضحك:

ـ وهي نائمة او وهي تأكل؟

ـ انت الذي يمزح الآن!

ـ لا فرق أينا يمزح، ولكن كيف تتصور حياة انسان يعيش في مثل وضعي؟

ـ حياتك تشابه حياة كثير من الناس، أغلب الناس يعيشون هكذا!

ـ ولكن أغلب الناس ليسوا مثل الياس. قد تقول اني انسان مغرور، أحب نفسي كثيراً، اذا لم تقل هذا فأنت تفكر فيه، ولكن كما قلت لك من قبل، لم يبق فيَّ من الانسان إلاَّ أقل الأشياء. نعم ظللت آكل وأنام وأنجب الأطفال. كنت أمارس هذا باستمرار، وربما كل يوم، اما الأشياء التي لا أشارك فيها الناس فهنا. . وهنا. ودق على رأسه وصدره، ثم أضاف: في هذا الرأس دودة تنخر باستمرار، لا تتوقف مثل ساعة الكنيسة. وفي هذا المكان، وأشار إلى صدره، حجر كبير مثل حجر الطاحون، يقوم وينام معي، لا يتركني لحظة واحدة!

ـ بماذا تفكر؟ وأي شيء يطحن هذا الحجر؟

ـ هذه المرة تمزح! اذا لم تكن تمزح فماذا كنا نتحدث من أوّل الليل؟

ـ لا أقصد انني جاهل لهذه الدرجة، ولكن أريد أن أسمع منك مباشرة.

ـ لقد سمعت كل شيء!

ـ ما زلت بحاجة لأكثر... يجب أن تحدّثني!

ـ عن أي شيء؟

ـ كيف عشت بعد الزواج؟ هل ظللت تحرث الأرض وتتحدّث للأشجار وترجوها ان تكبر وتثمر؟

ـ وماذا تريدني أن أفعل، وأنا لا أستطيع غير ذلك؟

توقف لحظة، ابتسم بحزن، ثم أضاف:

ـ إسمع... بعد ان عدت للطيبة اشتغلت أربع شغلات، عدا الشغلة التي أمارسها الآن؟

ـ أربع شغلات فقط؟

ـ عدت إلى السخرية مرة أخرى... أليس كذلك؟

ـ أنت سيىء الظن بالناس، لماذا تفترض اني أسخر منك؟

ـ لست غبياً. ألاحظ ذلك في عينيك، ومن طريقتك في السؤال.

ـ أنت مخطىء يا الياس!

ـ مثلما يحصل دائماً!

ـ اذا كنت لا تريدني ان أسأل فلن أسأل. الشيء الوحيد الذي أتمناه ان تحدّثني!

ـ بعد ان سرق الخوري سمعان نصف الأرض، وأخذ النصراوي نصفها الآخر، قلت لنفسي: لقد أصبحت يا الياس مثل الكديش، تكد طوال النهار من أجل الرغيف.

أنا أعرف ان جميع الناس يركضون من اجل الرغيف، ولكن فرقاً كبيراً بين الرغيف الذي تنتزعه من الشمس، والذي تأكله بمتعة، وبين الرغيف الذي يلقى اليك مثلما يلقى العلف للدابة. كانوا يأخذون المحصول كله ويرمون إليّ بالرغيف.

17

في هذه الفترة بدأت تراودني الأحلام المجنونة نفسها! بدأت أفكّر كثيراً وأحلم.

حلمت أنّي أعمل في الفرن. قلت لنفسي: سأكون فرَّاناً جيداً، أطعم الناس خبزاً معجوناً بأنفاس لا يهمها أن تربح. وقلت لنفسي ايضاً: ما دامت أدمة تنام من الغروب، فأي شيء يشدّني إلى البيت؟ في الفرن، حيث الدفء يشع من كل حجر، سأقضي وقتي: أُحضّر العجين والخبز، أتحدث مع الناس، وفي النهار سأنام. لن أزعج أدمة. سأتركها تأكل كما تشاء، ولكن لتتركني أنام وأحلم كما أشاء!

هكذا بدأت أفكّر. ذهبت عدة مرات لصالح الأعور، صاحب الفرن، قلت له ونحن نشرب الشاي مثل رجلين كبيرين تشغلهما شؤون الحياة ويفكران باتزان، قلت له:

ـ أتعرف يا معلم صالح ان أول فرن قام في الطيبة، قبل فرنك وقبل فرن الخوري سمعان، فرن الياس؟ لو نظرت إلى سطح دكان الحاج متعب، المجاور للجامع، لعرفت ان هذه الدكان كانت ذات يوم فرن الياس. لكن أهل الطيبة الآن يختلفون عن أهل الطيبة قبل خمسة عشر عاماً. أصبحوا الآن يأكلون خبز الأفران، أما قبل هذا الوقت فلم يأكلوه!

ويهز المعلم صالح رأسه دلالة الاقتناع والموافقة. واستمر، ونحن نرشف الشاي في عتمة المساء الأولى.

ـ ألا تريد أحداً يساعدك يا معلم صالح؟

وينظر إلي بارتياب، لا يعرف كيف يجيب. ويمتد بيننا الصمت، وأنا أريد ان أخرجه منه قبل ان تفلت الفرصة، أقول له:

ـ الانسان مهما كان قوياً لا يستطيع ان يعمل كل شيء بمفرده، إنَّه بحاجة إلى مساعدة الآخرين.

ويهز رأسه موافقاً ويقول:

ـ الناس خدم الناس. كل شخص يخدم الآخرين، والآخرون يخدمونه. ماذا تتصور لو ان الطيبة خالية من فرن؟ كان يجب على كل بيت ان يملك تنوراً، مثلما كان الأمر من قبل، وكل بيت يخبز. أمَّا الآن فقد تغيّر الأمر. أنا أخبز، أنت تزرع، الحاج متعب يبيع الخضراوات، المعلم زكي يبني البيوت، نحن بحاجة لبعضنا يا الياس.

وأقول له بسخرية:

ـ الخوري سمعان... ماذا يفعل يا معلم صالح؟

ويبتسم وهو يقول:

ـ أنت مسيحي وأدرى بواجباته!

قلت: أنا أجهل الناس بواجبات الخوري.

وشربنا الشاي على مهل. قلت لنفسي: هذه البداية، لأترك الأمر، وأعود إليه بعد فترة!

لا أطيل عليك، بعد شهرين من محاولات اتسمت بالحيلة والاغراء والرجاء، وافق المعلم صالح على أن أعمل عنده.

عندما عملت في الفرن، غضب النصراوي الصغير، غضب وعربد. قال عنّي إنِّي مجنون. وقال ان النصراوي الكبير أكثر جنوناً مني، وقبل ثلاثة أيام من عملي في الفرن جاء إليّ في الليل، وادمة تجلس بيننا. قال:

ـ أرأيت؟ ماذا لو لم تسجل الأرض باسم أدمة؟ لو تركناها لك لبعتها وشردت.

قلت: لم أعد أطيق الأرض، والأرض لا تطعم احداً بعد أن أصبحت صغيرة هكذا. فأنا أعلفها طوال العام حتى يأتي الموسم، وفي الموسم ترخص الثمار، لا تجد مَن ينقلها، وبعض الأحيان نتركها تذبل وتخرب، ولو لم يحصل هذا فأنتم تأخذون المال ولا تتركون لي شيئاً!

قال: نحن لا نأخذ شيئاً، نحن نطعمك ونطعم أولادك. من أين يأكل الأولاد؟

قلت: وأصحاب الأفران ألا يطعمون أولادهم؟

وقال وهو ينظر إليّ بسخرية:

ـ وهل أصبحت صاحب فرن؟ أنت صانع، تعمل يوماً ثم يقول لك صالح الأعور كش فتموت!

قلت: أفتش عن عمل آخر!

قال: والأرض؟

قلت: الأرض أصبحت لكم، أنتم والخوري سمعان. وقد سئمت ان أظل مثل حمار أعمى أدور وأدور طوال النهار!

قال بهدوء هذه المرة يريد ان يقنعني:

ـ كن عاقلاً يا الياس، لم تعد وحيداً الآن، أصبح لك زوجة وأولاد، يجب أن تفكر بحياتهم، بمستقبلهم!

قلت: كل ما أحصل عليه سأعطيه لادمة، وأنت دبر الأرض!

قال: منذ سنين قتلت الناس والحيوانات من أجل الأرض... والآن تتركها هكذا؟

قلت وقد نفد صبري:

ـ منذ الغد سأعمل في الفرن، أمَّا الأشجار فستنتظر حتى يأتي الصيف، ولكن منذ الآن أقول لك دبّر الأمر حتى لا تلومني اذا لم أرجع للأرض.

حاول معي كثيراً، ولكن لهيب النار الذي يتصاعد من الفرن، كان لهيباً من الشوق يتدفق من صدري ويناديني! وفي أقل من أسبوع أصبحت أضع وزرة زرقاء حول وسطي، وأترك قسماً كبيراً من صدري عارياً، وبحماس لا يعرف التعب أدخل العجين الى بيت النار وأخرجه أرغفة حمراء ناضجة، يمكن للانسان ان يأكلها دون غماس.

ـ وماذا فعل النصراوي بالأرض؟

ـ دعك من النصراوي، انه حيوان قذر، لا يفهم من الدنيا إلاَّ ان يجمع الأموال ويكدّسها فوق بعضها!

ـ والأرض؟

ـ عيّن لها ناطوراً، وظل يستثمرها سنتين او ثلاثاً، ثم باعها للخوري سمعان! ولكن الغريب انه لم يمض على عملي في الفرن ثلاثة أو أربعة شهور حتى جاء لأخته، جاء لزوجتي يقول لها:

ـ لم أكن أدري ان الفرن يعطي هذا الربح كله. هل انت متأكدة يا ادمة؟ أمتأكدة من اقوال الياس تماماً؟ الياس يكذب. الياس يجعل من الحبة قبة. الياس إذا أحب رفع إلى السماء، واذا كره أنزل النجوم إلى الأرض!

وتريه النقود التي حصلت عليها، يأخذها، يعدها، ثم يتركها في يده فترة طويلة وهو يفكر...

أتعرف ماذا قال قبل أن يترك بيتنا هذه المرة؟

ـ قال لها أعطني النقود لأحفظها لك.. أليس كذلك؟

ـ لا. وابتسم ابتسامة كبيرة، قال لها: ما رأيك يا أدمة لو بعنا الأرض وفتحنا فرناً، يبدو ان الفرن أحسن من الذهب!

لما عدت في اليوم التالي، رأيت أدمة تضحك وتغنج على غير

عادتها، وقد صنعت لي أكلاً شهياً. كنت متحسباً خائفاً وأنا أمد يدي إلى الطعام. كان صمت قاس يمتد بيننا، عندما سمعت صوتها تقول:

ـ كيف عملك في الفرن يا الياس؟

سألتها وأنا أنظر اليها بارتياب: لماذا تسألينني؟ ألم أعطك نقوداً كافية لأكلك؟

قالت: مرَّ حنا ليلة أمس، وحنّا هو اسم النصراوي الصغير، وقال انه يريد ان يفتح فرناً، ويريدك ان تعمل فيه، ما تقول؟

قلت: عند الخوري سمعان فرن، فلماذا لا يذهب اليه ويشترك معه؟

قالت: يريد أن يؤمن مستقبلك!

قلت: أنا راض في عملي ولا أريد عملاً آخر!

قالت: يقول ان الفرن أحسن من الذهب، أحسن من دجاجة تبيض ذهباً!

قلت: ما دام الأمر كذلك، ليذهب الى الخوري ويشترك معه. إنَّ الخوري سمعان والنصراوي يشتركان في أشياء كثيرة: الأرض، والفرن ورضا الرب!

قالت: لا تهزأ، لقد طلب مني ان أسألك، وإذا أردت ان نمر عليه فسوف يحدثك بنفسه!

قلت: لا أريد.

وانتهى الحديث. شعرت ان معدتي لم تعد تطيق الأكل الذي استقر فيها. قلت لنفسي: حتى الزوجات لا يطعمن رجالهن إلاّ اذا اردن شيئاً!

ـ وخيمت عليك السعادة وأنت تعمل في الفرن؟

ـ ظللت تسعة شهور كاملة أعمل في الفرن. نعمت بشتاء الفرن. كنت مثل ملك وأنا أقف وراء بيت النار. وجاء الربيع،

وبدأت الأشجار تغني في رأسي. تساءلت عشرات المرات عن الأشجار في فصل الربيع، مَن ينظر إلى البراعم عندما تتفتح؟ مَن سيقف في وجه الريح حتى لا تسقط الثمر؟ مَن سيحدث الأشجار الصغيرة لكي تقوى وتكبر؟

كنت أتحدث كثيراً وأنا أمام بيت النار، ولكني كنت حريصاً على خبز المعلم صالح، لم أتركه يحترق، ولم انتزعه قبل ان ينضج. ومرَّ الربيع وريح النار تلفح وجهي والخشب يحمل رائحة الأشجار في البستان الأول. وصبرت.

وفي الصيف اكتويت بالنار. اكتويت بذكريات العنب والتين. تصوّر يا صاحبي.. في أيام آب يظلل الندى الشجر. كان بستاننا في ساعات الفجر الأولى، ونحن نقطف التين والعنب، يزخر برائحة لا يمكن أن تجدها في أي مكان آخر من هذا العالم. إنَّها رائحة خاصة، ليست رائحة الأشجار وليست رائحة الندى، إنَّها شيء لا أعرف كيف أسميه!

كنت أتذكر أشجار الفاكهة التي تحتاج إلى ركائز، وأتساءل: هل سيصنع لها الناطور اخشاباً قوية تحملها؟ هل سيضع اصابعه بنعومة على الفاكهة الطرية ويجسها قبل ان يقطفها؟ تساءلت كثيراً، ولكن لم أترك خبز المعلم صالح يحترق!

حتى كان يوم جاءني المعلم صالح غاضباً يقول:

ـ قريبك، حنا النصراوي، يحلب الطير، ألم يجد عملاً سوى أن يفتح فرناً؟

قلت: لم أكن أريده ان يفعل ذلك، وقد عرض عليّ أن يفتح لي فرناً، ولكن قلت له انني والمعلم صالح متفقان، ولا نريد فرناً ثالثاً في الطيبة!

قال كما لو يخاطب نفسه:

ـ لا تأمن إلاَّ لإبن دينك.

قلت: أنت مخطىء يا معلم صالح، أنا لم أخنك، ولو عرفت كيف قاومت فكرة النصراوي لاعتبرتني أكثر من أخ!

قال: سنرى على كل حال، ولكن منذ الآن أقول لك ان الطيبة لا تحتمل فرناً جديداً. وهذا الفرن سيكون شؤماً علينا كلنا، عليك، وعليّ وعلى النصراوي.

منذ ذلك الوقت شعرت ان المعلم صالح ينظر إليّ نظرة لم أرتح لها.

قال مرة، وهو يرى رغيفاً محروقاً:

ـ ها... يا الياس بدأتم؟

سألته: عن أي شيء تتحدث؟

أمسك الرغيف المحروق، رفعه أمام وجهي وقال:

ـ أليس حراماً؟ ألا تخاف من الله؟ أم هكذا علمك النصراوي؟

قلت وأنا أكاد أنفجر من الغيظ: قل لي يا معلم صالح: كم رغيفاً حرقت في حياتك؟

قال: ولكنك لم تحرق من قبل، ما الذي تغيّر الآن؟

قلت: صدفة. كان ممكناً ان أترك الرغيف يحترق كله دون ان تراه، كان سهلاً ان ألقيه على الحطب... ولكن...

قال: الخير بالآتي.

وصمتنا نحن الاثنين، لم نتكلم كلمة واحدة. شعرت ان الحياة تحاصرني من جديد، وكأن عداء بيني وبين هذا العالم، عداء لا يكاد يهدأ لحظة واحدة حتى يثور أقوى وأشد!

قلت لنفسي: تذكّر يا الياس كل شيء: المقهى، اوراق اليانصيب، الغنم التي رعيتها، كيف انتهت؟ هل تريد الآن أن يكون حظك في الفرن أحسن من حظك في تلك الأعمال؟

تحملت الكثير. قلت يجب أن أصبر. الرغيف الآن لم يعد لي

وحدي. أصبحت ادمة تطالبني بالخبز، والصغار يطلبون، يجب أن أحتمل كلمات المعلم صالح، ويجب ان ابتعد عن النصراوي لكي لا أقع بين حجري الرحى!

عدت ذات يوم غاضباً. أيقظت ادمة، وقلت: ما بال النصراوي لا يريد إلاَّ قتلي؟

فركت عينيها ولاكت شيئاً في حلقها، ثم نظرت إليّ باستغراب وقالت:

ـ وحق يسوع المسيح أنت تكره كل الناس. اترك حنا يفعل ما يريد، لماذا لا تذهب اليه إن كنت رجلاً؟

قلت: يا ادمة ان النصراوي يقطع رزقي. لم نعد أنا والمعلم صالح على وفاق. بدأ ينظر إليّ نظرة لا تعجبني. يقول تحرق الخبز، تعد الغلة. يقول انت تتآمر عليّ. أحلف له بالعذراء والقرآن، ولكنه لا يصدق.

ارتحت قليلاً وانا أفكر، ثم سألتها:

ـ ماذا يريد النصراوي مني؟

قالت، وهي تتثاءب:

ـ نم الآن... وسوف نتحدث في الصباح.

وأصبح الفرن جحيماً. أصبحت الأرغفة تعجن بالسأم، وأصبحت نظرات المعلم صالح ثقيلة متهمة. وحرت في أمري، ماذا أفعل، كيف أستطيع ان اقنع المعلم؟ كيف أتصرف معه؟ وكيف أتصرف مع النصراوي؟

كان فرن النصراوي يستعد للعمل خلال أيام، لما قررت ان أترك صالح الأعور وفرنه، وفكّرت في ذلك الوقت أن أهرب نهائياً من الطيبة.

18

صادف ان ترك الصانع الذي يعمل في نزل السعادة في نفس الوقت الذي تركت الفرن، وبدأ صاحب النزل يفتش عن صانع آخر. تقدم ثلاثة، ولكن لم يختر غيري. قال لي: أنت درت في هذه الدنيا وتعرف ما يحتاجه الغرباء... وأنت، فوق ذلك، تفك الحرف. لا أريد مشاكل يا الياس. اريدك دائماً وراء الطاولة، فإذا كنت أميناً ونشيطاً فلن أجعلك إلاّ راضياً.

بعد أيام كنت أبدو انساناً نظيفاً، وأنا أجلس بوقار وراء الطاولة في نزل السعادة. مَن يراني لا يظن لحظة واحدة اني كنت فرَّاناً قبل أيام. ومَن يتمعن في وجهي يظن أكثر انني انسان يفيض قلبه بالرضا. مَن يعرفني من أهل الطيبة يقول: رجل تعيس لا يعرف ان يستقر لحظة واحدة. ربما غضب عليه الإلّه، وربما كان مغضوب الوالدين، وقد زادت تعاسته لما فقد زوجته. وقد يقولون: متزوج وله أولاد، ولكنه لا يزال يعيش حتى هذه اللحظة مع زوجة ماتت قبل عشرين سنة!

لا أحد في هذه الدنيا يعرف الياس! وحتى الياس لا يعرف نفسه. ان فيه شيئاً غامضاً يستعصي على الفهم.

ـ ولكنك يا الياس، كما تبدو لي، مثل باقي الناس. هل تظن ان الحياة تضحك لأحد حتى النهاية؟ مَن في حياته لم يصادف

العذاب والبطالة والكراهية؟ مَن مِن الناس ظلَّ شبعان طوال حياته؟ لا أريد أن أواسيك، أنت لا تريد مؤاساة من أحد، ولكن حالك مثل حال الكثيرين، حال الذين يموتون قبل أن يصل الطبيب، والذين يتركون أطفالهم يموتون لأنَّهم لا يملكون ما يطعمونهم. أغلب الناس يا الياس لهم أحزانهم وهمومهم!

ـ عرفت الكثير... الكثير، وما زلت حتى الآن أتعلم وأرى. لكن الشيء الذي أحسّه في داخلي لا يجعلني ارتاح لحظة واحدة.

ـ لا تظن الهدوء الذي تراه في الوجوه يدل على الرضا، لكل انسان شيء في داخله يهزه ويعذبه.

ـ صدّقني انني لا أعرف. حاولت ان أفتح صدري وانظر الى الداخل لعلِّي أرى ذلك الشيء، ولكن ذهبت الساعات الطويلة التي فكّرت خلالها دون نتيجة! كنت كلما أوغل في التفكير أزداد حيرة!

ـ أنت تتعب نفسك أكثر من الآخرين.

ـ يمكن أن تقول أي شيء! وكما قلت لك الذي لا يعرفني لا يعرف ماذا يقول عنِّي.

ـ وفي نزل السعادة... هل كنت مرتاحاً يا الياس؟ وهل عملت فترة طويلة؟

ـ مثل كل مرة، أوهم نفسي بالراحة. أضغط على هذا الصدر لئلا يتمزق. أقول لنفسي إمسك الأرض يا الياس. كن عاقلاً. لم تعد فرداً واحداً كما كنت من قبل. يجب أن تفكر بالآخرين وتترك نفسك.

وأستجيب. أجلس وراء الطاولة، راسماً على شفتي ابتسامة. وما يكاد يرن جرس حتى أهرع مثل كلب، احمل الماء، وأشتري السجائر. أصنع القهوة وأسلي الناس الغرباء الذين يأتون للطيبة ليزوروا الآثار، وكما ترى فإنِّي أعرف الآثار، أو أراها على وجوه الغرباء أكثر من غيري من الناس!

والناس يمرون من أمامي، لا يتوقفون إلاَّ ليلة او ليلتين. ما

أكاد آنس الى غريب حتى يمضي. ويتكرّر المشهد كل يوم: أحمل حقائب الذين يصلون. أحمل حقائب الذين يسافرون. أقول للذي يأتي هذه غرفتك يا سيدي. أحمل الماء، وأسأل ببلاهة: أتأمر شيئاً آخر يا سيدي!

وكان بعضهم يمسك يدي ويضع فيها شيئاً ويغلقها. كان بعضهم بلهجة باردة، ودون أن ينظر إليّ يقول شكراً. كان بعضهم لا تكاد تغلق الباب وتقول له تصبح على خير حتى يرن لك الجرس فتهرول، يقول لك: أريد أن أستيقظ في الخامسة. أتفهم، في الخامسة. وأهز رأسي.

كان بعضهم يحب ان يسهر خارج النزل، عند صديق في الطيبة، او يسافر حولها ويعود في ساعة متأخرة، وأنت يا الياس مطلوب منك ان تظل مبتسماً، يجب أن تبتسم دون توقف. أن تجيب عن كل الأسئلة بأدب. ان تؤدّي الخدمات في مواعيدها. يريدون ان يسافروا مبكرين، فيجب ان تستيقظ قبلهم. يريدون ان يأتوا متأخرين يجب ان تنام بعدهم!

لم أعد انساناً سوياً في النزل. كنت أنظر لنفسي في المرآة فأرى ابتسامة بلهاء تملأ وجهي، رغم اني كنت أحس برغبة لا تقاوم للنوم، وان أظل وحيداً، دون أن أكلم انساناً. طبيعي انني لا أريد شيئاً من أحد، ولكن كيف يتركني الناس؟

ـ وزوجتك، وحنة، ألم يعد لهم وقت عندك؟

ـ أصعب شيء، ألا يملك الانسان نفسه. كان عندي وقت طويل أقضيه وراء الطاولة، أو في البيت. ولكن هذا الوقت يخرج عن نطاق الزمن. أذهب إلى البيت عندما تكون أدمة نائمة وقد أخرج وهي نائمة! وفي الساعات الطويلة وراء الطاولة لم أفكّر إلاَّ بحنة.

وكنت أفكّر بالأشجار والسفر وحياة الناس، وهؤلاء الغرباء الذين يأتون ليلة ثم يمضون!

كان صعباً قضاء تلك الساعات الطويلة لو لم تكن حنة موجودة. كنت أفكّر فيها دائماً، أراها أمامي، نتحدث معاً، نهرول معاً إذا سمعنا جرساً أو نداء. وعندما تراني متعباً وأنا أحمل الحقائب تساعدني، وقد تستغرب إذا قلت لك انني كنت أحس يدها القوية وهي ترفع معي الحقائب، وتحس بالأسف اذا فارقنا وجه أنيس.

ماذا يستطيع الانسان ان يفعل اذا لم تشغله مثل هذه القضايا؟ تأكّد لو لم تكن حنة موجودة لضربت رأسي بالجدران ومت. والصغار ايضاً كنت أفكّر بهم، ماذا يجب أن يأكلوا؟ ما يجب أن يلبسوا؟ ولكن تبقى حنة ترفرف فوقي دائماً. وقد كنت أريد حياة كبيرة الى جانبي، وكما قلت لك كانت أدمة تفضل الأكل والنوم على أي شيء آخر!

تغيّرت حياتي كثيراً وأنا أعمل في النزل. أصبحت عصبياً سريع الغضب، وكل جرس، حتى جرس الكنيسة، وخزة في جنبي، كأنّه يصرخ بي. وأصبح كل صوت ورائي نداء يدعوني لأن أحمل الحقيبة او احضر كأس ماء.

أصبحت أتوهم كثيراً. والابتسامات التي كنت ارسمها على وجهي في النزل تحولت إلى صرخات معتوهة في وجه أدمة والأطفال، وكأنّي أنتقم منهم.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد ساءت صحتي أيضاً. أنت تعرف أن الانسان لا يمكن ان يتحوّل إلى آلة. إنَّ هذا شيء مستحيل. فعندما أستيقظ على رنين الجرس، لا يمكن أن أعود للنوم مرة أخرى. فإذا هجرني النوم يجب أن أسهر من جديد، أن أشرب القهوة، وقد أشرب قليلاً من العرق.

وإذا لم يوقظك الجرس وأنت نائم، فيجب ان تستيقظ في الرابعة من أجل ان توقظ هذا المسافر، وهذا معناه ألاّ أنام ابداً. تظل تلهو طوال ساعات حتى تحين الخامسة، قد تنام في تلك اللحظة،

بالذات، وتفتعل ألف عذر من أجل تبرير هذه السهوة الصغيرة، ودون ان تشير بكلمة واحدة إلى أنَّك لم تنم طوال ساعات!

نعم تغيّرت تماماً وأنا في النزل، لاحظت ذلك أدمة والنصراوي الكبير. حتى عمَّتي عندما ذهبت يوماً لزيارتها قالت لي وهي تفتح عيونها باستغراب:

ـ ما صنعت بك الأيام يا الياس؟ قلت لنفسي إذا تزوج سوف يرتاح ويعود شاباً. . ما حصل لك؟

وأقول لها وأنا أصطنع ابتسامة:

ـ لقد كبرت يا عمتي. هل تظنين اني ما زلت شاباً؟

وتقول: لكنك تغيّرت كثيراً!

ـ الهم

فتسأل: وأي شيء يهمك يا الياس؟

وبابتسامة معتوهة أتحدث معها عن أشياء أخرى كي تنسى الياس.

وذات مرة قال لي النصراوي الكبير، ونحن نرشف كأس عرق:

ـ اترك النزل وتعال نعمل معاً.

قلت: ماذا أستطيع ان أعمل؟

قال: تساعدني في خلع الأسنان وتطهير الأولاد. . . وفي الليالي نحيي الحفلات!

ولكن ظللت في النزل، ولم أستمع لكلامه، حتى جاء يوم قلت لنفسي وأنا ألهث، وقد أحسست بقلبي يخفق مثل طائر ذبيح: امش يا الياس يجب ألاَّ تبقى يوماً واحداً!

وهذا ما صنعته تماماً، قلت بأدب لصاحب النزل انني قرّرت ان

أبدأ عملاً جديداً. لم يتردد كثيراً، ودَّعني وابتسامة تطفح على وجهه، وهو يقول:

ـ الحياة كلها تعب يا الياس، ولا تظن ان العمل في النزل أصعب من أعمال أخرى. سوف تجرب وتترحم على أيام نزل السعادة!

ولكنني غادرت النزل وقد صممت ألاَّ أندم؟

ـ وهل ندمت؟

ـ على أي شيء تريدني أن أندم؟

ـ لا بدَّ ان العمل الذي وجدته بعد ذلك كان أفضل من النزل!

ـ لا يهم كثيراً، الشيء الوحيد الذي شعرت به وأنا أُغادر النزل أنَّني أصبحت حراً. صحيح ان على الانسان ان يعمل ولكن من حقه ان يعيش. وفي النزل رغم ان جداراً من المجاملات كان بيني وبين الناس، لكني لم أشعر بالمودة. لقد بدا لي كل شيء مؤقتاً، حتى حياة الناس، وحتى الأشجار!

ـ ألم تعد للأرض مرة أخرى؟

19

في هذه الفترة حصلت القطيعة بين النصراوي الصغير وأخته. قال لها أوّل الأمر انه يشركها بالفرن، ويعتبر الأرض مقابلاً لهذه الشراكة. لكن ما كاد الفرن يمشي ويدر ارباحاً حتى بدأ يتحدث من جديد مع ادمة عن الأرض. قال لها:

ـ ماذا تريدين ان نفعل بأرضكم يا أختي؟ ألا تقنعي الياس بأن يعود اليها؟

فتقول: ولكنك يا حنا أخذت الأرض وقلت ان للأولاد ثلث الفرن!

ويردّد بصوت زجاجي ميت:

ـ أنت تعرفين يا ادمة انني لا أحسن العمل بالأرض، والأرض تحتاج إلى رجل فوقها، وليس إلاَّ الياس.

وتسأله ببلاهة: والفرن؟

فيقول: الفرن يا ادمة يوماً يربح ويوماً يخسر. والنساء لا يحسنَّ العمل بالتجارة.

وتسأله: كيف يخسر يا حنا وأهل الطيبة لا يتوقفون يوماً واحداً عن أكل الخبز؟

وبنفس الصوت المحايد القاسي يجيب:

ـ لو لم أكن فوقه لخسر من زمن طويل، وأغلقته مثلما فعل الياس... ألا تذكرين فرن الياس القديم؟

ظلَّ الأمر معلقاً، رغم القطيعة. قال النصراوي الكبير: اتركوا الأمر لي، واتركوه للأيام فإنَّها تحل جميع المشاكل.

ـ وأنت ماذا عملت بعد ان تركت النزل؟

ـ ظللت عاطلاً عن العمل فترة طويلة، أصابني خلالها الخدر، لم أعد قادراً ان أسأل احداً عن عمل. جاءني النصراوي الكبير وألح عليّ ان نعمل معاً، ولكن لم أشأ.

حتى كان يوم جاء متري لزيارتي، نعم متري بن زيدان، ولم تمض ساعة حتى كنا قد اتفقنا. قال:

ـ تذهب في مشاوير صغيرة. كل اسبوع مشوار، تشتري العلف والسماد من المدينة، تأخذ معك الرعاة ليوصلوا الغنم، وأنت تسلمها لأصحاب الخانات. أشغال من هذا النوع يمكن أن تقوم بها. ولا نتركك إلاَّ راضياً. العمل الذي يناسبك اعمله، والذي لا يناسبك اتركه. وهكذا أصبحت أعمل عند متري، لم أكن أعرف اسم العمل الذي أعمله، لم يكن له اسم، ولكني بدأت أحس بالراحة والشيخوخة معاً. وبقيت أسافر وأعود، والحياة رخية أكثر من أي وقت، حتى ان ادمة بدأت تنظر إليّ نظرة مختلفة عن السابق، خاصة بعد ان اختلفت مع النصراوي، لم تعد تأكل كثيراً، وظلت تسهر تنتظرني وتقلق اذا سافرت وتأخرت!

ـ لماذا لم تبق عند متري؟ أراك الآن تعمل بالتجارة ولحسابك الخاص!

ـ أنت مثل الياس، الدودة تنخر في قلبك، لا تكف لحظة عن السؤال.

ـ أريد أن أعرف الكثير عن هذه الرحلة التي ابتدأتها يوماً ولم تنتبه.

ـ سأقول لك كل شيء، ولكن هذه السرعة التي أراها في عينيك ستتعبك!

ـ وأنت ألم تتعب؟

ـ لم أتعب؟ ماذا تظن؟ انا لا ازال قوياً. وحتى لو قبضوا عليّ الآن، وصادروا كل شيء، فسوف أبدأ منذ الغد بالبحث عن عمل.

ـ أهم شيء في هذه الحياة ان يبقى الانسان قوياً، ان يقاوم، ان يرفض التسليم!

ـ نعم أن يرفض التسليم، قد يكون الآخرون أقوى منه، ولكنهم لن يستطيعوا ارغامه على التسليم.

هذا ما أقوله لنفسي دائماً، ولكن هل يقدر الانسان أن يرفض التسليم دائماً؟

ـ أتعرف؟ الانسان أقوى المخلوقات على هذه الأرض، وأضعفها ايضاً. الحيوان له قدرة على المقاومة ولكنه في النهاية يسلِّم؛ الحشرة الصغيرة تقاوم ولكن في لحظة معينة تتوقف؛ أما الانسان، هذا المخلوق العجيب الذي يحمل تحت جلده كل شيء، فإنَّه يستطيع ان يكون ضعيفاً، ويستطيع ان يكون قوياً بلا حدود، ان هذا يتوقف على الانسان نفسه!

ـ وأنت اين حدود قوتك؟

ـ لقد هدتني الأيام، كما ترى. تعبت، ولكني لم أسلم حتى الآن على الأقل. قد يأتي يوم اضطر للتسليم، لا أدري!

ـ لنعد اليك... ماذا بعد متري؟

ـ ولكني لم أحدثك عن متري نفسه!

ـ تحدّث كما تريد.

ـ عملت عنده فترة طويلة، وهذه الفترة الوحيدة التي بدأت اشعر خلالها ان حياة الانسان ليست عبثاً كلها، ان فيها شيئاً غريباً يصعب فهمه. لا أعرف هذا الشيء، ولكني أحسه، ومهما حاول الانسان ان يخفيه فإنَّه لا يستطيع دائماً.

ظللت أعمل عنده حتى قرّر ذات يوم ان ينتقل إلى المدينة. وقد طلب اليّ بالحاح لا يوازيه الحاح الأب على أبنائه، ان أنتقل معه، لكنني رفضت. قال تعال معنا ولن تعمل شيئاً، رفضت. قال تبقى في الطيبة ونفتح لك فرناً أو مزرعة.

ولكنّني لن أكون قوياً لأبدأ عملاً من هذا النوع.

وأخيراً ترك لي مبلغاً من المال، وكلمات هي أكبر من الأرض كلها، قال وهو يغالب دمعة صغيرة كانت تموج في عينيه ويحاول اخفاءها:

ـ يا الياس كان دم الخراف التي قتلتها يوماً مثل الينبوع الذي يتفجر فجأة ولا يتوقف بعد ذلك! لقد ارتبطت معك منذ ذلك اليوم. لا أعرف لماذا، وحتى الآن لا أريد أن أعرف. اذا تركت للأيام ان تنوبك فإنَّ دم الخراف يتحوّل إلى بول. لتبق الدماء دماء حتى نموت، تعال في أي يوم وسوف ترى، واذا لم تشأ أن تأتي فابعث اليّ، سآتي.

وهذه النقود اقبلها فقد تعينك!

تركت النقود حيث وضعها، وما ان غادر البيت حتى ذهبت إلى النصراوي الكبير وقلت له: تذهب معي فوراً.

لما جاء أشرت إلى النقود، وقلت: وجدتها، لا تسأل أين. المهم ان تؤمن الصغار، اشترِ لهم فرناً، دكاناً، بيتاً، أي شيء، لا أريد ان أحمل ذنباً بعد اليوم ان هم جاعوا!

كانت ابتسامة النصراوي الصغير مثل زورق في مياه عاصفة عندما أكمل عد النقود، وسجّل لأخته نصف الفرن!

ومنذ ذلك الوقت تحرّرت من كل شيء... وكما تراني الآن أصبحت بائعاً متجولاً، مرة أخرى.

20

ـ هذه اذن نهاية الرحلة؟

ـ قد تكون النهاية، وقد تكون بداية رحلة أطول!

ـ وماذا عن الطيبة؟

ـ ما تزال في مكانها، كبرت، تغيّرت، قُطِعَت أشجارها مرة، ثم عادت لها الأشجار ناحية الشرق والشمال. جفت آبارها ذات يوم، بعد ان زرع جميع الناس القطن، ثم عادوا وانتزعوا القطن من الشمال والشرق وغرسوا الأشجار.

والطيبة نفسها التي حاربت فرن الياس، وأغلقته، استقبلت فرن صالح الأعور، ثم فرن الخوري سمعان، وحتى النصراوي الصغير أصبح يملك فرناً فيها. أمّا نزل السعادة فما يزال في مكانه، وقام في الناحية الثانية، قرب الكنيسة الجديدة، نزل آخر سموه النزل الأخضر. أمّا النصراوي الكبير فقد مات. وأغرب شي كان موته.

ففي احدى الليالي كان يغني بصوت عميق حزين، ويقول الذين سمعوه انه لم يغن هكذا ابداً. وما كاد يتوقف ليأخذ مصة عرق، حتى أمال رأسه إلى الوراء، أمام جميع الناس، كأنَّه يريد ان ينتزع من داخله القوة ليواصل الغناء، ولكن طال انتظار الناس وطال صمت النصراوي، فلما اقتربوا منه وجدوه يعض على لسانه من الألم، وقد فارق الحياة!

أمَّا النصراوي الصغير فما زال حياً. وكذلك الخوري سمعان.

مات بعض الناس، ولكن الذين ولدوا أكثر من الذين ماتوا. وما تزال الطيبة تودع وتستقبل البشر كل يوم.

ـ وأنت.

ـ اترك الطيبة وأعود إليها، اتركها يوماً، اسبوعاً، شهراً، ولكني أعود في النهاية. دائماً أعود. لأنَّ في الطَيبة، رغم سنين الألم، أودعت حياتي، اودعت الأشجار وحنة والأولاد. وفي الطيبة أتمنى ان أموت.

كان الياس يتكلم بصوت متعب. وآثار الحزن تبدو على وجهه في كل لحظة كأنَّها أمواج في صعودها وهبوطها.

لما انتهى شَعَرَ بالراحة. نظر إليّ بعينين حانيتين، ثم هزَّ رأسه وقال:

ـ لقد انتهيت يا صاحبي. هل وجدت شيئاً مثيراً في هذه الحياة؟

وبانفعال عجول، ودون تفكير قلت:

ـ هذه هي الحياة التي كنت أتمنى أن أعيشها!

وبكلمات ساخرة رد:

ـ لو قدّر لي ان أعيش مرة أخرى لما رغبت في هذه الحياة التي عشتها!

ـ وأية حياة كنت تريد؟

ـ حياة أخرى. ليست هذه الحياة على أقل تعديل. كنت أريد حياة احسن منها.

ـ أنت مخطىء عندما تتمنى هذه الأمنية!

ـ الشيء الوحيد الذي أحسن عمله دائماً هو الخطأ، مثلما حصل في كل المرات.

ـ وماذا عن الغد يا الياس؟

ـ الغد ما يزال بعيداً، لماذا أفكّر به؟ أنا أعيش الآن، في هذا اليوم، ويجب عليّ ان انتهي منه قبل ان أُفكّر بغيره.

ـ ولكن على الانسان أن يفكر بالغد!

ـ على الياس ان يفكر بهذه الساعة. عليه ان يفكر كيف يستطيع ان ينقذ السترات. اذا انقذتها هذه المرة سأكون سعيداً، وبعد يومين، في قطار الأربعاء سأعود إلى الطيبة، وقد اشتريت لوزاً وعسلاً للأولاد، واشتريت لنفسي دخاناً. أمّا ادمة فلا أعرف ماذا اشتري لها!

ـ وستظل تعمل بهذا العمل؟

ـ هذا الشيء لا أعرفه... انه يتوقف على غيري!

كان الليل في نهايته. القطار يهدر في الظلام، ووجه الياس مشدود الى الزجاج يرى من خلاله الطريق الذي بدا أقل ظلمة، ويرى أشباح الناس يمرون في الدهليز.

عندما اقتربنا من الحدود عدل سترته. ركز الغصن الأخضر في العروة، ثم مص شفة من العرق وتلمظ وغاب في أفكاره.

وجاء رجال الجمارك. تطلعوا اليه بعيون الذئاب، وبعد لحظة قالوا له: تفضّل. لم يغب طويلاً، عاد وهو يشتم. التفت إليّ وقال:

ـ اعطني السترتين!

ـ لماذا؟

ـ لأن أولاد الحلال قاموا بالواجب!

ـ مَن هم أولاد الحلال؟

ـ كثيرون في هذه الدنيا؟

ـ ومتى قالوا؟

ـ قبل قليل رأيت اثنين يمران، وقد أشار أحدهما اليّ. شعرت ان خطراً يطوقني، لكني حاولت ان أتماسك!

ـ ألم تحمل لهم عرقاً وجوارب؟

ـ لقد تغيّر بعض الذين أعرفهم. جاء مكانهم أناس جدد، ويحتاج هؤلاء إلى وقت لكي نتفاهم!

في محطة الحدود، على الرصيف، رأيت الياس لآخر مرة.

كان يجلس على الأرض، وبقربه حقيبة مهترئة، فوقها سترات قديمة، ولا شيء غير ذلك.

وفجأة غاب الياس. اعتراني قلق غامض، ولكن على البعد أبصرت الحقيبة، فقلت لنفسي لحظة ويعود، وقد يسافر معنا.

وصفر القطار. ومن بعيد رأيته يركض نحوي. ظلَّ يركض حتى وقف أمام النافذة، وجاءني صوت من أعماق بعيدة، كان صوته مخنوقاً لاهثاً.

ـ لن ترفضها. . . انها تساعدك في هذه الرحلة الطويلة!

ومدَّ إليّ المطرة، وخيَّم علينا صمت ثقيل قاس لم أعرف كيف أتغلب عليه. ودون كلمات رددت المطرة. تطلع إليّ بحزن، وتساءلت عيناه، وفجأة. . . قلت:

ـ لن آخذها حتى تشرب. . . ونشرب هذه المرة في صحتك.

وشرب، ثم شربت. ونظرنا إلى البعيد خوف ان تلتقي نظراتنا. كان الصمت ثقيلاً، وددت لو أستطيع أن أدمر هذا الصمت.

ودون ارادة، ودون تفكير سألته:

ـ ما تقول الآن؟

ـ عن أي شيء؟

ـ كلمات يمكن ان تساعدني في رحلة الحياة.

ـ ليس عندي أية كلمات.

وبصوت لا يكاد يسمع قال يخاطب نفسه:

مَن أنا حتى أتكلّم؟ الياس الانسان المعذب بالأشجار والحب.

وصمت لحظة ثم قال: ورجال الجمارك... الآن!

ـ ماذا تظنهم سيفعلون يا الياس؟

ـ الأغلب انهم سيسمحون، ولكن بعد ان أدفع مقابلاً!

ـ سيتركوك تسافر معنا؟

ـ لا، لن يتركوني أسافر بهذا القطار.

ـ متى ستسافر اذن؟

ـ هم وحدهم الذين يقررون!

ـ ومتى موعد القطار الآخر؟

ـ ما زال في الدنيا وسائل سفر كثيرة: القطارات والسيارات... وصفر القطار، وبدأ يتحرك.

نظر إليّ يشجعني، وآخر شيء سمعته والقطار تزداد سرعته:

ـ اسمي الياس نخلة، تعال لزيارتي، واذا وجدت عملاً فاكتب إليّ!

القسم الثاني

1

... ألاَ يحق لمنصور عبد السلام أن يقول شيئاً؟

صحيح انه انسان عادي، ولكن أليس لدى كل انسان شيء يمكن أن يقوله؟

دعوه يتكلم. نعم دعوه لنرى في النهاية مَن يكون وأي شيء سيقول!

عينان حازمتان وشفاه مطبقة. هواء مليء بالغضب الحزين يخيم على الرجال الذين ينظرون اليه بحب ممزوج بالرهبة. لقد عودهم وجهه عندما يقسو ويصفر هكذا، ان امراً خطيراً يوشك ان يقع... وتخرج كلماته هادئة واضحة:

«ابتداء من هذه اللحظة سننزل تحت الأرض، وسنبقى هناك نعمل ونعمل حتى نحفر قبورهم!» ويقفز الرجال وقد تغيّرت ملامحهم، وامتلأوا فرحاً في لحظة، كانوا ينتظرون هذه الكلمات، وقد قالها منصور عبد السلام أخيراً!

«ولن يمضي وقت طويل حتى تعلق جثث الخونة في مداخل المدن، في الميادين، على أعمدة النور. وعند ذاك سوف يفرح الناس، سوف يرقصون نشوة وقد سيطر عليهم شعور الرضى العميق، وكلمة واحدة يردّدونها دون تعب: لقد وصلنا!».

قال منصور عبد السلام لالياس، وهما يتحاوران مثل رجلين تفيض نفسيهما بالخيبة:

ـ الحياة. . . مجرد الحياة، يا صاحبي، بطولة.

نعم الحياة بطولة، ولكن دون ضجة. بطولة صغيرة يمارسها الانسان يومياً من أجل ان يظل صادقاً وشريفاً. اما الأفكار التي حلم بها منصور عبد السلام سنوات وسنوات، وتمنى ان تتحقق في حياته فقد تحققت بالفعل، ولكن بشكلٍ آخر، والنتائج التي يراها الآن تجعله حزيناً الى درجة الجنون، لأنّه، في هذه الأرض التي يسمّيها وطنه، رأى أشياء لم يكن يتصور انها يمكن ان تقع. . .

لقد جاع منصور وتغرّب وتعب، وهو الآن يركض وراء لقمة الخبز. نعم وراء لقمة الخبز التي تحوّلت إلى شيء يشبه السراب، اما الذين توهم انه علق مشانقهم فما زالوا في أماكنهم، يتطلعون الى القمر وهم يتمطون بكسلٍ، يداعبون شعور النساء وعيونهم نصف مغمضة وقد امتلأوا خدراً من النعومة والويسكي! وفي النهار تفتح لهؤلاء أبواب السيارات، ويدققون الأرصدة مثل المرابين ليتأكدوا ان كل شيء يسير كما ينبغي!

هل نزل منصور عبد السلام تحت الأرض؟ هل تعب فوقها مثل الخلد الأعمى؟ لا يستطيع ان يتذكر، ولكنه متأكد ان ثورة لم تقع رغم الضجة الكبيرة التي يراها في كل شيء حوله.

ومنصور نفسه حاول ان يظل شريفاً. ربما لم ينجح، ولكنه حاول، ومن اجل ذلك يسافر الآن. نعم يسافر في قطار يتجه نحو الجنوب، ليصبح مترجماً في بعثة آثار تبحث عن ألواح الطين المفقودة والفخار!

نعم انه يسافر. ولكن هذا الحق البسيط المتاح في كل الدنيا، حُرِمَ منه ثلاث سنوات. حُرِمَ منه وحُرِمَ من غيره. كانوا يريدون ان يدفنوه وهو حي، بعد ان سرّح من العمل. قالوا لكل الذين فكّروا يوماً ان يساعدوه في عمل آخر:

«سوف يأتي دوركم، ولن تكون الأمور كما تتصورون،

فالقانون يساوي بين المجرم والشريك. وانتم الآن شركاء لمنصور عبد السلام عندما تفكرون ان تنقذوه من القدر الذي تريده له الدولة».

منصور يغادر الوطن اذن. يغادره من أجل ان يظل حياً وشريفاً!

ليس في حياته لحظات كبيرة، مثل تلك التي يتوهمها، بعض الأحيان، عندما يغمض عينيه ويحلم. وليس في حياته رحلة مواجهة القدر كما رآها في حياة الياس نخلة، ولكن ألا يحق له ان يتذكر الأشياء الصغيرة التي لا تزعج احداً؟

دعوه يتذكر ويهذي، فهو الآن على وشك ان يغادر كل شيء إلى تلك الحديقة المحاطة بأشجار السرو الحزينة، ليبقى وراء الأسلاك ينظر الى كل شيء بسخرية!

ألاَ يحق له ان يتذكر؟

صحيح ان ليس في حياته كلها شجرة من أشجار الياس نخلة! وفكرة التاريخ الجديد التي كان يحلم بها، تلاشت مثلما يتلاشى الحلم! والنساء اللواتي شغلن الياسِ وعذبنه، عذبنِ منصور عبد السلام ايضاً ولكن بشكل آخر. لقد فكّر بالمرأة طويلاً، وحلم بها. أحسَّ بالخيبة مثل سكين تنغرز في قلبه وانتظر. ولكن لا يعرف كيف بدأت الأمور. وكيف انتهت!

واذا اراد منصور ان يتكلم الآن فمَن يا ترى يستمع اليه؟

لم يجد في القطار كله انساناً يتحدث معه كي يروي له الأقاصيص بعد ان نزل الياس في محطة الحدود.

فكَّر ان يقرأ، ولكنه احس ان الكآبة التي تعيش في صدره منذ وقت طويل، نبعت مثل شيطان أزرق من الأوراق التي قلبها في حياته الماضية. لو ترك الكتاب، مثلما فعل الآخرون، لما كان الآن مسافراً باتجاه الجنوب، من أجل لقمة الخبز!

والطريق الى مواقع العمل طويل... طويل وكأن ليس له نهاية. ماذا يفعل لكي لا ينفجر رأسه؟

لو ترك نفسه يفكر كما يريد فإنَّ الجنون أقرب إليه من أي شيء... الأفضل ان يجمد عقله! بدأ يحدّث نفسه بصوت عال، يغني، يصرخ، يحاول أن ينام، فقط لا يريد ان يفكر!

ليحلم. نعم ليحلم، فإذا تعب من الأحلام يمكن ان يتذكر، وعليه ان يتذكر الأشياء بطريقة فذة. يجب أن يتذكرها وكأنَّها لا تعنيه أبداً، أو كأنَّها وقعت في عصور سحيقة!

منصور عبد السلام يريد ان يتكلم، يظن أن حياته زاخرة بالروعة، والقسوة معاً، وان لديه أشياء كثيرة يمكن ان يقولها، هكذا يتصور، ولا يعرف ان ما سيقوله هراء تافه. اتركوه!

لا يملك شجرة. لا يملك حماراً. وحتى شبراً من الأرض لا يملك. ولو امتلك هذا الشبر فإنَّه لا يريد ان يزرعه قطناً او أشجاراً، وإنَّما يريده ان يكون قبراً! اما السترات القديمة التي يمتلكها كل الناس، فإنَّه لا يعرف منها سوى ستراته الثلاث: واحدة معلقة على كتفيه، واثنتان ترتاحان في الحقيبة الخضراء التي بقيت له من أشياء كثيرة، كانت عنده ذات يوم!

منصور عبد السلام يريد ان يتكلم عن أشياء هامة، ولكن بعد ان سمع الياس نخلة اصابه الخوف. كاد يصرخ في وجهه، وسمعه مَن كان قريباً منه يقول:

«حياتي تافهة ومهملة، لدرجة لا تستحق ان أرويها لأحد!»

ولهذا السبب ضاعت أفكاره واضطربت. أصبح يهذي نتيجة تلك الحمى التي اصابته...

دعوه يتكلم، ليتأكد بنفسه ان ليس لديه شيء جدير بأن يقال...

أمَّا رأس اللفت الذي يحمله فوق كتفيه، الذي يغلي مثل مرجل، فسوف يقوده يوماً إلى المشنقة، واذا رحمه فسوف يقضيان

معاً ما تبقى من ايام في تلك الحديقة البعيدة المحاطة بالأسلاك وأشجار السرو!

وعليكم أيّها السادة ألاّ تصدقوا كل ما يقوله. نعم لا تصدقوا، لأنَّ الهلوسات تختلط بالوقائع الصغيرة، بالأحلام، واحياناً بالأكاذيب. ومن كل ذلك يتصور منصور عبد السلام حياته او يتوهمها. وقد يروي لكم أكاذيب، مجرد أكاذيب. . . فاحذروا!

2

كانت قامة الياس نخلة، الصغيرة الناحلة، تمتد وتستطيل وهي تبتعد حتى لتبدو مثل فجوة كبيرة سوداء في سماء ليس لها أي لون. أمَّا صوته، عندما يقول: «لا تنس الياس نخلة»، فقد تحوَّل في اذني الى طنين مخنوق اشبه ما يكون بصوت حيوان جريح.

وشيئاً فشيئاً يسرع القطار، يبتعد. القامة الناحلة تتراجع ببطء، أول الأمر، ثم بسرعة، وقبل ان تغيب نهائياً تلوح اليد بتعب، وتضمر الفجوة كأن تلالاً من الموج المجنون تغرقها، تلقيها الى جانب الحقيبة، لتصبح هي والحقيبة كومة واحدة، وكأنهما ولدا معاً منذ الأزل!

الياس نخلة. . .

رجل في الخمسين، تجاوز الخمسين، تجاوز المائة، ليس له عمر، لم يوجد ابداً، موجود منذ الأزل، يتلاشى كالغبار، يقف بصلابة الصخرة العظيمة في فم النهر. يبتسم بحزن. كاد يبكي وهو يقول:

ـ تعال إلى الطيبة. اذا جئت يوماً فاسأل عن الياس نخلة وسأريك كل شيء!

عندما أذهب سأرى الجبل والأشجار وقبر حنة. سأرى الأشجار التي غرسها، ومكان الأشجار التي قطعوها. قال لي بأسى:

ـ لا تنس ان تأتي. اذا وجدت لي عملاً فاكتب إليّ. عنواني الطيبة.

الطيبة بلدة صغيرة، والناس هناك يعرفون بعضهم.

أتذكر الياس نخلة. أتذكره تماماً. وهل يُنسى انسان مثله؟ يخطىء كثيراً اذا تصوّر نفسه مثل باقي الناس، يمر دون ان يهز هذا الشيء الذي يحتضر في قلوب المتعبين والمسنين، دون ان يخلف فزعاً يشبه صرخة مفاجئة في ظلمة القبور!

ماذا تراه يفعل الآن؟

ـ تعال يا سيد الياس.

ـ هذه المرة لن تكون مثل المرة السابقة. انت تعمل بهذه المصلحة منذ وقت طويل... أليس كذلك؟

ـ انا اعرفه يا جماعة... إنَّه رجل شهم؟

ـ انت تعرفه؟

ـ وأنا أعرفه.

انهم يعرفونه، ولا يعرفونه! الشيء الوحيد الذي لا يخطىء فيه أحد هو المال مثلما لا يخطىء الطفل ثدي أمه.

ـ رأيته قبل هذه المرة!

ـ بسيطة اذن!

لتدق عظامه، لينزف حتى يموت، كل انسان يموت بطريقته الخاصة.

ـ أين العرق... يا الياس؟

ـ لقد شربته في القطار، لم أنس. لكن الله بعث لي شخصاً، لا أعرف كيف جرَّني إلى حديث موجع، ومنه كأس ومني كأس، حتى شربنا العرق كله!

ـ مثل عادتك، عندك أعذار!

ـ اسمح لي هذه المرة. المرة القادمة اذا جئت، بدل الزجاجة زجاجتين!

ـ وماذا نشرب الآن؟

ـ طيب... والدواء؟

ـ لو قلت لك لن تصدقني، ولكن أقسم بالله، بالأشجار، بقبر حنة، بالحمار، ذهبت اكثر من مرة إلى الصيدلية وفي كل مرة يقولون لي بعد ساعة، ولما حان موعد القطار لم أستطع ان انتظر!

ـ طبيعي ذهبت آخر ساعة، لم تتذكر الدواء إلاَّ آخر ساعة!

ـ يا أخي في رأسي مائة مشكلة، ولكني لم أنس الدواء!

ـ عقل الانسان مثل الغربال، يتآكل يوماً، وفي وقت ما سيتحول الغربال الى طارة يدحرجها الأطفال الصغار!

ـ أين الدواء؟

ـ قلت لك ذهبت الى الصيدلية أكثر من مرة!

ـ المهم الدواء. إن شاء الله رحت مائة مرة... أين الدواء؟

ـ في المرة القادمة، اذا جئت ولم أحضره...

صيدلية الشفاء تفتح أبوابها ليل نهار. وصيدليات الخفر تفتح أبوابها في الظهيرة والليل. يقول لك بصوت محايد، وهو يركز النظارات فوق أنفه: «خض الدواء جيداً قبل الشرب». تدفع له، يعيد لك الباقي ويقول: «فيه العافية». وقبل أن تغيب الشمس يكون المريض قد أسلم الروح!

ـ والجوارب.

ـ هذه هي الجوارب، يا سيدي!

يأخذ رجل الجمارك الجوارب، يقلبها، ينظر الى الياس نظرة

تختلط فيها الفرحة بالشراسة:

ـ لكن أنا أوصيتك على ثلاثة أزواج، واحد منها أبيض!

ـ والله هذا الذي وجدته... تذكرته!

ـ هذه جوارب رخيصة، عادية، لا تساوي شيئاً!

«النساء في المسرح يلبسن الفرو أيام الصيف. ومن اجل جلد السمور يجب ان يتحول خط الاستواء الى قطب أسود. المهم الفرو الثمين يجب أن يرى!».

ـ يا أخي هذه أحسن نوع. أخوك الياس لا يلبس إلا منها!

ـ الياس لا يلبس إلاّ منها؟ تشرفنا! لكن أوصيتك على ماركة السبع.

ـ هذه أحسن، جرّبها وسوف ترى!

ـ أتركونا الآن من هذه الأحاديث، قل يا الياس، كم ستدفع؟

ـ الذي تأمر به يا سيدي!

ـ ماذا تربح من هذه التجارة؟

ـ رغيفين وكأس عرق؟

«يستعمل العرق دواء لألم الأسنان، للمغص، للنسيان، للشجاعة».

ـ أريد أن أفهم كم ستدفع؟

ـ الكوم بالنصف!

ـ كم؟

ـ الذي تأمر به!

ـ ما هو ربحك؟

ـ قلت لك: رغيفان وكأس عرق!

ـ كفى فلسفة. أريد أن أعرف، أريد أشياء محدّدة.

ـ مستعد ان أدفع ما تأمر به!

ـ ما رأيكم؟

«الأغلبية النسبية والأغلبية المطلقة من مقولات أثينا القديمة! وحتى الآن يخطىء فيها الناس! أمّا رجال الجمارك فإنّهم ديمقراطيون، وقد حاربوا من أجل أن تنتصر أثينا. . .»

ـ الياس نفسه طيبة، لا يقصّر!

ـ لكنه تغيّر، لم يعد مثل قبل، أصبح هذه الأيام حريصاً!

ـ أنا؟

ـ أنت. نعم أنت!

ـ الله يسامحك.

«نحمده ولا نشكره، هكذا يقول الكبار المجوفو الخدود خوفاً من الموت، ولكن الموت يقهقه مثل إبليس. ويقولون ان إبليس أدرد، وله سن أمامية من ذهب!».

ـ الله يسامحك أنت. . أتنكر؟

ـ لا أنكر، لكن تعال واحسب معي: أجرة الطريق. الأكل. المنامة. كم تساوي هذه الأشياء كلها؟

ـ هذه مصلحتك، وأنت تعرف بها!

ـ أتقبل أن أضع كل ما عندي، وتضع أنت ما عندك ثم نقسم الكوم بالنصف؟

ـ لا أريد أن أدخل في هذه المصلحة، المهم الآن كم ستدفع؟

ـ أتقبلون أن نضع كل ما عندنا ونقسم بالتساوي، لكل واحد كوم!

«مهمة الاشتراكية أن تساوي بين الريف والمدينة، بين العمل اليدوي والعمل الفكري، وسوف يأتي يوم، بالتأكيد سيأتي، يكون

فيه من كل إنسان حسب جهده، ولكل انسان حسب حاجته. . يجب أن تصدقوا».

ـ أنت مجنون.

ـ لماذا؟

ـ اتركنا الآن من هذه المزحة. كم ستدفع يا الياس؟

3

لما دخلوا تطلعوا إليّ بسخرية قاسية، كنت بنظرهم مشبوهاً متهماً، كنت مهرباً. أخذوا جواز السفر، قلّبوه. نظروا إليّ من رأسي حتى قدمي. سألني الأشقر الطويل!

ـ السفر سياحة أم عمل؟

ـ عمل.

ـ ما صنعتك؟

«ما هي صنعتي؟ هل أقول لهم عالم آثار؟ مترجم؟ لماذا لم أسأل نفسي هذا السؤال؟ ولكن مسجل بجواز السفر في خانة المهنة: موظف سابق. ماذا تعني موظف سابق؟ متقاعد؟ مسرَّح، لم تعد الكلمات تعني شيئاً، يجب أن يسألوا».

ـ مترجم!

«ما أقبح لغة المستشرقين وكتّاب المحاكم، إنَّهم يقولون أشياء كثيرة لا ضرورة لها!».

ـ مترجم؟

ـ نعم مع بعثة آثار.

ـ آثار؟ هل تحمل موافقة؟

ـ نعم.

«هل يعطون جواز سفر دون موافقة؟ ألاَ يدرون كم انتظرت حتى حصلت على هذه الموافقة اللعينة؟».

الأسئلة مثل اتهامات، لكن برودتها تجعلها محتملة، يجب أن أتماسك وأجيب، يجب أن أُجيبهم مثلما أجبت أبا باسل: قلت له: افعل الآن ما تستطيع. ورفعت جواز السفر في وجهه وهززته بتحد. ابتسم وردَّ عليّ: لكن الدنيا صغيرة يا منصور. . . وسوف نرى، ألاَ ترجع عندنا مرة أخرى؟».

ـ هل خدمت الجندية؟

ـ طبعاً. طبعاً خدمت!

«خدمت في الجحيم. قلت للمعلم ذات يوم وهو يسألنا عن المستقبل: أريد أن أصبح طياراً. ولكن بعد ان رأيت ذوي العمائم يصبحون قادة للجيوش ويجبرونها على ان تنهزم، قلت لنفسي. أنت ولد أبله».

«خدمت. غيري يدفع بدلاً، أمثالي يخدمون. الخدمة أو البدل. الأمر سيان. يمكن أن تخدم ويمكن ان تتاح لك فرصة لأن تفتدي نفسك. بدل ضريبة الدم، ضريبة المال! الأغنياء لا يحبون الجندية، يدفعون بدلاً! لكن الفقراء لا يُقبل بدلهم. وليس مَن يقرضهم!».

«كل شيء في هذا البلد مبني على معادلات دقيقة. آينشتين لم يمت. مَن يقول انه مات يُجلد مائة جلدة.

كل شيء يكون ولا يكون، في وقت واحد. الدم يساوي المال. المال يساوي الدم والصدفة والنساء والمجد!

. . . هل هذا القانون يسري في كل العالم؟

آه لو ان عقلي يعود إلى توازنه ليفهم المعادلات الدقيقة التي تسيطر على كل شيء في هذا البلد. ولكن لماذا؟ الدنيا الآن في

نهايتها، لا حاجة للعلم، لأي نوع من المعادلات. ما أحتاجه قنبلة ذرية فقط. القنابل الذرية مثل لعب الأطفال، توضع في الجيوب، على المكاتب، تستعمل قبل الأكل وبعده. لو امتلكت قنبلة ذرية لدمرت كل شيء، لعلَّ عالماً جديداً يولد، وحتى لو لم يولد أي عالم ماذا يهمني؟ المهم ان يدمر هذا العالم الكئيب المبني على معادلات الغش والخطأ والخسة. في هذا البلد لا شيء يستحق ان يدافع عنه. المعادلة ببساطة: اسرق، اكذب، ارتش، افعل كل شيء، ثم تأكّد ان الدنيا ستفتح لك ابوابها الكبيرة، لتدخل كرجل مهذب، محبوب، مسموع الكلمة، وقد تصبح شيئاً آخر، قد تصبح أكبر وأهم مما تتصور وما تطمع به!

هذا العالم بحاجة إلى نسف. لو امتلكت قنبلة ذرية لما تردّدت باستعمالها. لكن شكراً لله أنّي لا أملكها».

أهذِ يا منصور عبد السلام، لقد أصبحت كبيراً، وكبرت معك مطامحك. تريد الآن أن تمتلك قنابل ذرية.. أليس كذلك؟

- أتصرِّح بشيء للجمارك؟

«أصرِّح بأنّني غير موجود. لقد مت منذ زمن طويل، وقد اشترك ثلاثة بدفني!».

- ليس في الحقيبة سوى ملابسي الخاصة وبعض الكتب!

- أشياء جديدة: هدايا، غيرها؟

«الكتب عملة مزورة تروج لها الحكومات والتجار، لكن القضاة وحماة الفضيلة يخافون من الكتب، خاصة تلك التي تتحدث عن بدء الخليقة والمرأة والاشتراكية!

- هل تحمل حوالات؟ ذهباً؟

- أحمل مبلغاً بسيطاً حصلت على موافقة البنك بتحويله!

- ما هي الكتب التي تحملها؟

ـ كتب تاريخ وكتب عامة!

«سوف أختار عشرة كتب وأضعها فوق رأسي، وعندما يجفوني النوم أقلبها لأنام. أحد هذه الكتب مفكرة صغيرة مكتوب فيها أسماء الدائنين!»

ـ افتح الحقيبة من فضلك.

ـ حاضر.

«أجرّ الحقيبة، أفتحها، فيها مايو سباحة، صندل لونه بني. قمصان. يمد يده ويخرج قميصاً قذراً، لقد لففت هذا القميص جيداً ووضعته في اسفل الحقيبة. الناس يخفون قذارتهم بمهارة، ولكن يأتي أناس أكثر مهارة منهم لكي يستخرجوها!»

مقدمة ابن خلدون. فكر كارل ماركس. الجيل الخائب. لوركا دراسة عن حياته وشعره...

ـ ما اسم هذا الكتاب الأجنبي؟

ـ التنقيب عن الماضي!

«اسمع... أنت تشتري كتاباً ولا تشتري بصلاً. اما ان تشتريه أو تتركه، ما شاء الله يقلب الكتاب كأنَّه يقلب خروفاً». واشتريت الكتاب. حصل ذلك منذ وقت بعيد، ولكن حتى الآن أشعر بكآبة ليس لها حدود، عندما أتذكر المبلغ الذي دفعته.

ـ التنقيب عن الماضي؟

ـ نعم.

ـ كتاب غير ممنوع؟

ـ غير ممنوع!

«ممنوع التدخين وأكل البزر. وفي أماكن أخرى: ممنوع البول في هذا المكان. وفي أماكن أخرى: مَن يبوّل في هذا المكان حمار ابن حمار...»

ـ ما هو موضوعه؟

ـ عن الآثار والتاريخ!

التفت اليّ القصير ذو النظارات. وسألني بعصبية:

ـ ما هي الصنعة التي كنت تعمل فيها؟

«مرة أخرى ماذا أعمل؟ هل أقول حراث؟ بائع ملابس قديمة؟ ماذا لو قلت ماسح أحذية؟ ماذا نقرأ هذه الأيام يا شوكت؟

أتعرف يا استاذ ان كتاب بائعة الخبز من أجمل الكتب التي قرأتها! لن أعطي هذا الكتاب لأحد. لقد جلدته وأحتفظ به في مكان سري. وكذلك كتاب ذهب مع الريح والبؤساء. هذه الكتب الثلاثة... لن أعيرها!

شوكت ماسح أحذية يقرأ. يشتري كتباً. يجلّدها. لا يعيرها لأحد. هل من العيب أن أقول له اني ماسح أحذية؟»

ـ كنت استاذاً في الجامعة.

ـ كنت استاذاً في الجامعة؟

ـ نعم!

بعض الكلمات مثل المغناطيس. وكلمة أستاذ جامعة أقل هذه الكلمات جذباً. إنّها تجذب الوجوه الكامدة والخوف.

ـ أهلاً، أهلاً وسهلاً... أستاذ!

ـ أهلاً!

ـ أتذهب يا أستاذ بزيارة أم للعمل؟

«اذهب لأصلب في سهول مغبرة من أجل لقمة الخبز، بعد ان أصبحت عزيزة عليّ في الوطن. أتباع اليوغا يذهبون من أجل ان يجلسوا براحة على المسامير والأسياخ المحمية!».

ـ للعمل!

ـ عفواً أستاذ أنت تعرف واجباتنا، أريد ان أسألك هل تحمل أدوات كهربائية؟ آلة تصوير؟

ـ لا.

ـ أسلحة؟

ـ أسلحة؟

«قنابل ذرية. صواريخ. طائرات قاذفة ومقاتلة. وأحياناً أسلحة دفاعية».

ـ نعم أسلحة!

ـ لا.

ـ أتريد أن تصرّح بشيء للجمارك؟

«مرة أخرى أصرِّح بأنَّني غير موجود. ميت. غبت عن الوجود منذ فترة طويلة، بقصد أن أخرج على الناس بدعوة جديدة، ولكن أخطأت كثيراً لأنِّي لم أجد مغارة، ولم أجد شيئاً أقوله للناس!».

ـ لا شيء.

ـ شكراً أستاذ... سفرة موفقة!

ـ عفواً.. شكراً!

4

رجلان، واحد طويل له شامة على خدّه الأيسر، عيناه تبرقان بخبث. الآخر ممتلىء وبليد، وربما كان طيب القلب. كانا يأكلان شيئاً وهما يدخلان، قلت لنفسي: ركاب. لكن نظرات الطويل انصبت عليّ. جعلتني أخاف. كان ينظر إلى وجهي، إلى ملابسي، وفجأة التفت إلى الحقيبة ونظر إليّ باتهام!

ـ أعطني جواز سفرك!

ـ تفضّل.

أخضر كامد، أوراقه من الداخل خضراء فاتحة. أمَّا الأختام فسوداء مثل ليل المرعوبين! قلّب الجواز طويلاً. استبقاه في يده، وسأل:

ـ هل تعرف الشخص الذي كان يجلس هنا؟ هل أنتما معاً؟

ـ تعرّفت إليه في القطار. لم أكن أعرفه من قبل!

لماذا يسأل بهذه اللهجة الساخرة؟

ـ لا تعرفه؟

ـ أتعرف ما هو عمله؟

ـ قال لي انه بائع ملابس قديمة!

ـ هل أعطاك شيئاً، على سبيل الأمانة.. مثلاً؟

«تصوروا.. كم هم مؤدّبون رجال الجمارك! لا تنتهي الجملة

على ألسنتهم كما تنتهي على ألسنة رجال البوليس، يقولون «مثلاً»، الآخرون يقولون اخرس، ويضربون!».

ـ لا.

ـ عفواً نحن مراقبو جمارك، والشخص الذي كان في هذه العربة مهرّب. نريد ان نتأكد انه لم يعط الركاب شيئاً!

ـ لم يعطني شيئاً. بامكانكم أن تفتشوا!

ـ عفواً، لكن واجباتنا..

الآخر يسألني:

ـ ما هي المهنة؟

ـ استاذ جامعة!

«استاذ جامعة يركب الدرجة الثانية؟ الدرجة العاشرة؟ هذه قضية خاصة بي، لا أحد يستطيع ان يناقش. هل على أساتذة الجامعة ان يسافروا في الدرجة الأولى؟ هكذا يجب. أنا لا أريد، نعم لا أريد أو لا تستطيع يا منصور؟ سيان عندي. أستطيع أو لا أستطيع. ماذا لو كنت في الدرجة الأولى؟ هل أقابل مهربين؟ هل يسألونني بهذه الطريقة؟»

ـ آسف استاذ.. أرجو المعذرة!

«نعم يجب أن يعتذر، يجب أن يعتذر للصدفة التي جعلت منّي أستاذاً، وجعلت من غيري امبراطوراً! والصدفة نفسها هي التي جعلت ابا دنحو كنّاساً.. أمَّا ذوو الكروش فيجب أن تفك أحزمتهم قليلاً لكي يرتاحوا، وتقدّم لهم ماء بارداً...»

ـ عفواً استاذ!

ـ تفضّل.

ـ لا. لا شيء.. شكراً.

«تخليت إذن عن الياس نخلة. الياس مهرّب. وأنت لم تعرفه إلاَّ في القطار... أليس صحيحاً؟ قلت لنفسك انك تعرفه منذ آلاف

السنين. تعرفه تماماً، تعرف حياته منذ ميلاده حتى هذه الساعة! لماذا تتخلى عنه الآن؟ من أجل أي شيء تتخلى عنه؟ هل القضية سياسية وتريد ان تحتاط لكي لا تتورط؟ هل احتطت هكذا يا منصور في الأيام الماضية!»

«البقية في حياتكم. عظَّم الله أجركم. كان المرحوم مثالاً للأخلاق الرفيعة والعلم والنزاهة والتقوى ولكن الأعمار بيد الله. كلنا على هذا الطريق! لقد مات الياس نخلة وعشت انت!»

ـ شكراً.. شكراً..

«لماذا يتهاوى الانسان أمام الأخطار الصغيرة؟ أنت يا منصور تملك جواز سفر، يمكن ان تسافر بهدوء دون ان يضطرب قلبك، دون ان تحس لحظة واحدة بالخوف. والآن.. أمام أول سؤال تتنكر لكل شيء فكّرت فيه. ألاَ تستطيع ان تتماسك؟ ان تحافظ في داخلك على البذرة الخيّرة، كما تحب ان تسمِّيها؟ أنت تقول أشياء كثيرة، ولكن لا تصمد، لا تجسر على أي عمل!

الانسان أضعف المخلوقات، أكثرها تعاسة، أكثرها تحسباً للأخطار الصغيرة. عندما يهوى كأس، يرتجف، يسقط قلبه. عندما يصطدم بأحد المارة ينتابه احساس بالخجل، لا يعرف كيف يعتذر! هل هي عقدة الغابة؟ عقدة الخوف التي ورثها عن آبائه؟

لا تخف يا منصور افندي.

وأمسك المعلم بالثعبان من ذيله عندما كان يدخل الجحر، تشبث الثعبان، أرخى له المعلم قليلاً، ثم جرّه بعنف، لاحه في الهواء وضربه على الأرض، عندما مات كان العصفور لا يزال يرتجف في هذا الامتداد الطويل الأسود.

لا تخف يا استاذ منصور، يا استاذ الجامعة. سمِّ الأشياء بأسمائها، لا تخف، الرجلان اللذان كانا، مجرد رجلين يقومان بواجب.

لماذا يخاف الانسان؟ لماذا أصابك الخوف والتردُّد وأنت تجيب عن الأسئلة؟ لكي يسمحوا لك بالسفر؟ وهل يستطيع هؤلاء ان يمنعوك؟ المنع من هناك! هناك كانوا يستطيعون وقد فعلوا ذلك طويلاً. أمَّا هنا فإنَّهم لن يفعلوا شيئاً. موظفون صغار يؤدون التحية ويحترمون الوجوه بمقدار ما فيها من الصحة!

لماذا ترتجف يا منصور؟ أين ذلك الرجل الشجاع الذي كنته ذات يوم؟

وتهمس في سرك وأنت تبتسم: لا حاجة لأن يعرض الانسان نفسه للمتاعب. انا لا أعرف الياس نخلة، مجرد لقاء في القطار. هذا لا يعني شيئاً، انسان تلتقي به صدفة تتحدث معه، ثم ينتهي الأمر!

ألا تعرف الياس نخلة؟! هل تتصور انه سيزول ويتلاشى من ذاكرتك مثل الذين رأيتهم في المقهى دون ان تعرفهم؟ مثل الذين رأيتهم في جنازة؟

الياس صديقك، الشخص الذي يذكرك بالأشياء التي لا تجرؤ على أن تتذكرها، على أن تعترف بها! لا.. انك تنساه، تتبرأ منه، ومتى؟ عندما مرَّ اثنان وسألاك عنه. ما أتعسك!

والكومة الصغيرة التي كانت تتلاشى تدريجياً ما ان ابتعد القطار؟ الكومة نفسها التي تركت في نفسك اسى وصل درجة اللوعة.. حتى كدت تبكي وأنت تفارقه.. هل انتهى كل شيء؟

لم تعد تميّز يا منصور.

لو امتلكت قنبلة ذرية يجب ان تدمّر نفسك، انت الوحيد الذي يجب أن يُدمّر. أمَّا العالم، هذا الشيء الرائع المستمر، الذي يتعكّر يوماً ثم يعود إلى صفائه، هذا العالم يجب ألاَّ تمسه، ألاَّ تقترب منه.

لا أعرف الياس ابداً، لم أره من قبل، وحتى اسمه التقطته في اللحظات الأخيرة والقطار يسير!»

- ألم تكونا معاً؟

ـ أبداً التقينا صدفة!

ـ ولا تعرفه من قبل؟

ـ لا . . أبداً!

«لو لم يذكر اسمه لذهب مثل عشرات. كنت أرى الوجوه في كل مكان ولكن لا تكاد تتلاشى حتى ابدأ رحلة الغزو الداخلي. أتطلع إلى نفسي. أحلم. أغنِّي بصوت مجنون، أغنِّي دون صوت، أبكي، ثم لا شيء! كان يحمل طبق الحلاوة ويغني لنفسه، وبعد فترة صار يغنِّي للآخرين من أجل ان يبيع الحلاوة، ولم تمضِ سنة حتى أصبح يشتهي الحلاوة ويغنِّي من أجل ان يشتريها من الناس».

الوجوه الأخرى تتقلص، تتلاشى، تهرب، ولا يبقى إلا هذا الكابوس الدائم الذي سيرافقني حتى اللحظات الأخيرة من حياتي، الشيء الذي اسمه منصور عبد السلام!»

ـ أتحمل أسلحة؟

ـ أسلحة؟

ـ نعم أسلحة!

«إذا افتقر الانسان للسلاح فإنَّه يعادل ذبابة. أنت يا منصور ذبابة! ولكن الذبابة الحقيقية تملك سلاحاً. القط يملك المخالب، الكلب يملك النباح وبعض الأحيان السعار. والأفعى تملك السم، ولها قدرة على استعباد الانسان، تستطيع ان تحوّله إلى موسيقي يعزف لها دون تعب لكي يأمن شرّها! والانسان هذا المخلوق الذي يبدو بائساً دون مخالب. . . ألاَ يملك السم والسعار في داخله؟ ألاَ يعتبر لسانه مثل الآلة الموسيقية؟

الانسان أكبر عدو لهذه الحياة. لولاه لظلّت الحياة أكثر بساطة وجمالاً، ولكن منذ دخلتها الآلة الموسيقية امتلأت بالجبن والخسة والكذب، وأصبح حب الذات شعاراً، والتخلِّي عن الياس نخلة قاعدة!»

ـ لا تعرف الشخص الذي كان معك في هذه العربة؟

«ليسخر منِّي أكثر، يجب أن أموت بالأحذية، بأعقاب البنادق، بالبصاق، انا لا أستحق ذرة من شفقة او احترام، لم يكن يكفي ان يمنعوا عنِّي جواز السفر ثلاث سنين، لم يكن يكفي أن أسرح. كان من الواجب ان أعلق من قدمي. ان أصلب».

ـ لا أعرفه والسلام!

«أتعرف نفسك يا استاذ منصور؟ إلى أين أنت مسافر؟ ولماذا تسافر؟»

في الليل تبول على كل القيم المهترئة والحثالات، كما تسميها، وفي النهار تبتسم مثل طفل من أجل ان تحصل على جواز السفر والموافقة على العمل! أتعرف هذا كله ثم تشعر انك رجل تستطيع ان تتطلع في وجوه الرجال؟

أنت يا منصور رجل حالم ومريض، ولكن لن يطول حلمك، سوف يتهاوى ويسقط عليك مثلما يسقط قصر من الرمل على شاطىء البحر عندما تضربه موجة!»

ـ لا أعرفه.. مجرد لقاء في قطار!

«لقد تحطّم شيء في داخلك، تحوّل إلى رماد هش وحقير، ولا يمكن ان تتماسك وتعود رجلاً مثل باقي الرجال!

اترك الشجاعة، ألا تذكر الياس من أجل العرق الذي تشربه الآن؟

تقول بلهجة المأساة والفرح: لقد أصبح العرق رفيقي الوحيد في رحلة الحياة. الحياة كئيبة لدرجة لا يمكن ان تُعاش لولا العرق..

أصبحت فيلسوفاً اذن. فيلسوف يقدّم وصفات مجانية! ولكن أتذكر أول مرة شربت فيها؟»

5

... كانت المدينة تنام تحت وطأة الغروب، تنام مثل جريح نزفت دماؤه طوال النهار، ولم يبقَ إلاَّ ان ينزلق ويموت.

الصيف، تموز، الناس تتدفق منذ الفجر، الغروب يختزن النار ثم يقذفها إلى الخارج موتاً، انتظاراً، حلماً مستحيلاً!

الوجوه تتحوّل إلى قطع من المطاط اللزج، الأعصاب تصبح كخيوط قطنية سريعة العطب والاحتراق، وأنت يا منصور الانسان، الجثة، تفتش عن قبر!

كان القبر في ذلك الغروب ثلاثة كؤوس من البيرة، كان طعمها مراً. عندما شربتها تحوّل السائل إلى بخار، صعد البخار إلى رأسك، اجتاحتك رغبة تصل ذروة الشبق، شبق لا تعرف لأي شيء، للموت؟ للمضاجعة؟ للانزلاق في النهر؟ لا تعرف...

انفجر عواء في داخلك: الخمر ليست رديئة، ويمكن ان تكون طريقاً للنسيان!

ثم جاءت ليالي الشتاء، وفي وكر له ثلاثة شبابيك لا تكاد تلامس الأرض بدأ بخار العرق يلوب في رأسك، تحوّل إلى سحب داكنة تمطر بكاء واغنيات مجنونة، ثم أصبح أمنيات... وأخيراً أمنيات مستحيلة. وأصبحت تقول بزهو طاووس أعور: كل يوم، وحتى آخر أيام العمر، سأظل أشرب. لن أخاف شيئاً. لن أهتم بما

يقوله الآخرون: الدين، الصحة، المجتمع. لم تعد هذه القيم تعني شيئاً كثيراً بالنسبة لي. نسفت كل الجسور التي كانت تصلني بالعالم، بشاطىء السلامة، ولم يبقَ أمامي إلاَّ أن أشرب!

وتشرب وتشرب حتى يأتي يوم تفكّر ان تحطم رأسك وتموت مثل كلب. وفكّرت انك مت. تصوّرت ابتسامة ملتاعة على شفتين أحببتهما طويلاً، وبكيت من اجل ان تراهما!

الموت الشيء الوحيد الذي لم أمارسه. ولكن هل يموت الانسان منبوذاً مثل خرقة بالية؟ هل يموت ويترك الحثالات تعيش مثل الديوك الهندية المستثارة؟

أكاد أجن. ربما جننت فعلاً. بعد لحظات احمل على نقالة، وقد اختلطت بقع الدم المهروسة، بالشعر. وفي المستشفى اذا لقيت توصية، اذا انتبه احد، سوف أعود للحياة من جديد لأتعذّب. لأنتظر الفرصة التالية من أجل ان أنتحر! اما اذا تأخّرت البطاقة الصغيرة، فسوف أُترك حتى تنزف دمائي وأموت! ويقف الطلبة يستمعون إلى الاستاذ الأصلع وهو ينظر إليَّ ويقول: هذه الحالة نسمّيها النزيف الداخلي. لا يهم وجود علامات خارجية. خيط الدماء الصغير الذي ينساب من طرف الفم يدل على ان النزيف داخلي. لو تفجّرت الدماء إلى الخارج لكان ذلك أفضل. كان من الممكن انقاذه.

ـ خذ هذه المطرة، قد تساعدك في رحلتك الطويلة!

ـ لا... لا آخذها حتى تشرب، ونشرب هذه المرة في صحتك!

ـ في صحتي؟ ومَن أكون؟

ـ يجب ان تشرب.

وبهدوء حزين نشرب.

تحوّل العرق في يدي إلى سلاح للحزن، للفرح، للنسيان، للشجاعة، لكل الهموم والأوجاع. يقف في ساحة المدينة يصرخ،

ينادي، ينظر إليه الناس بفرح ممزوج بالدهشة، يبدأ باستعمال الدواء السحري الذي يشفي الصداع والأرق والامساك، والذي يفتح الشهية ويهدىء وجع الأسنان، جرّب.. جرّب.. دواء رخيص.. أرخص من الفجل. مفعوله سحري، يشفي كل الأمراض في دقيقة!

الناس ينظرون إليه بعيون بلهاء وهو يصرخ، هذا هو الدواء. تمتد إليه الأيدي، يد تشتري، يد تقلب الدواء. ولكن فجأة يحمل الحقيبة والكرسي الصغير الذي يقف عليه ويهرب. لقد لمح شرطياً يأتي من بعيد!

ـ لا أشرب.. اشرب أنت أولاً. وهذه المرة لالياس نخلة.

مَن أعطاك المطرة يا منصور؟ ولماذا نسيت الياس نخلة بهذه السرعة؟

ويضحك شيء في داخلك، شيء تمتزج فيه السخرية برغبة البكاء، تتمنى لو تنسى كل شيء. ولكن اسأل نفسك مرة ثانية، مَن أعطاك العرق؟ لا تخف، الياس نخلة يستطيع ان يدبّر نفسه مثلما فعل في كل المرات السابقة، وهذا الانسان لن يسلم. قد يسقط، ولكنه لا ينتهي. أمّا أنت فقد سقطت، والخطوة التالية ان ترفع عشرات الأعلام الصغيرة البيضاء!

قال القائد الايطالي لجنوده: قاتلوا ببسالة أيُّها الجنود. دافعوا عن الوطن الكبير الذي تبنيه ايطاليا وراء البحار. واذا هزمنا فإنّنا نملك سلاحاً لا يخيب، نملك سلاحاً سرياً ينقذنا، فلا تخافوا.

وينظر اليه الجنود بخوف ودهشة، ويسألونه:

«وما هو السلاح، أيُّها القائد العظيم؟»

ويبتسم القائد بثقة النبي ويقول:

«ـ نملك الأعلام البيضاء!»

سوف تستسلم يا منصور للراتب، للوظيفة، للعرق، وحتى للكلاب وأنت تقدم لها العظام، ستقول لها:

«أقدّم لك احترامي الشديد المقرون بالوفاء!»

الخوف الذي نما في داخلك، ذات يوم، لم يعد بذرة صغيرة، أصبح شبحاً يلاحقك في كل وقت، صرت الآن تتوهم. وتلتذ وأنت تقول للآخرين:

رأيت اليوم اثنين يرابطان عند البيت، كانا يتظاهران انهما ينظران إلى جهة ثانية، ولكن ما كدت أخرج حتى تبعاني، ظلاً ورائي أكثر من ثلاث ساعات، حاولت ان أضلّلهما. وفي النهاية ركبت الباص وأفلت منهما. ولما رجعت إلى البيت بعد العصر وجدتهما!

هل تخاف يا منصور؟ الأمر لا يتعدى حالتين: اما ان تخاف او لا تخاف، ولكن تقول لنفسك: ليس الأمر بسيطاً هكذا. في لحظات معينة يتداخل الخوف واللاخوف، فيتوالد من تداخلهما شيء جديد لا أعرفه، لا أستطيع ان أحدّده بدقة. انه شيء لم أره من قبل، وليس له اسم!

العرق إذن هو الحل!

كانت أمّي ونحن عائدون، بعد الغروب من بيت عمَّتي، تركض بنا مثل قطيع أدركه الذئب، كانت تريدنا ان نجتاز الدرج بسرعة. كان بيت صالح أبو جلدة وسط الدرج، ومن النوافذ المفتوحة تفوح رائحة العرق وضحكات السكارى. كانت أصوات الرجال تصل إلى آذاننا مثل الطلقات. ونركض، ستهجم علينا الذئاب، سيهجم الرجال. انهم يختبئون في الزوايا. في الأماكن المظلمة. سينفجرون الآن، وينقضّون علينا. وعندما تصل أيديهم إلى عيوننا لا نعود نرى شيئاً، وفجأة نحاول الصراخ فلا نستطيع. وخلال دقيقة تسيل دماؤنا ونموت، ونتحول إلى قطع صغيرة من اللحم والعظام المهروسة!

المدينة في تموز ثقيلة موجعة، تريد ان تنساها بشكل ما، لوقت ما، وثلاثة كؤوس من البيرة ومياه النهر تداعب الأرجل

العارية. كان مذاق البيرة مراً، ولكنه في لحظة امتص شيئاً في داخلي!

كانت تلك الليلة البداية، ومثل الأنهار الكبيرة تبدأ بقطرة، من مكان بعيد، ثم تتحوّل إلى جدول صغير، مجموعة جداول، وفي طريقها المنحدر تتزايد، تكبر، حتى تصبح شيئاً هائلاً لا يمكن ان يقف في وجهه أحد.

انتهى الأمر اذن. لم يعد يجدي ان تلوم نفسك وتتحسر على تلك اللحظات الضعيفة التي رأيتها بعينيك وأنت تجيب عن الأسئلة. كان من الضروري ان تتماسك وتجيب، دون شعور الخوف الذي دهمك.

قلت لنفسك مئات المرات: كن رجلاً يا منصور... لا تخف.

هكذا كنت وأنت صبي صغير، وأنت ما تزال تلبس البنطال القصير. آه لشد ما يتعذب الانسان وهو يتذكّر!

6

لا حاجة لأن أقول لكم كل شيء عن نفسي، فأنا شخص عادي لا أستحق اهتمام أحد. يوجد مثلي عدد لا يحصى من الناس. يشبهونني بملامح الوجه والثياب! ولكن ما أتميّز به عن أي انسان آخر، وما أدافع عنه بشراسة: عالمي الداخلي. . . وبعض الأحيان حريتي!

قد أكون تافهاً بنظركم، لا يهم، ولكن في داخلي صوتاً صغيراً أطرب له، وأحب أن أسمعه دائماً. وهذا الصوت يقول لي باستمرار: ارفض هذا العالم المجوسي التافه، لا تندمج به، وإن استطعت يجب ان تساهم بتغييره!

وإذا تجرأت قليلاً اعترف لكم بأنَّ بعض الناس يقولون انِّي غريب الأطوار، غامض، أمَّا تقارير الشرطة فتصفني بالخطورة. وذات مرة قالت امرأة عنِّي اني لعين! وابتسم وأنا أسمع هذه الأوصاف، فأنا مجرد انسان عادي، إنسان مضطهد، عاطل عن العمل منذ وقت طويل، لي هموم صغيرة، وأحلم أغلب الوقت.

أمَّا كيف واجهت الحياة، وكيف فشلت وامتلأ قلبي بالأسى، فإنَّ ذلك لم يحصل فجأة، وإنَّما تسرَّب إليّ على مهل، ومنذ وقت طويل. واذا نظرتم إليّ الآن تشهدون الفصل الأخير من حياة انسانٍ، اما كيف بدأت الدودة تنخر في قلبي ومتى فأتذكر ان خالي قال لأمِّي

ذات يوم وهما يجلسان في باحة دارنا، وكنت أتظاهر بإصلاح دراجتي في الفسحة الصغيرة بين المطبخ والمرحاض. . . قال لها:

ـ هل منصور دائم السكوت مثلما أراه الآن؟ لماذا لا يجيب عن أسئلتي؟

نظرت اليه وهزَّت رأسها عدة مرات، تعبّر عن لوعة، وقالت:

ـ لا يتكلم مثل باقي الأولاد، ولكن إذا أراد شيئاً لا يمكن لأحد أن يمنعه!

ـ وما هذه الجروح التي على خده؟

ـ الجروح في كل مكان في جسمه، على خده على يديه. وقبل أيام اكتشفت صدفة جرحاً عميقاً في ساقه. وأشارت بيدها إلى مكان مرتفع من الساق. وصمتت بحزن، ثم قالت: الشقاوة في دمه.

وبصوت أقرب إلى الهمس سمعت خالي يقول:

ـ يجب ألا تتركيه هكذا. اليوم شقاوة أولاد، لكن غداً عندما يكبر قد يصبح مجرماً ويدخل السجن. الشوارع تربِّي الأولاد على الرذيلة والسرقة والقتل والمقتول!

نظرت إليه أُمِّي بعينين باردتين، كأنَّها تعرف ما يقوله قبل ان تسمعه، ثم جاء صوتها وأنا أسترق السمع والنظر، لأعرف كيف أتصرف بعد أن يذهب خالي، قالت:

ـ وماذا أستطيع أن أفعل، وأنا حرمة!

ـ اتركيه لي؟ سأفتش له عن عمل. عند تاجر، في منجرة. . المهم أن يعمل!

وبتوسل تقول أُمِّي!

ـ أي عمل. . أي عمل، المهم ألاَّ يبقى في وجهي!

ووجد لي عملاً. وجد أكثر من عمل. وقبلت تلك الأعمال لأنِّي كنت أحس بشوق لاكتشاف العالم!

عملت عند تاجر، كان معلِّمي يقول لي: اكنس المحل أيُّها القزم، ثم رشه بالماء. فإذا انتهيت احمل أثواب القماش من المخزن ورتبها هنا. . على هذه الرفوف.

بعد ان أنتهي يقول لي معلمي بصوت قاس: احمل السلة الى البيت وارجع بسرعة أيُّها القزم، إذا لم ترجع بسرعة قصفت عمرك، وأحمل السلة وأرجع قبل أن ينتهي من أركيلته!

ذات يوم كنت أحمل السلة بيد وإناء الحليب باليد الأخرى، ولا أعرف كيف اصطدم الاناء بالجدار وانكسر. وعندما سألني معلمي كيف كسرته قلت له: انكسر. . . ولا أعرف كيف. صرخ بي، كان صراخه يشبه صراخ البقر. ولكني صمت. لم أقل كلمة واحدة. نظر إليّ بحقد، وكأنَّ صمتي جرحه، تقدّم نحوي وصفعني. سكت. ولكن عندما سمعته يقول للرجال: لولا انه يتيم لكسرت رأسه. . ثم ان خاله صديقنا وطلب منِّي ان أبقيه عندي لكي لا يضيع في الشوارع. عندما سمعته يتحدث للرجال هكذا، بكيت بصوت عال. نظر إليّ وابتسامة تملأ وجهه، وقال: كف عن المواء، واعطني ماء يا أجدب. ولا أعرف أي شيطان قفز إلى فمي تلك اللحظة، قلت له: قم واشرب بنفسك. لم يصدّق أذنيه، انفتحت عيناه على وسعهما من الدهشة. قام ليضربني، ولكني انزلقت مثل سمكة، وخرجت وأنا أصرخ بصوت عال: أنت كلب. أنت كلب وحمار. وهربت. . . ومنذ ذلك الوقت شعرت بكراهية اتجاه أشياء كثيرة.

وبعد أيام وجد لي خالي عملاً في مكتبة، وقد قال لي وهو يدفعني من كتفي:

ـ هذه المرة إذا لم تكن مؤدّباً ومطيعاً فسوف أكسر رأسك. أتسمع ما أقول؟

ولم أجب، ولم أنظر إليه، دخلت مثل أرنب مذعور أريد مكاناً أقف فيه. وبدأت أبيع الجرائد والمجلات. كنت أصرخ بصوت حاد

مثل قط لكي ينتبه الناس ويشتروا. وبدأت أنظر للذين يشترون بفرح غامض. كنت أحبهم. قلت في نفسي هؤلاء الناس لا يشبهون خالي ومعلمي ابداً!

ولكن صاحب المكتبة، وكان أحول العين، بدأ ينغص حياتي.

كان ينهرني وأنا أتصفّح المجلات، يقول لي بصوت عالٍ: يداك قذرتان أيُّها الفأر. ثم ان المجلات ليست لأمثالك. حزنت كثيراً ولكني صمت، لم أقل كلمة واحدة.

ذات يوم، اقترب منِّي الأحول وأنا أنظر إلى صورة امرأة وحصان، اقترب منِّي وأمسك بأذني وقال مثل أب: يجب أن تفتّش عن الخبز في المزابل... لا تفتّش عنه في الكتب. أنت فأر أجرب، أتسمع ما أقول لك؟ نظرت اليه، ولم أقل كلمة، ولكنه شدَّ أذني وسألني: ألم تسمع ما أقول لك؟

ولم أجب، شدَّ أذني حتى كدت أحس انه ينتزعها. صرخت. قال لي: وتصرخ أيُّها الفأر الأجرب. قلت له وعيناي في عينيه: أنت الفأر الأجرب. ، أنت لص يا أحول.

صرخ في وجهي: اخرج من هنا أيُّها الكلب السائب. وضربني بمنفضة السجائر. ركضت خارجاً وأمسكت بحجر وقذفته، ولكن الحجر ضاع بين الكتب، وبقي صوتي يدوي وأنا أبتعد:

- أيُّها الأحول سأحطم رأسك وأجعلك مثل كلب.

تركت المكتبة عند العصر. ذهبت إلى السوق. مررت أمام المكتبة الكبيرة التي كنت أجلب منها المجلات والجرائد كل يوم. تمنّيت أن أعمل فيها، ولكن في لحظة كرهت كل شيء. ولما رجعت إلى البيت قلت لأمي اذهبي وحاسبي المغربي. ومنذ الغد لن أعمل عنده! رفضت أن أشرح لها لماذا. قلت: لا أريد، وكفى!

بعد سنين قال خالي، وهو يقلب بين يديه كتاب النبي لجبران، وكان ابنه قد قطع الصور العارية:

ـ ألا تتركون هذه الكتب؟

نظر إليّ، كنت أقاوم في داخلي شيئاً يريد ان ينفجر. ولكنّي صمت. قال ابنه:

ـ المعلم أوصانا بمطالعة هذا الكتاب!

ـ هل صحيح ان المدرسة قالت لكم أن تشتروه؟

ودون أن أنظر اليه هززت رأسي.

ـ لماذا لا تجيب، ثم بعصبية صرخ في وجهي: تكلم، انطق، هل أنت أخرس؟

انتفضت ولم أجب. ودون ان أفكّر سحبت كتبي التي كانت على طرف الشباك وغادرت بيت خالي، وقد نويت ألاّ أعود اليه مرة ثانية.

أصبحت أتجنّب لقاء خالي. كان من عادته أن يمر على بيتنا كل يوم جمعة، عند الغروب، بعد ان يكون قد انتهى من جولة يتفقد خلالها الأبنية الجديدة ومزارع القثاء القريبة من بيتنا.

كان خالي يحب ان يقدّم نصائح كثيرة. يقدّم نصائح للبنائين، للفلاحين، ولأصحاب العمارات. ولكن كان يحب أكثر من ذلك أن يقدّم نفسه بصوت عال لا ارتجاج فيه لكل الذين لا يعرفهم، ودون أن يسألوه:

ـ الحاج رمضان السهلي، تاجر جملة.

في تلك الأيام لم أكن أعود إلى بيتنا قبل أن أتأكّد من أنه غادره.

ذات جمعة، وسط ظلمة خفيفة، وفي ذات الباحة الصغيرة، عندما دخلت وجدته، ارتبكت، تغيَّر لوني، شعرت بالندم.

كان خالي بادي الرضا على نفسه، وما كاد يراني حتى سألني:

ـ ماذا تقرأ هذه الأيام؟

وبصعوبة أجبت:

ـ الكتب المقررة علينا في المدرسة!

ودون أن ينتظر جوابي، سألني:

ـ أما زلت تكرهنا، أتريد أن تأخذ فلوسنا وتجعلنا فقراء شحّاذين؟

لم أستطع ان أجيب، فوجئت بالسؤال، وامتلأت بحقد مفاجىء، ولم أجد سوى سؤال صغير أتحصّن به دقيقة قبل أن أجيب.

ـ أنا..؟ أنا؟

ـ هكذا سمعت. يقولون انك أصبحت سياسياً. فوضوياً، لا أعرف! وصمت قليلاً وتابع يخاطب أمّي: أحمد حسين، زعيم الاشتراكيين في مصر يريد أن يأخذ أموال الأغنياء، ويجعل جميع الناس شحّاذين. إنَّه حاقد على كل واحد يملك قرشاً، والمسقوف يريدون هكذا ايضاً، بل ويريدون ان يجعلوا الدنيا إباحية، الولد يتزوج أمه، أخته، ليس عندهم دين، ليس عندهم حرام وحلال.

كنت أسمع الأشياء لأول مرة. السياسة التي يتحدّث عنها خالي تعني المظاهرة، إذن المظاهرة هي السياسة. وطلقت عالم الصغار، وبدأت دودة الرفض تنمو في داخلي، حتى أصبحت مثل ثعبان يلتف عليّ ويخنقني!

رفضت خالي وعالم المانيفاتورة والأفكار الكئيبة التي يحلو له أن يردّدها على مسامع أمي.. ومنذ ذلك الوقت تهت في العالم.

7

... عرفتم إذن أي شخص أكون، وتأكّدتم أنّي إنسان عادي تماماً، لا أحمل أية صفات خاصة. وإذا أردتم أن تعرفوا أكثر من ذلك أقول لكم:

تجاوزت الخامسة والثلاثين، غير متزوج، أحببت أكثر من مرة حباً جنونياً ما تزال آثاره تبدو في الحزن المرسوم على وجهي، في الذكريات المريرة التي تطوف برأسي، خاصة عندما أشرب، في الأحلام المرعبة التي لا تتركني ليلة واحدة. ليس مهماً هذا، ولكن إذا أردتم أكثر، أقول لكم اني أحب القراءة كثيراً، لدرجة ان الكتاب بالنسبة لي يعادل رجلاً، والكتاب الجيد يعادل أكثر من ذلك!

وحتى وقت قريب كنت أحتفظ بمكتبة صغيرة. كانت بعض الكتب تتمتع لدي بمزايا تفوق أي شيء في هذا الوجود. ولكني تأكّدت مؤخراً ان الكتب بلاء يجب أن يحاربه الانسان ويتخلّص منه. ومن اجل ذلك جعلت نفسي قدوة عندما أحرقت أغلب الكتب التي احتفظت بها سنوات طويلة. نعم، يجب أن تصدقوا، لقد أحرقت كثيراً من الكتب، أحرقتها بعد ان لاحظت ابتسامات ساخرة تطوف على وجه أنور، صاحب مكتبة الأمل، وأنا أشير إلى الأثمان الحقيقية التي اشتريت بها الكتب.

قلت له: ادفع لي نصف قيمتها.

ضحك بسخرية وقال:

- إذا كنت تريد أن تبيعها فانسَ القيمة المكتوبة عليها. أنا أشتريها هكذا.

قلت له: ولكنك لا تشتري بصلاً. وحرصت على أن أستعمل الكلمة التي سمعتها ذات يوم، وتركت في نفسي ذلك الأسى الموجع، والذي أحسه حتى الآن.

قال: أشتريها من أجلك. أنت تعرف انها لا تساوي شيئاً. كتب قديمة تبقى في المستودع حتى تأكلها الفئران.

قلت: لا أبيعها بأقل من نصف ثمنها. انظر إنَّها لا تزال جيدة!

نهض يريد أن ينصرف. استوقفته. وقد قرّرت ألاَّ أتنازل كثيراً. قلت:

- نصف الثمن المكتوب عليها... وعشرة بالمائة.

قال بسخرية:

- انقعها واشرب ماءها.

ولم أعد أرغب في شيء. قلت له والحقد الأسود يتطاير من عيني ومن فمي:

- لن تكون أحسن من ابن عمك، كلكم لصوص. والآن لو دفعت لي ثمنها ذهباً لن أبيعها لك!

وما كاد يخرج حتى جمعت أكثر الكتب وأحرقتها.

لم يبق منها إلاَّ عدد محدود، وهذه التي بقيت، حمتها الصدفة وحدها!

تمزّق الغلاف، ثم بدأت الصفحات الأولى والأخيرة تتلوى، وأخيراً تمزقت. اجمع الأوراق وأضعها تحت البساط، وفي الليل اقرأ «الأرض الخراب» وأنا أشد مروحة غرفة السجن!

كنا في السجن ثلاثون في غرفة لا تتسع لثلاثة. وكنا قد صنعنا

من بقايا أكياس الخيش مروحة ربطناها بحبل، وكنا نتناوب الحراسة، كل ساعة حارس، من أجل ان نتنفس، ومن أجل ان نفسح مكاناً لانسان ينام.

كان حارس الساعة يشد حبل المروحة، ويقرأ، أو يفكر. . .

كنت وأنا أشد الحبل اقرأ، وكان يصيبني بعض الأحيان غم لا أعرف كيف أقاومه. راودتني فكرة البكاء أكثر من مرة. عندما عجزت عن الاجابة عن ذلك السؤال الذي ظلَّ يتردّد دون انقطاع.

لماذا نحن موجودون هنا؟ هل فعلنا شيئاً نستحق من أجله ان نسجن؟ أفكارنا؟ ولكن مَن في هذه الدنيا لا يحمل أفكاراً؟ أفكار خطيرة؟ وهل على ظهر هذا الكوكب الذي يسمونه الأرض رجل لا يحمل في رأسه أفكاراً خطيرة؟ كل رجل حلم مئات المرات بأشياء خطيرة، صحيح ان الأحلام تختلف من واحد لآخر، ولكن أغلب الأحيان، وخاصة في تلك الغرفة الكئيبة الضيقة، كنت أحلم أن أضاجع ممثلات السينما، وتجرأت مرات وفكّرت بزوجات الأغنياء، وفي مرات أخرى ببنات الجامعة. . . وإذا لم تكونوا أنتم قد فكّرتم مثلي فلا شك أنكم تكذبون. لقد حلمت كثيراً، نعم حلمت، وما أزال أحلم!

لا يهمني ماذا ستقولون. فأنا قليل الاكتراث بما يقوله الناس عني. ولكن لأسباب أصبحت شديد الاقتناع بها، اختلفت مع هذا العالم، ولم يعد أي شيء يجمعنا. سموا ما أحلم به خطيراً، لا يهمني!

ولا يهمني ان أكون على وفاق مع أحد. افترقت عن كل ما حولي، وربما إلى الأبد. أصبحت أسير باتجاه سريع نحو المجهول، ولولا ذكريات ما تزال ندية تخض دمي لارتكبت حماقات كثيرة.

ما زلت أتذكرها. .

تضع جبهتها على الزجاج، تنظر نحو الأفق، نحو شيء ما،

بماذا تفكّر الآن؟ ما أجمل شعرها الأسود، إنَّه أسود تماماً، إنَّه يشبه الليل في ضوء القمر، يشبه الحنين، لشد ما يفتك بي هذا الشعر. انه زغردات عصافير العالم كله. وعيناها؟ إلى أي شيء تنظران الآن؟ لو كنت تلك الزاوية في البيت الذي يقابل نافذتها! لو كنت لوح الزجاج الذي ترتاح عليه بجبهتها! لو كنت لوح الزجاج لقلت للمقصلة انزلي، انزلي في هذه اللحظة واقطعي رأسي، ليبقَ آخر طيف أراه وأنا أموت، هو طيفها!

لقلت للرياح التي تهب من المحيطات البعيدة، اجمدي في مكانك أيّتها الرياح، زلزلي روحي، مزّقيها، لأمت في هذه اللحظة!

وأتيه في شوارع كل المدن، أفتش عن عيون مثل عيونها. . . فلا أجد! أبحث وأبحث ولكن لا أصل. عيون تختلط ألوانها بالندى، برذاذ الأمطار، بالتراب المبلول، بالشموس، فتجعل منها شيئاً لا يوصف، لا يسمًّى، لا يصدّق!

منصور عبد السلام الذي يتكلم الآن، يتكلم عن امرأة، عرفها في يوم بعيد، تزوجت تلك المرأة، كان اسمها رحاب، ولكن لا يزال يتذكرها حتى هذه اللحظة وكأنَّها تقف أمامه. ابتعدت رحاب، ولدت ثلاثة أطفال، وربما لم تعد تتذكر منصور عبد السلام.

ـ هل رأيتم ولداً صغيراً؟

أتطلع إلى المرأة، صدمني سؤالها. أمد شفتي ببلاهة وأقول:

ـ لم أرَ أحداً!

ـ طفل صغير عمره خمس سنوات، يلبس قميصاً أزرق؟

ـ قلت لك. . لم أرَ أحداً.

أتريدين أن تفتشي جيوبي؟ تفضّلي، ويمكن أن تفتحي الحقيبة. ما أتعس الدنيا، وما أتعس البشر، إنَّهم لا يتركون الانسان يحلم لحظة واحدة!

لو تركت الأحلام وفكّرت بهدوء رجل متزن، تجاوز الثلاثين وكان مدرساً للتاريخ. . . لو ان هذا حصل، لما تعقّدت الأمور إلى هذه الدرجة. لو تركت الكتب لأصبحت نوعاً آخر من الرجال. هذا النوع الذي يفهم الواقع، يعيش فيه، ويتعامل معه دون أن يكفر أو يستسلم. لو كنت عاقلاً لأصبحت الآن رئيساً لقسم التاريخ المعاصر، لذهبت في بعثة لمدة سنة أو سنتين، لأصبحت. . .

ـ لا تكن أحمق: رئاسة القسم تعني تعويضاً، وتعني سفراً كل شهر، إضافة إلى المركز المعنوي. فكّر بالأمر.

كان ذلك منذ أربع سنوات، ولكنّي لم أفكّر!

منصور عبد السلام لا يريد الآن أن يسلي احداً، مَن يريد أن يتعرف عليه، يجب ان يمتلك ولو جزءاً من الرغبة برفض هذا العالم. أن يرفض شيئاً ما. حتى لو يقول ان الشارع الذي يصل بين المتحف ومركز المدينة قذر.

ولهذا السبب بالذات، أسجل احتجاجاً لدى جهة ما!

لو قلنا ذلك نكون شريكين في أمر ما، حتى لو قلنا فقط: هذا الشارع قذر. أمّا إذا تجاوزنا الشارع الرئيسي باتجاه المسجد الكبير، او باتجاه سوق الخضار، فإنَّ الاتفاق بيننا سيكون أكبر وقد ننتقل إلى معرفة المواقف المشتركة التي تجمعنا. قد تتفق نظراتنا الى ما يسمَّى بالتاريخ. وما يكتب في الصحف، وفي لحظة ما نجد أنفسنا نرفض العالم، ونريد تدميره. وقد نعمل في خلية واحدة من أجل ان نعلق عشرات الرؤوس في مداخل المدن، وعلى أعمدة النور، وفي الميادين، وقد نموت مثل الذباب.

كان أبي يحب السياسة. كان يقرأ الجرائد بصعوبة، بعد أن يضع على عينيه تلك النظارات التي يسميها اللعينة، والتي اشتراها من بائع على الرصيف.

كان بضعة رجال يجلسون في بيتنا، تحت الدالية في ليالي

الصيف، وفي الديوان، كما تسمَّى تلك المستطيلة تحت الدرج. . . ويبدأ الحديث.

ـ هل الحبشة يا حاج أحمد هي التي أمر الرسول أتباعه بأن يهاجروا اليها؟

ـ إنَّها نفسها!

ـ مَن هاجر إليها من الصحابة؟

ـ. . . .

ـ ما كان اسم زوجة النبي الحبشية؟

ـ سارة.

ـ لا. . . أُمّنا سارة هي زوجة ابراهيم. . . أم اسماعيل.

ـ إذن مريم.

ـ يجوز مريم!

ـ يجب أن نسأل الشيخ رمضان، إنَّه أعلم منا بشؤون الدين!

ـ وهذه الحرب اللعينة، ما أسباب هذه الحرب يا حاج أحمد؟

ـ بصراحة. . الجرائد تدوخ، كل يوم تقول شيئاً، مرة. . .

ـ هل في الحبشة مسلمون؟

ـ كثيرون، ولكن فيها كفرة ايضاً! (ويصرّ أبي، كما تقول أمي على استعمال كلمة «أيضاً»).

ـ يا ترى مَن الأكثر: المسلمون أم النصارى؟

ـ والله لا أعرف. ولكن يجب أن يكون المسلمون كثيرين ايضاً، وإلاَّ لما طلب الرسول من أصحابه أن يهاجروا!!

ـ وهل هاجر عدد كبير؟

ـ أيضاً يجب أن نسأل الشيخ رمضان.

ويُنفى أبي إلى الهند، حتى هذه اللحظة لا أعرف لماذا نفاه الملك، كانت أمي تقول ان الحاج يحب المشاكل، يحب السياسة.

أمّا الرجال فيقولون ان الحاج وطني، وقد شتم الملك مرة وقال انه خائن!

ـ وكيف عشتم، كيف عشنا يا أمي بعد ان نُفي أبي؟

ـ بعد ان استقر أبوك في الهند، اشترك مع جماعة في التجارة، وكان يبعث لنا بين فترة وأخرى ما يكفينا!

ـ وهل الهند بعيدة يا أمي؟

ـ سفر شهرين. . . ثلاثة!

ـ ولماذا لم تذهبي عند أبي؟

ـ كان يقول: الفرج قريب، ولا حاجة لأن نخرب بيوتنا بأيدينا!

ـ وكم قضى من الوقت هناك؟

ـ في هذه المرة ظلَّ خمس سنين. طقس الهند لم يواته. ولما مرض سمحوا له بالعودة، ولكن لم يبقَ بيننا أكثر من سبعة شهور. . . توفي بعدها!

ـ وهل كان أبي كبيراً؟

ـ مات أبوك بعمر النبي. . . فوق الستين؟

ظلت ذكرى تلك الأيام لاحقة بأنفي مثل رائحة الدم الحارة.

في اليوم الأول لدخولي المدرسة تظاهر الطلاب، أردت أن أشترك معهم، لكن خوفاً تملكني، إذ ما كدت أنزل إلى الشارع حتى هربت. تسلقت الدرج باتجاه البيت، وقبل أن أصل شعرت اني وحيد في ذلك السكون الميت الذي يتسرب من كل ناحية حولي: من الأحجار والجدران والشمس!

وعلى البعد كنت أسمع دوياً مخنوقاً أقرب إلى الغناء. . وقرّرت أن أعود.

ولما رجعت إلى البيت، ظُهرَ ذلك اليوم، كانت آثار الكدمات

والجروح تغطِّي وجهي ويدي. لقد ذهبت مع أناس كثيرين إلى القصر.. لكن قبل أن نصل خرج الينا الخيالة، فهربنا أول مرة، وهربنا ثاني مرة. أما في المرة الثالثة فقد أصبحنا تحت الشرفات تماماً. كان الناس طوفانا هناك.

خرج الينا بوجهه المكتنز وعينيه الضيقتين. نظرت إليه فرأيته يشبه مدير المدرسة، شعرت تجاهه بالكراهية. وما كاد يتكلم حتى تعالت الهتافات والشتائم، فلم يستطع أن يقول شيئاً. غادر الشرفة غاضباً، وبدأ الخيالة يضربون الناس، يدوسون عليهم، وفجأة دوت طلقات في الهواء... فتراجعنا وسمعت صوتاً يشبه الدعاء والتكبير ثم أصبح صراخاً متصلاً وبكاء طويلاً..

قال الرجال: الخيالة قتلت واحداً.. قتلت اثنين.. قتلت ثلاثة. وبعد كل قتيل كان غضب الرجال يزداد. ويزداد جنونهم، حتى اكتسح كل شيء!

قلت لأخوتي وأولاد حارتنا، ونحن تحت شجرة التوت الكبيرة: لقد رأيت رجلاً ميتاً يحمله الناس فوق راحات الأيدي.. ويصرخون. وقلت لهم: لقد رأيت حصاناً مبقور البطن.

ومنذ ذلك الوقت بدأت أحلم كثيراً... وأبكي!

8

... ومنذ ذلك اليوم بدأت أتكلم وأتوهم، وبدأت أركض في أحلامي. كنت أسقط الخيالة عن خيولهم، وأضربهم حتى يموتوا. وظللت أصرخ في وجه ذلك السمين القصير وتمنيت لو أشد لحيته!

كان خالي، وجاره الأرقش الذي ضربني من أجل وعاء الحليب، وقال اني يتيم مثل الذبابة، ثم الأحول الذي مط شفتيه وأشار بيده إلى البعيد، وقال مثل شرطي: فتش في المزابل عن الخبز بدل ان تقلب الكتب والمجلات، كان هؤلاء يجعلونني شرساً، ذا مزاج عصبي، وقد سبَّبوا لِي أرقاً يشبه الخيمة السوداء، وهم الذين جعلوني أكره أشياء كثيرة وأعادي ما يحبون!

لكن جاءت ايام... بعد ذلك بسنوات، جعلت الأمر بالنسبة لي حزناً أقرب إلى الأسى، ثم صار خوفاً. في ساحة المدينة تكوّمت آلاف الأشياء: أبواب مخلوعة وآثار الأسمنت ما تزال عالقة بها. شبابيك بألوان وأحجام مختلفة. قطع حديدية قديمة وجديدة. فراش. وسائد، كان بعضها قذراً، وبعضها ممزقاً. أحواض غسل كبيرة، صغيرة، مكسورة الحواف. وفي هذه الأكوام تجد كل شيء حتى البلاط الملتصق بالأسمنت والتراب، وأكياس الورق الفارغة والبراميل.

الرجال يثقلهم الحزن وهم يقلبون الحاجات. يتساءلون بأصوات غامضة لا تكاد تسمع عن مصدرها ولا أحد يجيب، وصوت وحيد يردّد دون انقطاع، ويعلو على أصوات كل الرجال:

ـ اشتر او اترك يا عم. حاجات مثل الذهب، مرة واحدة في العمر. هذه الحاجات لا تحصل كل يوم. اشتر او امش.

ويرتد الصوت عن الوجوه مثل كرة المطاط القاسية. والرجال بصمت يقلبون الحاجات ويتساءلون.

وفي نفس الساحة، قريباً من الأكوام المكدسة، كان الرجال لا يكفون عن الحديث، كانوا جميعهم يتحدثون في وقت واحد!

ولكن كيف بدأت القصة يا منصور؟ انت تقفز الآن مثل جندب، أنت تهذي، تريد تدمير العالم، ولا تستطيع ان تدمر ذبابة. احسن لك يا منصور ان تسكت، ان تخرس!

ولكن الرجال كانوا يتحدثون:

جيش الانقاذ اجتاز في الليل صفد، المجاهدون يتقدمون في السهل الساحلي ويسيطرون على باب الواد. انتظروا الأيام القادمة!

جاء وقت الحساب. الانكليز هم اعداؤنا. اتكلوا على الله يا رجال!

وتزداد الأكوام في ساحة المدينة. أصبحت الصفائح الفارغة والبراميل أكثر من قبل، ذهبت الأبواب والشبابيك. ذهبت قطع الحديد. والرجال يقلبون الحاجات دون تعب، ولكن بحزن، ويسألون، ولا أحد يجيب. ويصرخ رجل عجوز يتوكأ على عصا:

ـ هذه أموال منهوبة. انها أموال اخوتكم، انها للعرب، ليس لليهود كما يقول هذا الرجل!

ـ انها لليهود. . .

ـ لا. . . للعرب الذين هربوا.

ـ لا . . . لليهود.

ـ ليس صحيحاً. انت تريد ان تغش الناس، تريد أن تبيع وتربح ولا يهمك غير ذلك!

ـ انت عجوز خرف، لا تعرف ماذا حصل في الدنيا؟

ـ اخرس أيُّها الكلب الأعور، أنا أعرف أحسن منك.

ـ اذهب عن وجهي أيُّها العجوز النحس. لقد اشتريت هذه الأشياء بحلالي، بدم قلبي. . . اشتر او امش!

وجيش الانقاذ ما يزال يتقدم. . . ايام ونلتقي في حيفا!

ـ نذر عليّ، سبعة ايام بلياليها افراح!

ـ تعالوا. . . تعالوا بضيافتي عشرة أيام.

ـ أتعرف يا أبا سالم ان العرب شجعان، شجعان مثل الأسود، لا يقف في وجههم شيء، الذي حصل حتى الآن ان العرب لم تكن تحكم نفسها! لو كانت العرب حرة ولها كلمتها لما ظلَّ حجر على حجر. لكن جاء اليوم الذي انتظرناه طويلاً!

ـ لا تتوهموا يا جماعة. لا تخطئوا. الانكليز واليهود عفاريت!

ـ بدا غراب البين!

ـ الدنيا في أولها. لا تفرحوا كثيراً!

ـ راحت تلك الأيام التي كنا فيها نساق مثل النعاج. اليوم دورنا!

ويهز الرجال رؤوسهم بصبر حزين. ينتظرون الأخبار. يفرحون. يتألمون. ترتسم في وجوههم علامات الحيرة والعذاب. . . ويواصلون حديثهم.

كل دقيقة تحمل خبراً. كل قادم يحمل خبراً. وفي الناحية الثانية تمتد الأيدي إلى البلاط والأعمدة الخشبية وأعمدة الحديد. كانوا يساومون وينتظرون.

وساحة المدينة تمتلىء وتفرغ كل يوم. وعند الغروب لا تبقى إلاّ الصفائح الفارغة والبراميل، وكذلك تبقى الأحزان!

ويقفز الصغار مثل قطط بأذيالها أوراق تحترق: مظاهرات كل يوم، منذ الصباح إلى ما بعد الغروب. يسقط بلفور. يسقط الخونة.

مَن هو بلفور؟ امرأة؟ رجل؟ كنيسة في مكان ما، لا أعرف ولكن ليسقط بلفور. كل الصغار يقولون يسقط بلفور.

والخونة... كيف هم الخونة؟ كيف ينامون؟ كيف يتحدّثون؟ هل لهم عيون مستطيلة تحت الجبين؟ هل لهم أسنان؟ هل هم مثل باقي الرجال؟

ان للخونة عيوناً بالعرض. وشواربهم مضحكة، واحد قصير والآخر طويل... طويل... وإلاّ لماذا يكونون خائنين؟ ورغم كل ذلك يسقط الخونة.

ضاقوا من صراخنا، من الاضطرابات والمظاهرات التي نقوم بها كل يوم!

كان شاربه القصير يرتجف، والطربوش مثبت على رأسه بقوة وكأنّه أصبح جزءاً من الرأس، نظر إلينا بعصبية ونحن نصطف في الطابور، وصرخ:

ـ اليوم دراسة. لم نرد ان نقف في وجه العواطف الوطنية، فتركنا لكم فرصة التعبير عن عواطفكم في الأيام الماضية. ابتداء من اليوم ستعود الدراسة الى حالتها الطبيعية. مفهوم؟

لا أحد يجيب، ينظر الينا وقد امتزجت علامات القلق بالرضا عن النفس. يسود صمت قاس، ثم بهدوء يقول:

ـ يا أولادي، واجبكم أن تدرسوا. اتركوا السياسة وقضية فلسطين للحكومة فهي التي تعالجها. هل هذا مفهوم؟

وللمرة الثانية لا أحد يجيب. ولكن هذه الكلمات لا تساوي شيئاً. بعد قليل يتجه الطابور الى الباب الخارجي في طريقه الى وسط

المدينة. لن تقف في وجهه اية قوة. هذا ما قلناه لبعضنا، وهذا ما اتفقنا عليه مع المدارس الأخرى.

ضاعت كلمات المدير في الهواء. لم يسمعها أحد. ولكن لكي لا يترك الفرصة تفوته تماماً، سألنا:

ـ هل يريد أحد منكم ان يلتحق بالمناضلين؟

وترتفع الأيدي. عشرات الأيدي. كل الأيدي. ينظر الينا بخوف وكأنَّه يكتشف عالماً مرعباً!

ـ كلكم تريدون ان تلتحقوا بالجهاد؟

وبصوت مجنون نصرخ: حماة الديار عليكم سلام، ابت ان تذل النفوس الكرام. ونتعب من الصراخ ولا نكاد ننتهي حتى يشق السماء صوت: يسقط الخونة، نريد السلاح!

وخلال لحظات نكون قد اجتزنا الباب الخارجي، وفي الساحة الرئيسية للمدينة لا تزال الأكوام تتكدس منذ شهر أو يزيد. تتغير كل الأشياء، ولكنها تعود في اليوم التالي. وفي الساحة نفسها تقف سيارات كبيرة يركب فيها رجال تمتلىء وجوههم بالحزن والفرح. انهم المجاهدون. وقفوا لحظات ليشتروا ويودعوا.

وصلوا صفد قبل يومين. هذه الليلة ينتهي كل شيء. انسحب الانكليز وستطبق الجيوش مثل كماشة. مَن قال لليهود أن يأتوا إلى بلادنا؟

ويأتي إلى مدرستنا رجل يتهامس كل الناس باسمه. كان صغيراً، دون الأربعين، يحمل عصا لها رأس مكور لامع، يتوكأ عليها قليلاً، ويهزها في الهواء كأنَّه يداعب شيئاً.

يقف المدير إلى جانبه. بدا المدير عجوزاً متعباً. وما كدنا ننتهي من النشيد حتى تقدّم الرجل وصرخ:

ـ الذين يريدون ان يذهبوا للجهاد ليتقدموا خطوتين إلى الأمام!

ظلَّ بعيداً عن الطابور الجديد خطوتين. وبعصاه بدأ يلمس

الأكتاف. مَن تلمسه العصا يتقدم خطوة، اما الذي تتجاوزه فيجب أن يتأخّر خطوة. وبصوت هامس لم يسمعه إلاًّ مَن كان بجانب الرجل الكبير، قال:

ـ إلى اليسار در. عند العلم!

ظلّت الأشياء تملأ ساحة المدينة. وظلت أحاديث الرجال تتراكم.

انقضت تلك الأيام. جيوش. كل الجيوش مقابل عصابات.

فرغت ساحة المدينة. لم تعد السيارات الكبيرة تحمل احداً. بدأت تصل إلى آذاننا كلمات جديدة، قالها رجال بحزن وهم يبكون، وقالها رجال آخرون وهم يبصقون على الأرض بغضب.

كان مذاق العرق حاداً قاسياً. ولكن كل دواء له ذلك الطعم. كان قاسياً في المرات الأولى، ثم طاب طعمه. وصار أكثر من دواء. صار لذيذاً مثل ضحكة الأطفال. صار مراً مثل بكاء الأمهات. ولكن أصبح لنا مثل ملح الأرض... لا نتركه. ولا نريد شيئاً غيره!

9

ـ أتأتي هنا أول مرة؟

نعم أول مرة.

ـ زيارة أم عمل؟

ـ عمل!

اريد ان أصلب نفسي على نخلة. اريد ان اعتكف في مغارة بأعلى جبل. لا أريد شيئاً!

ـ هل لديك تصريح بالعمل؟

ـ نعم...

ويقلب الورقة وينظر إليّ وكأنَّه لا يصدق، يخرج من جيبه مكبراً يضعه على الورقة ويقرب عينه ليدقق. ليفعل ما يشاء. لن يستطيع ان يقول كلمة واحدة!

ـ تفضّل... املأ هذه الورقة!

القطار يتحرك على الرمال مثل حية سوداء، أعمدة الهاتف تتراكض. افكر وأنا أقلب الكتب أمامي. لا أريد ان أفكّر، ولا أريد أن أقرأ. لم يبق أمام الانسان إلاَّ ان يرتد إلى الشرنقة، إلى الطين. لو عاد لأمكنه ان يعيش في عزلة كاملة عن كل شيء! ولكن منذ اللحظة التي مدَّ فيها اصبعه ومزَّق القشرة فسدت الحياة. لم يستطع ان يتحوّل الى فراشة ويطير، ولم يبق مثلما كان داخل الشرنقة، أصبح الانسان

مضحكاً ومحزناً، وهو يضرب على مؤخرته، وهو يبحث عن عمل، وهو يأكل وينام. آه لو أستطيع ان أقفز خارج الكون!

قلت لك يا منصور، انت تحلم كثيراً. ولكن هل بقي غير الحلم؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟! سألت نفسي هذا السؤال مرات كثيرة، ولم أستطع أن أجيب.

قال لي الياس نخلة ونحن نتحاور مثل الضفادع:

«لو قدّر لي ان أعيش مرة ثانية، فلن اختار الحياة التي عشتها».

سألته مثل حكيم أعور. «وأي حياة تريد يا الياس؟»

قال: حياة أخرى. اما انا فقد قلت بصوت عال يشبه صوت الشرطي الذي ضربني ذات مرة دون مبرر. قلت: اما انا فلن أحيا إلاّ نفس الحياة! تصوروا!

مَن أنتَ يا منصور عبد السلام؟ انت. . . لا تخجل. . . قل نفس الكلمات التي قالوها لك بعد ان رفضت الكلام، رغم كل الضرب الذي تلقيته، لا تخجل. ولكن ما فائدة الكلمات الآن؟ صحيح انني غضبت، ولكن كان ذلك منذ وقت طويل، لم أسمع بعدها تلك الشتائم، ولكن في سري ما تزال تتردّد نفس الكلمات.

لقد وجد الياس نخلة رجلاً يتحدث معه. قال لي ان الانسان بدون الآخرين يساوي ذبابة، يجب ان يتكلم، ان يستمع للناس. اما اذا أصبح وحيداً فإنَّه يتحوّل إلى مجنون!

آه لو ان انساناً يتحدّث معي الآن. يجب أن أكلم احداً، أياً كان! أتذكر قصة تشيخوف «الرجل الذي يكلم الحصان» لم يجد الرجل انساناً يحدثه. حاول مع بعض الناس ولكن لم يستمع إليه أحد. كان يريد ان يحدث انساناً عن ولده الذي مات ذلك اليوم. ولكنه لم يجد سوى حصانه، ولمّا حدّثه شعر بالراحة.

هذا القطار الذي يشبه المقبرة، يمتلىء بالعشرات، في كل

عربة عدد من الناس، ولكل واحد من هؤلاء عينان وأذنان. ألا يوجد بينهم واحد يمكن ان يستمع إلي؟ ينظر إلى عيني؟

أنت يا منصور وحيد... وحيد لدرجة لا يمكن للانسان ان يكون وحيداً هكذا! ماذا تجديك الكتب التي قرأتها؟ لقد قرأت كثيراً. تعبت عيناك، أصابك الملل. وأخيراً وجدت نفسك جائعاً!

ألا تعرف ان الكتب هي التي عذّبتك وخلقت بينك وبين الناس هذه الفجوة الكبيرة؟ اعترف. احرق الكتب. مزّقها. لماذا انت حريص هكذا؟ لم يبقَ معك سوى هذه الكتب الصفراء التي ترقد في الحقيبة. أنت نيرون، احرق ولا تخف. يكفيك ما قرأت، ولكن شكراً لله انك نسيت كل شيء. لولا النسيان لمات الانسان لكثرة ما يعرف. لمات من تخمة الهموم والعذاب والأفكار التي تجول في رأسه.

لماذا لا تغادر هذه العربة الكئيبة وتتحدّث مع الناس؟ لماذا لم تتحدث مع الياس نخلة؟ لقد حاصرته مثل فأر حتى قال لك كل شيء. سألك عشرات المرات ان تتحدث، ولكنك لم تشأ. كنت تريد ان تمتصه، ان تعرف كل شيء عن حياته... ماذا أجداك ذلك؟

ولكن هل كان من الواجب ان أصبح واحداً من الناس؟ واحد من اولئك الذين أعرفهم جيداً؟ ما أزال أتذكرهم. أعرفهم تماماً، وأعرف كل شيء عنهم. كيف بدأوا، وإلى أين انتهوا. هل أريد أن أكون واحداً منهم؟

لو قلت كل ما أعرف... لو فكّرت بكل الذين أعرفهم لانفجر رأسي. لقد أصبحت أخاف من هول ما أعرف، ومن واجب رجال الشرطة ان يقتلوني، لأنّني اذا ظللت حياً، فسوف أصبح خطيراً! لقد ذهبت بعيداً يا منصور! لا أحد يريد ان ينفجر رأسك. الآن... اترك الأشياء التي تعرفها والناس الذين رأيتهم، اترك الأشياء التي تسبب ارتفاع الضغط، وتحدّث عن الجوانب الأخرى في حياتك!

النساء... اللحظات التي شعرت انك تحمل الأرض على اصبعك وتلف بها مثلما يلف الساحر الكرة بين أصابعه! قلت انك تعرف النساء، وقلت ان النساء عذبنك... هذا ما قلته في البداية، هل نسيت؟ اذا لم تشأ ان تتحدث عن نساء واقعيات التقيت بهن، فلماذا لا تكذب، مثلما تفعل دائماً وتتوهم... وتحلم؟ الطريق طويل... طويل يا منصور، ويجب ان تفعل شيئاً!

10

ولكن عن أية امرأة يمكن أن أتحدّث؟

. . . منصور عبد السلام يمتلىء براءة وهو يسأل هذا السؤال. يريد ان يوحي لكم انه عرف نساء كثيرات، ولا يدري الآن عن أية امرأة يتحدّث!

ولكن هل الياس نخلة أحسن منه؟ فما دام هذا الافاق، الصغير الجرم، والذي لا يعرف من الدنيا سوى الأشجار والملابس القديمة، قد عرف عدداً كبيراً من النساء، ألاَ يُعقل ان يكون الذي قضى عشر سنوات متواصلة في الجامعة طالباً، هنا وفي أوروبا، ثم عاد إلى الجامعة استاذاً، ألاَ يُعقل ان يكون قد تعرَّف إلى عدد كبير من النساء؟

هكذا يطرح منصور المسألة، ومرور الياس لم يغيّر شيئاً، سوى انه خلق له استفزازاً يصعب مقاومته، ويدفع الوقور ان يبعد، ولو لفترة قصيرة، التردّد الذي يجعله، بعض الأحيان، حازم النظرات، قاسي الملامح! لديه الآن الاستعداد لأن يتحدّث بالأمور الصغيرة التي تشغل الناس. دعوه. . . دعوه يتكلم.

ولكن سيبقى ذنب الكلب أعوج، ولو وضع في القصبة اربعين يوماً! منصور لا يتغير، يحمل معه الخصائص الوراثية التي اكتسبها من أجداده ويسير فيها أينما ذهب. وامه عندما تغضب تقول: عائلة

عبد السلام ملعونة وستبقى كذلك حتى تقوم الساعة! لن تكون أحسن من أبيك. لقد تزوّج اربع نساء، ولم يكتف بهمّ النساء وانما أضاف اليه الشقاء والركض وراء المستحيل، ولم يترب. . . لقد مات من أجل السياسة!

استعمل كل أساليب الدهاء والمكر يا منصور، من أجل ان تخلق مناعة عند الآخرين. ان تحت الجلد الضامر الملفوف ببدلة رمادية، يربض انسان له تاريخ، وتاريخه مع النساء مطرز بالعطور والمآسي، دافىء مثل ليالي الصيف، طويل كأن ليس له نهاية!

لا حاجة ابداً للكلمات الكبيرة، لن يحاسبك احد. وحتى أولئك الذين ستشملهم بحديثك الدامي سيقلبون شفاههم سخرية، ويقولون: هناك أناس يفضلّون ان يحلموا دائماً!

ذات مرة، ومنذ سنوات طويلة، كنا نجلس أنا وهاني متقابلين. كنت أعرف الكلمات التي يمكن ان يقولها، فقد قيلت آلاف المرات، وسوف تقال آلاف المرات ايضاً.

رميت أمامه الجريدة، وقلت لنفسي سأمتنع مثل صخرة سوداء عن الاجابة.

البار مثلما كان: الدخان والوجوه البائسة والمستحيل.

نظر إلى الجريدة بعصبية، ثم أبعدها. نظر إلى عيني تماماً وقال:

ـ منصور. . . هناك موضوع خاص أريد ان آخذ رأيك فيه!

أحسست بخوف مفاجىء، تحرك شيء في داخلي ينذرني، وددت لو يصمت، ليته لا يسأل. قلت:

ـ تفضل.

ـ أتعرف رحاب؟

قدّرت ان الحديث سيكون عن امرأة، ولكن لم أتوقع ان يسألني عنها؛ انقبض قلبي. تصوّرتها مثل أول مرة: كانت تقف

بشموخ مديد: تنورة سوداء وكنزة رمادية. كان اليوم ربيعياً: رائحة الأرض والأشجار، رائحة العشب المخدرة. أشجار الأكاسيا تظلّلنا ونحن نجلس في حلقتين متقاربتين، الرجال يتحدثون برصانة حمقاء مثل مَن يلقي نكتاً في مأتم، والبنات ومعهن بعض الخنازير ـ هكذا كنت أحب ان أسمِّي الرجال الذين يكسبون ثقة البنات بسرعة ـ يعدون الطعام. ما زلت إلى الآن امضغ بقايا الرغيف المشرب بالدهن الذي رمته إليّ رحاب ونفرت مثل غزال!

تلك كانت البداية، وبعدها ظللت مثل كلب أخرس، أدور حولها، ولكن دون أن أقول كلمة. الأيام تدور والتنورة السوداء تزداد رسوخاً في ذاكرتي.

قلت بصوت ترابي مخنوق، وكأنّي أبتلع دواء مراً:

ـ اعرفها.

ـ ما رأيك فيها؟

ألم يجد غيري يسأله؟ ولكن من أين له أن يعرف؟ في اللحظات الشجاعة التي استعد لها أياماً، اسأل الأصدقاء عنها بعد ان أغلف السؤال بسياج سميك من الأحاديث السياسية، وبذكاء ثعلب هرم أزحف اليها. لم يعرف أحد قصة حبِّي!

ـ لا بأس بها.

ـ أريد رأيك بصراحة.

يسألني عن رباط عنقه؟ عن حذائه؟ ألا يعرف ان كل كلمة تنزل مثل سكين في خاصرتي؟

«ونسافر إلى وادي الملوك. سوف نقضي شهراً هناك في الدفء الناعم اللذيذ. وفي بعض الصباحات سوف أستيقظ قبلها وأفتح النافذة لأترك الشمس تسقط على شعرها، وتتململ، تدير رأسها، تتمطى بكسل، ثم تفتح عينين ليس أجمل منهما وتقول بصوت هامس لا يكاد يُسمع: صباح الخير!»

ـ فتاة جيدة، ولكن لماذا!

يبتسم وقد هزّته النشوة. يريد اذلالي... أعرف ذلك!

ـ أتعرف... ان رحاب تعجبني وأفكّر ان أتزوجها!

ـ وهل تعرفها جيداً؟

المرأة التي فكّرت فيها ليالي بطولها. طرحت السؤال بطريقة توحي بالشك. وضعت خطاً أسود تحت كلمة «جيداً».

ـ طبيعي أعرفها، وقد سألت الأصدقاء المقربين: رمزي، أحمد، وسألت منى أيضاً.

ـ اذن الموضوع منتهٍ.

ـ ليس تماماً، ولكن أفكّر جيداً بالموضوع، وأردت ان آخذ رأيك!

ـ أليس الوقت مبكراً للزواج؟

ـ اذا سارت الأمور كما ينبغي فسوف أخطبها الآن، اما الزواج فلن يكون قبل سنة!

اذا سارت الأمور كما ينبغي... ما زال الأمر في بدايته اذن، ماذا أستطيع ان أفعل لأمنعه؟

لو رفضتْ هل أتقدم؟ الصداقة؟ العيش والملح؟ العمر الطويل في السياسة؟ ليتها ترفض. الرفض طريق النجاة!

ـ ماذا فعلت حتى الآن؟ هل بحثت معها الأمر؟

ـ رأيتها عدة مرات، تحدّثنا في أمور كثيرة، وقد لمّحت لها برغبتي، وقلت لمنى ان تسألها!

ليزدد الحصار حولي، ولأمت مثل المجذوم. لقد كان الصمت الجبان حبل المشنقة الذي التفّ على رقبتي! استحق كل ذلك... آه لو كنت شجاعاً للحظة واحدة فقط!

«لا تربطي شعرك بهذا الشكل. اتركيه طليقاً لتكوني مثل الهة

الاغريق. عندما تربطينه يصبح وجهك مستطيلاً وأقرب إلى طالبات المدارس. أتذكرين التنورة السوداء يا رحاب؟ لقد كنت جميلة، رائعة... لماذا كنت صامتاً؟ أنا لا أحب الرحلات الجماعية الكبيرة، لا تلائم طبعي.

والآن أين تحبين أن نذهب؟»

آه لو ترفض. لم يعد ممكناً أي شيء حتى لو رفضت. سوف أتخرّج هذا الصيف وأمامهما سنة يقضيانها معاً!

- أتقرر الأمور وحدك؟ ألا تسأل أهلك؟

- بعثت برسالة لأُمّي قبل شهرين. وافقت من حيث المبدأ، ولكن ترى ان نؤجّل الأمر إلى السنة القادمة!

إذن انا المخدوع الوحيد. أين كنت خلال هذه الفترة؟ كنت أضع رأسي في التراب، ولكن رحاب لم تتغير ابداً، لم يتغير شيء في سلوكها نحوي.

هاني رجل عملي. سوف يتخرّج طبيباً السنة القادمة، يريد ان يتزوج، نظر حواليه فلم يجد أفضل من رحاب، وبسرعة قرّر... وسار.

«سوف اقرأ لك يا رحاب الأشعار التي احبها. وأتمدّد على العشب ورأسي يرتاح في حضنها وأقرأ... ارفع رأسي لأقبّلها فيرتمي شعرها على وجهي فيغمرني تماماً، أحسّه دافئاً وطرياً، ضياء أسود متوهجاً يملأ أنفي وعيني، وأضع يدي على رقبتها، وأقول لها: يا أجمل امرأة في هذا الكون. تضحك، ثم فجأة تسحب رجلها فيسقط رأسي على العشب، وتقفز مثل غزالة، تركض بمرح، أنقلب على بطني وأتابعها بنظرات تحتضن كل شيء فيها، وأفكر كيف أقبض عليها... اذا أمسكتها فسوف اصهر عظامها بقبلة لم يمنحها رجل لإمرأة!»

- اذن لم يبقَ شيء. لماذا لم تقل لي؟

ـ ما زال الموضوع في بدايته. المخلوقة لا تدري حتى الآن، وربما لا نتفق!

ـ كل هذه الخطوات ولم تعمل شيئاً؟

ـ أية خطوات؟

ابتسم، شعرت ان ابتسامته تحدٍّ. كانت ابتسامة سخرية. ماذا يريد منّي أكثر من ذلك؟

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

ـ وافقنا أنا وأبي، بقي الملك وابنته!

نعم انها ملكة، عيناها الحزينتان، نعومتها، كل شيء فيها انشودة رائعة مثل سقوط المطر. ولكن لن تجد قلباً كقلبي. هاني يستطيع ان يؤمّن لها حياة مريحة، ولكن قلبه مثل مستودع. سوف تندم، سيأتي يوم أقول لها كل شيء! وهاني سيندمج في العيادة... ولن يراها إلاّ مثلما يرى مريضة تراجعه!

«السماء تمطر يا رحاب. البسي معطفك ولنخرج. احب رائحة المطر، كل شيء يتجدّد فيّ وأنا أتنشق رائحة المطر. لا تعقدي المنديل هكذا، هذه الطريقة أفضل، انك الآن تشبهين ممثلات السينما...»

ما أشد نعومتها... وأمسك بيدها ونركض تحت المطر!

ـ والله يا هاني أفندي خدعتنا!

لو سبقته بخطوة واحدة لانتهى الأمر، اما الآن فيبدو كل شيء مستحيلاً تماماً!

ـ مخطىء يا منصور، قلت لنفسي لن أقرّر شيئاً قبل ان أسألك!

ـ ما قيمة رأيي الآن بعد ان قرّرت كل شيء؟

ـ ربما غضبت لأنّي سألت رمزي؟

ـ لا... ولكن كان يجب أن نعرف قبل الآن!

سكرنا تلك الليلة. انا وحدي الذي سكرت، أما هو فقد شرب فقط!

رحاب المرأة الثالثة التي تضيع منّي، والشعور بالأسف الذي أحسه الآن لم أحس بمثله عندما تزوجت ليلى.

كان ذلك منذ وقت بعيد... بعيد. كنت في الظلمة انظر إلى القمر والنجوم وأردّد قسماً اني لن أترك ليلى. سوف أتزوجها وأسعدها. كنت أقول: أمام هذا القمر الزاهي، امام هذه النجوم المتلألئة، اقسم اني سأجعلك اسعد مخلوق على وجه الأرض... يا ليلى. وتزوجت ليلى. ومن سخريات القدر انني كنت في موكب عرسها.

وبعد ذلك بثلاث سنين تزوجت وداد. كنت أرى سيقانها الحريرية البيضاء وهي تشطف ساحة الدار فأحس اسياخاً من نار تحرقني، ومن وراء الستارة المسدلة اتابعها! كنت أجن وأنا أراها ترفع رأسها وبظهر يدها تقذف شعرها إلى الوراء. كنت أحس حبات العرق وهي تنزلق على ذقنها، على رقبتها مثل جمرات ملتهبة تسقط في دمي. فكّرت ذلك الصيف ان أقول لأمّي، ولكن هاجساً غبياً منعني، وتركت الأمر لصيف آخر. وفي كل رسالة ابعثها كنت أقول: «سلموا لي على وداد».

ولما جاء ذلك الصيف، كانت وداد قد تزوجت، وسافرت. حزنت كثيراً في الليل بكيت وأنا أفكّر فيها!

واليوم... هل تصبح رحاب شيئاً من الماضي؟

ـ صحة رحاب!

ـ صحتها!

من أجلها، أستطيع ان أشرب كل خمور العالم. أستطيع ان أشرب البحار والنجوم. ارفع الكأس مرة أخرى، وبتحد أقول له:

ـ رحاب مرة أخرى.

ونشرب. شربت الكأس كلها، وعندما رأيته يرشف رشفة صغيرة صرخت:

ـ اشرب يا سيد هاني. اشرب في صحة الأميرة!

نظر إليّ باستغراب، وكأنَّ حماستي فاجأته. قال:

ـ الليل ما يزال في أوله، لماذا تسرع؟

ـ وهذا الكأس لرحاب!

ـ اف.. اف... على مهلك، يظهر ان سكرتك هذه الليلة ستكون على رحاب!

ـ اشرب الآن، وبعد ذلك نتفاهم.

ـ ولكن لماذا انت مستعجل؟

ـ قلت لك اشرب، كأس الأميرة لا يعود... يُشرب كله؟

ـ اذا بدأنا هكذا فلن ننتهي!

ـ لا تناقش. اشرب.

توهجت في لحظة. أحسست بالدفء يسري في دمي، ودون أن أفكّر سألته:

ـ متى ستتزوج يا هاني؟

نظر إليَّ قبل أن يجيب، كأنَّه أحسَّ بالسخرية، ودون اهتمام قال:

ـ ما زال الأمر بعيداً... ليس قبل سنة أو سنتين!

ـ وأين ستقضي شهر العسل؟

ـ هل تمزح؟ نظر إليّ يقرأ أفكاري في عيني، قال يتابع: لم أُفكّر بالموضوع بعد... سابق لأوانه الآن!

ـ يجب أن تقرّر، الأمر مهم جداً!

ـ في الاسكندرية، مرسى مطروح، واذا ساعدتني الظروف قد أُسافر الى اليونان.

ـ اليونان أفضل!

ـ محتمل، يقولون اثينا جميلة.

وقبل أن يكمل عبارته كنت قد رشفت كأسي، ولا أعرف اية فكرة شيطانية سيطرت عليّ. تملكتني موجة من الضحك المدوي. كنت أنظر اليه بعيون مفتوحة، مثل عيون المجانين، وأضحك، وأضحك، وما كادت تخفت ضحكاتي حتى شعرت بالغيظ يتدفق من وجهه وعينيه، قلت له:

ـ عفواً... تصورتك في بذلة سوداء، وتضع رباط عنق مثل ذلك الذي نراه في السينما، ورحاب بثوب أبيض طويل، وفتاتان صغيرتان تحملان وراءها أذيال الثوب... حفلة سعادين!

ـ وهل تتصور انني سأقوم بهذه المراسيم؟

ـ هكذا تصورت!

ـ انت مخطىء!

ـ اذن اشرب في صحة رحاب! مرة أخرى. ومن أجل زواج شعبي!

ورفع كأسه، وقبل أن يشرب امتدت يده إلى ساعدي. امسك بي وقال:

ـ سأشرب، سأشرب كما تريد وأكثر، لكن لي رجاء وحيد... ونظر إليّ يريد ان ينتزع كلمة. قلت أريد ان أقطع عليه الطريق:

ـ اشرب الكأس الآن، وبعد ذلك نتفق.

قال وقد قست ملامحه:

ـ لا أشرب قبل ان نتفق.

ـ على أي شيء نتفق؟

ـ ان نبعد رحاب عن هذه السهرة.

ـ لماذا؟

ـ هكذا اريد!

ـ هل تخاف عليها؟

ـ ليس موضوع خوف، ولكن أفضل ان نتركها. هذه جلسة سكر، ونريد ان نشرب دون حرج.

ـ رحاب بالنسبة لي كما هي بالنسبة لك. اعزها مثلك وأكثر منك.

ـ لا أقصد شيئاً، ولكن أفضِّل أن نغيّر الموضوع!

ـ هل تغار عليها؟

ـ زودتها حبة، اتركنا من رحاب.

أصبحت ملكه. تحوّلت إلى سلعة يريد أن يتحكّم بها. أصبح يغار عليها، ما رابطته بها؟ حتى هذه اللحظة لا تزال تعني الجميع. ليس له ثمة أية ميزة.

«عندي اقتراحان... يمكن ان نذهب إلى المسرح او نذهب في نزهة مجنونة... أيَّهما تفضلين؟

وبصوت بريء مثل دحرجة الدمعة من العين تقول: اختر. ما رأيك ان تختبىء وافتش عنك؟ ان أربط عينيك وتفتش عنِّي؟ لا تقبلين؟ موضوع آخر: اعربي الجملة التالية... لا تريدين الاعراب والسخافات المماثلة؟ طيب. احزري: لماذا لم يحتل نابليون قناة السويس؟ اذا حزرت اعطيك قبلة، واذا لم تحزري تعطيني قبلة... موافقة؟ نبدأ... ولكن تذكّري: ستدفعين مقابلاً كبيراً اذا لم تحزري... تفضلي... «كانت محصنة» «لا». لأنَّه لم يصلها «لا». «قل لماذا» تذكّري المقابل. لأن قناة السويس لم تكن موجودة! وتضحك، وتضحك حتى تدمع عيناها، واقبّلها مرة. اقبّلها مائة مرة. أنام في حجرها. اطفىء النور الكبير، ولا يبقى إلا ضوء الراديو واسمع الموسيقى. تسألني: أتعرف هذه الموسيقى...؟ ستدفع

مقابلاً كبيراً اذا لم تحزر! وأخطىء! وتقول وهي تعطيني فمها الملتهب المجنون:

ـ كلِ شيء في ضوء القمر رائع!

ـ أوافق على ان نترك الموضوع... مؤقتاً!

ـ مؤقتاً، مؤبداً، المهم ان نتركه!

ـ اذا تصوّرت اني أوافق على تركه لأنَّ رحاب تعني شيئاً خاصاً بالنسبة لك، فأنت مخطىء، أوافق في حالة واحدة.

ـ ما هذه الحالة... يا سيدي؟

ـ لا شيء. لا شيء! نترك الموضوع!

ـ هل غضبت؟

ـ لا... ليس من حقّي أن أغضب.

ـ اذن لنشرب.

ـ لنشرب آخر مرة في صحة رحاب. لننتقل إلى غيرها.

ـ أليس عندك غير هذا الحل؟

ـ الآن ليس عندي.

ـ طيب نشرب في صحة رحاب!

ـ هاني لِمَ أنت حزين؟

ـ مَن قال اني حزين؟

ـ أرى الحزن في عينيك.

الحزن في قلبي، في عيني. الحزن مثل طبقة الزيت الطافية فوق دمي. تغلف كل شيء، تطوقه. أمَّا هو فإنَّه لا يعرف الأحزان... الكبيرة!

ـ ليس حزناً ما ترى، انه الملل.

ـ أصبحت وجودياً مرة أخرى.

ـ لم أكن، ولا أريد أن أكون.

ـ اذن لِمَ أنت حزين؟ هل تفكّر برحاب؟

ـ رب رحاب.. دين رحاب.. حل عنها يا أخي!

ـ طيب... يا سيدي.

ـ اشرب... أيُّها الأعزب الكبير.

ـ اشرب أيُّها المقبل على الهلاك!

وضاعت من ذاكرتي أغلب الأشياء. أتذكّر اني شتمت، واني وقفت خطيباً، واني قلت أشياء لا تقال، ولكن رحاب واصلت سيرها مع هاني في هذه الحياة. وسافرت انا للدراسة العالية... ولم ألتقِ بعد ذلك برحاب سوى مرات قليلة، ولكن بجو حزين... ورحاب الآن بعيدة... بعيدة كأنَّها نجمة في السماء. صار لها ثلاثة أطفال، كبرت كثيراً، تجعّد وجهها، أصبحت ابتسامتها حزينة، ولكن لم تعد تتذكّرني إلاَّ طيفاً مرَّ ذات يوم!

11

أنت الآن ديك منتوف الريش، أجرب، عجوز، مفلس، تساوي بنظر الحاج زهدي ذبابة. لا تغضب، فالدنيا دولاب، ودولابك يا منصور عبد السلام لا يصعد، هبط ذات يوم، وانغرز في التراب. استعملت مكر الثعالب لتخرجه، ولكن الدولاب في مكانه لا يتزحزح!

امس كان يركض امامك مثل موظف التشريفات: «تفضّل.. تفضّل، حلت علينا البركة، اهلاً وسهلاً، والله اشتقنالك يا استاذ منصور...».

بعد فترة تحوَّل الحاج زهدي إلى معلم مدرسة أعور: «لا نستطيع. المهم الآن ان تفتش عن عمل، وبعد ذلك يمكن أن نبحث الأمر...».

نعم ديك منتوف الريش، أعور. لا تغضب. احلم. تذكّر. يكفيك الحزن الذي عشَّش في قلبك خلال السنين الثلاث الأخيرة. أمّا قبل ذلك فقد عشت مثل اله، صحيح انك كنت الهاً صغيراً، لا تدق لك الأجراس، ولا تقدّم اليك الصلوات. ولكن يكفي انك.. لا أعرف لا.. لقد تصرفت بحماقة من اجل أفكار كنت مقتنعاً بها ذات يوم، ودفعت ثمناً لذلك. وما تزال تدفع، وستبقى تدفع إلى ان يدفعوك من ظهرك بقسوة لكي تدخل حديقة السرو.. او عندما تموت.

ـ كاترين.. كاترين.. اضع يدي فوق فمي واصرخ. وأتذكّر فيلم ذئاب الميناء، ومارلون براندو يصرخ على حبيبته بهذه الطريقة، ولكن بغضب، وأحس بفرح لهذه الذكرى!

وانتظرنا تحت المطر. اصفّر. اصفّر لحناً راقصاً كنا نحبه انا وكاترين، وقلنا لبعضنا في تلك الليلة التي سكرنا فيها أول مرة.. «سيكون هذا اللحن نداء بيننا!».

أطلت كاترين من نافذة المطبخ، لوَّحت بيدها، وقالت «لحظة يا حبيبي».

كان وجه كاترين متورداً يضج بالشهوة ورغبة العطاء. قلت لنفسي انت محظوظ يا منصور، أيُّها الصقر الرمادي، ولم تحمل الأرض رجلاً محظوظاً مثلك، وقرّرت ان أنام معها تلك الليلة!

في تلك الليلة تحدّثنا كثيراً عن الصحراء المترامية الأطراف والتي تظلّلها نجوم قريبة كأنَّها المصابيح الملونة، والشمس في النهار مثل النار تتساقط من السماء، تنبع من الأرض، تنفجر من كل مكان. أمَّا الثلج يا كاترين فلا نعرفه ابداً في بلادنا.

وبعد صمت قصير قلت لها أريد أن أفاجئها: يمكن ان تنزلي إلى البحر خلال شهر شباط، يا كاترين، وبانفعال تقول لي:

ـ منصور.. يجب ان أرى كل شيء. سوف لا أمل ابداً من التطلع إلى النجوم طوال الليل. وفي النهار سأنزلق مثل سمكة إلى مياه البحر، وأظل هناك أسبح وأسبح حتى الليل. وستحمل إليّ الأكل، ونأكل في البحر يا منصور...

ـ وسوف تتعلمين لغتنا. ولن تمر فترة حتى تصبحي مثل نساء بلادنا، ولن يميزك أحد!

ـ ونظل نرقص ونغني. سوف أرقص في ثياب شفافة. أريد ان أخلص من هذا البرد القاسي.

بعد شهور قلت لها:

ـ كاترين: هل تعرفين كم تبلغ درجة الحرارة في بلادنا في فصل الصيف؟

ـ لا أعرف بالضبط.

ـ تبلغ المائة. حرارة قاسية جداً، قد لا تتحملينها!

ـ لا تخف أحتمل الجحيم، ولا أريد بعد الآن هذا الثلج اللعين!

ـ ولكن الحرارة لا تحتمل...

ـ لو كانت فوق المائة سأتحملها!

ـ تقولين ذلك!

ـ سوف ترى بعينيك!

ـ ولن تستطيعي ان ترقصي كما تشائين.

ـ لماذا لا أستطيع؟ سيكون لدي وقت كاف. المهم الآن ان أُنهي دراستي، وبعدها سأكون حرة.

ـ ولكن الأمر ليس سهلاً. ليست بلادنا مثل بلادكم.

ـ ماذا تقصد؟

ـ الناس عندنا لا يرقصون إلاّ في المناسبات. وفي هذه المناسبات يرقصون بشكل وحشي تماماً مثل الغجر.

ـ ولكن أريد ان أرقص متى أشاء، وبالطريقة التي تعلمتها!

ـ الحياة عندنا تختلف كثيراً عن الحياة هنا...

ـ ولكنك تشبهني في كل شيء يا منصور، في الأكل والرقص والموسيقى...

ـ تعوّدت على حياتكم، أصبحت واحداً منكم.

ـ وهل الناس في بلادكم يختلفون عنك؟

ـ كثيراً.

ـ كثيراً؟ بأي شيء؟

ـ لقد نعست يا كاترين، ألا نذهب لننام؟

ذات يوم، كنت أشعر بالكآبة تسيطر عليّ، قلت لكاترين مثل ديك عجوز ينفض ريشه في الشمس:

ـ انتم في نهاية الحضارة، وتسأمون! ماذا نقول نحن؟ الأشياء التي تكرهينها نشتاق إليها في بلادنا، نموت من أجل ان تكون، والأشياء التي لا نحبها تتلهفين لكي تريها!

ـ أصبحت تتكلم بشكل مختلف عن السابق. . يا منصور!

ـ كنت أعرض لك اللوحات المشرقة، المغرية، وتلك التي كنت أرغب ان تكون!

ـ كنت اذن تكذب!

ـ لم أقل الحقيقة كلها!

ـ كنت تكذب عليّ؟

ـ لم أكذب عليك حرفاً واحداً، ولكن لم أقل لك كل ما أعرف!

ـ لا أفهمك يا منصور، انت تحيرني!

ـ ربما كان هذا هو الفرق بيننا.

ـ ولكن لست أفهم الاختلاف بين حياتنا وحياتكم، ألا تأكلون مثلنا؟ ألاَ تنجبون الأولاد، وتعملون وترقصون؟

ـ نفعل هذا كله، ونفعل أشياء اخرى أيضاً.

ـ زيادة على ما نفعل؟

ـ نعم. .

ـ أي شيء مثلاً؟

ـ نكذب، نؤجل أعمال اليوم إلى الغد، نضرب زوجاتنا، ننام بعد الظهر، نطيع القوادين والسماسرة والمشعوذين.

ـ ولكن لماذا تكذبون يا منصور؟

ـ الكذب ملح الرجال!

ـ انك تحيرني كثيراً.

ـ لنترك الأمر يا كاترين. ان الحديث عن بلادي يولد في نفسي حزناً مبكراً.

ـ يولد الحزن؟ أتصور ان الانسان حين يتحدّث عن وطنه يتحدّث عن الرغبة والحنين.

ـ انا عكس ذلك!

ـ لا تحب بلادك!

ـ احبها كثيراً!

ـ لماذا تفكّر بهذا الشكل اذن؟

ـ لأنَّ حياتنا تافهة وتحتاج إلى ان تدمر، ان تحرق.

ـ انت تحب السياسة. . . أليس كذلك؟

ـ لا أعرف ماذا أحب، ولكن أعرف ماذا أكره. اكره طريقة الحياة والعلاقات في بلادنا، ولن تزول هذه إلاً بثورة تحرق كل شيء!

ـ اذن انت تحب السياسة وغارق فيها!

ـ قلت لك لا أعرف أي شيء أحب، ولكن لو استطعت لما تركت حجر على حجر!

ـ انت دموي، حاقد.

ـ لا أحب الدماء ابداً، ولكن ماذا نفعل اذا كانوا يريدون لنا ان نظل إلى الأبد في المزابل وتحت الأحذية؟

ـ تأكّد يا منصور انني لم أكن أجهل ما تتكلم عنه مثلما الأمر الآن. منذ أول الليل وانت تتحدث عن أمور غامضة: الدماء. . المزابل. . ولا أعرف أي شيء آخر. انا لا أفهم ما تقوله!

ـ كاترين، نحن عالمان، التقينا بالصدفة، وبعد قليل سوف

نفترق، ان لقاء مثل هذا لا يمكن ان يستمر، مهما حاولنا. لا تتعبي نفسك كثيراً، ليس لأنّي لا أريدك، ولكن لأن لقاء مثل الذي تحلمين به سيكون قصيراً وفاجعاً. نحن كما قلت لك عالمان:

عالمان تقاطعا في نقطة، ولكن الدوران السريع للأشياء منعنا من ان نحس بهذا التقاطع، اريد ان أسألك سؤالاً صغيراً، هل انت مستعدة ان تجيبي عنه يا كاترين؟

- اسأل.

- هل تؤمنين بكروية الأرض؟

- هل هذا السؤال جدي؟

- في منتهى الجد..

- الجواب بديهي، اقصد الأرض كروية، ولا يمكن للانسان ان يشك في ذلك لحظة واحدة!

- كروية الأرض بالنسبة لي تجيب عن سؤالين آخرين. تجيب عن الدوران المستمر، رغم ان الانسان لا يحس به، ولكن لا يستطيع ان ينفيه ايضاً.. وهذا يمثل لقاء عالمينا. اما السؤال الثاني فهو ان ما تفترضينه بديهياً، والأطفال في المدارس يردّدونه مثلما يردّدون أسماءهم، ولا يعرفون شيئاً غيره، ان هذا مدار خلاف كبير في بلادنا، منذ الأزل وحتى الآن!

- آسفة يا منصور اني لا أفهم ما تقول!

- لا أستطيع أن أوضّح أكثر من ذلك.

- ولكن ابتدأنا بشيء وانتهينا إلى شيء آخر!

- أين ابتدأنا وأين نحن الآن؟

- من فرط سرعة الدوران أُصبت بالدوار، فلم أعرف أين ابتدأنا وأين انتهينا!

- يمكننا ان نحد من السرعة، ان نقف، وأقول لك من جديد ما أفكّر فيه، وما أستطيعه.

ـ ان كنت تستطيع بعد حفلة الدوار هذه فأنت عبقري.

ـ لأنّي لست عبقرياً أستطيع ان أقول لك!

ـ في حياتي كلها لم تقابلني مثل هذه التعقيدات، ولم أسمع لغة مثل التي أسمعها اليوم. منصور، انت تفتعل الغموض، وتتكلم بلغة لا تناسب دراستك. انت تتكلم مثل البحارة وقطّاع الطرق!

ـ كاترين.. حبيبتي كاترين، أنا قاطع طريق، انا بحار تائه. ولكن يجب ان تتعرى الأشياء. ان يزول الوهم، وبعدها يمكن ان نتحدث! يمكن ان نقضي وقتاً ممتعاً. وغداً عندما نفترق نشد على أيدي بعضنا ونحنّ لهذا الفراق، ولكن لا نستطيع ان نفعل شيئاً آخر، ولو فعلنا لكنا حمقى، أتفهمين الآن ما أريد ان أقوله؟

ـ أيضاً لا أفهم!

ـ كاترين، أيَّتها الصغيرة المحبوبة، ليس عندي كلمات، ولكن يجب ان تعرفي أنَّنا من عالمين مختلفين التقينا في نقطة، ولكن كل عالم منا سيواصل رحلته، سيظل يمشي الى آخر الدنيا، الى آخر الحياة دون ان نلتقي مرة أخرى.

ـ كفى الآن.. لا أريد ان أسمع أكثر من ذلك!

ـ هل غضبت يا حبيبتي، انا أحبك يا كاترين، ومنذ الأيام الأولى راودتني أفكار رائعة. كنت أتصور انك المرأة الوحيدة التي أبحث عنها، ولكن عندما أفكّر بذلك الشبح الذي يسمونه الوطن أقتنع تماماً انك آخر امرأة يمكن ان تصلحي لي!

لا أريد أن أكون متشائماً او قاسياً، ولكن أقول الكلمات ببساطة، انت لا تصلحين لأن تذهبي معي مهما حاولت ان تقولي الآن، وانا لا أستطيع ان أبقى هنا، لأن علي واجبات هناك!

بعد تلك الليلة سلكت سلوكاً مختلفاً مع كاترين. أصبحت أقل رغبة بلقائها، وقلت لها ذات مرة اني حزين لدرجة المرض، وقد نصحتني ان أراجع الطبيب، ولكن لم أفعل!

وفي ليلة السفر قلت لها كل شيء:

ـ كاترين. . بلادي كبيرة، تشرق عليها الشمس ولا تغيب، والناس عندنا لا يعرفون شيئاً غير ان يتناسلوا، انهم كثيرون. . . كثيرون جداً، وكل يوم يزدادون. انهم ينامون ويتناسلون، في الليل والنهار. العائلة الصغيرة عشرة. والناس يأكلون الخبز والزوان، لأنَّهم لا يجدون شيئاً آخر يأكلونه. انهم يبكون كثيراً، يريدون ان يكفروا عن شيء ما. ويضحكون بعصبية، وربما أصبحوا من الحزن مرضى. وكذلك من الجوع.

اذا جاءت لأحدهم رسالة حملها مسيرة يوم ليقرأها له رجل دجّال يضع على رأسه لفة. وهذا الرجل الذي يترنم بقراءتها يأخذ مقابلاً لذلك دجاجة وعشرة أرغفة خبز، وربما تزوّج ابنة صاحب الرسالة التي لا يزيد عمرها عن احدى عشرة سنة، وتكون هذه الزوجة العاشرة. . . بعد تسع زوجات مات منهن اربع او خمس أثناء الولادة، والأخريات يجلسن في الزوايا يفركن الأرجل ويسبحن!

والملوك عندنا يا كاترين لا يشبهون ملوككم ابداً. كل رجل عندنا ملك، والممالك صغيرة لدرجة انها متجاورة ومتراصة مثل مراحيض المقاهي والفنادق. وهؤلاء الملوك الصغار يضربون زوجاتهم، يشدون شعورهن، ويصرخون في وجوه الأطفال ويجبرونهم على ان يناموا جياعاً لأنَّهم قدموا الأكل لضيوف متخمين! اما اذا التقوا بالملوك الذين هم أكبر منهم، فإنَّهم يجثون على الأرض ويقبّلون التراب تحت أرجلهم، ويفعلون أي شيء من أجل ابتسامة صغيرة. والملوك الكبار يسجدون للذين أكبر منهم، حتى يصل الأمر ان جميع الملوك يسجدون لملك واحد، وهذا الملك الكبير لا يعرف القراءة والكتابة، له زوجات أكثر من جميع الملوك الآخرين، له مائة زوجة، من جميع أنحاء الأرض، وربما كانت له زوجة بلجيكية، وقد يكون اسمها كاترين. لا تغضبي. . فأنا لا أقول سوى الحقيقة. وهذا

الملك الذي أتحدث عنه قصير، ممتلىء، له كرش يعادل بير دورا الذي كسب رهان البيرة في السنة الماضية، يأكل كثيراً، وينام بعد ان يأكل مباشرة، ينام عندما تميل الشمس نحو المغيب، ويظل نائماً حتى يحين وقت العشاء. وهذا الملك قاس لدرجة ان الشرر يتطاير من عينيه دائماً. وكل يوم يقتل مئات الناس. نعم يقتلهم تماماً، يقطع أيديهم ورؤوسهم ويجلدهم في الميدان الكبير. يسرق كل قمحة تنبت في أي شبر من الأرض، ويلقي للناس الفتات. والناس يهزون رؤوسهم شكراً واعترافاً بالجميل، أكثر مما يفعل الكردينال ادوار، وبعد ذلك ان تكلمت معك تقولين: انت تعمل في السياسة!

لا أريد ان أحزنك يا كاترين، ولكن كل شيء في بلادنا مقلوب على رأسه، ويريد أنبياء من أجل ان يوقفوه على قدميه، وهؤلاء الأنبياء ليسوا موجودين، ولكن كل رجل يجب ان يحاول، نعم ان يحاول، لعله يكون نبياً. نحن نحتاج إلى آلاف الأنبياء، ولا يوجد منهم احد في الوقت الحاضر، كل الذين يصرخون الآن دجّالون، يريدون ان يتقاضوا ثمناً لصراخهم!

بعد ان تعبت سألتها: هل فهمت شيئاً يا كاترين؟

- كنت قبل ان تتحدث أفهم أكثر مما أفهم الآن!

- أنا الذي أخطأ، نعم أخطأت منذ البداية. كان يجب أن أقول لك كل شيء وبطريقة سهلة! ولكن تصورت الأمور أقل تعقيداً حتى سقطت في النقطة الخطرة!

- النقطة الخطرة؟

- النقطة الصعبة، النقطة التي لا يمكن ان يخرج منها الانسان سالماً. لقد أحببتك يا كاترين لدرجة الجنون وأنا الآن أنتزع نفسي من هذا الحب.

- قل لي أشياء حلوة قبل ان تسافر.

- أحلى شيء يمكن ان أقوله لك هو أنّي سأسافر، سوف

تتحرّرين من هذا الكابوس الذي ظلَّ يلاحقك أربع سنين!
ـ اربع سنين؟ تقصد علاقتنا.
ـ بالضبط علاقتنا!
ـ تخطىء كثيراً. لو لم أكن سعيدة بهذه العلاقة لما تركتها تمتد يوماً واحداً، وأعتقد انك لا تنكر ذلك!
ـ لا.. لا أنكر، ولكن لأن علاقتنا كانت بهذا الجنون، والآن سنفترق، فيجب ان تتصوري اية آلام يمكن ان تُسبب لي!
ـ لقد اتفقنا قبل الآن ان نظل أصدقاء، ان تكتب لي عن كل شيء، عن حياتك الجديدة، وأفكارك وأحلامك.
ـ سأكتب لك، ولكن بعد شهور سوف أتوقف!
ـ لماذا؟
ـ لأنّني لا أستطيع ان استمر!
ـ لا تستطيع او لا تريد؟
ـ لا أعرف...
ـ لماذا لا تعرف؟ بدأت تعذبني من جديد، وكأنَّك تلتذ بعذابي! ماذا يمنعك ان تكتب رسالة كل شهر؟
ـ سأنزل تحت الأرض، نعم سأنزل تحت الأرض لأُوْهِمَ نفسي اني أعمل شيئاً!
ـ تنزل تحت الأرض؟
ـ نعم.. قد لا يتوفر لي عمل، قد أسجن.. آلاف الاحتمالات في بلاد الملوك غير المتوجين!
ـ كأنَّك تفتش عن المتاعب، تريد ان تعذب نفسك تكفيراً عن الخطيئة التي تمارسها الآن.
ـ لا أريد ان أكفّر عن شيء، ولكن في الوطن البعيد...
ـ رسالة كل شهر...

ـ حتى الرسالة قد لا أستطيع ان أفي بها، لكن أعدك ان أحاول!

ـ يكفيني هذا الوعد.

ـ والمستقبل؟

ـ كما اتفقنا!

ـ على أي شيء اتفقنا؟ . . لقد نسيت.

ـ أتريد ان تؤلمني؟

ـ ثقي أنّني أتألم من أجلك يا كاترين.

ـ دع كاترين، سوف تفعل الشيء المناسب.

ـ ولكن أشعر اني أخطأت كثيراً!

ـ منذ البداية لم تخطىء، لم نتفق على شيء، وها انت تسافر الآن، ولكن للمرة الألف أقول لك: اذا عدت يوماً، أي يوم، سوف تجد كاترين التي تعرف. سأحاول كثيراً من أجل ألاَّ أتغيّر، ستجد صدراً دافئاً، وقلباً ينبض بتلك الذكريات العزيزة، والتي اعتبرها الشيء الوحيد الذي كسبته خلال السنوات الأربع.

ـ اذا عدت إلى هنا يوماً فليس لي سواك!

ـ وهل تظن أنك ستأتي؟

ـ لا اعرف، اذا ظللت حياً فسوف أحن إلى هذه الأرض، وسأحن إليك أكثر. . وقد آتي.

ـ يجب ان تحاول الكثير من أجل ان تأتي!

ـ لا تخافي، ولكن شرطي الوحيد ان أظل حياً.

ـ اعرف يا منصور ان الموتى لا يأتون.

ـ قد لا أموت، ولكن. . .

ـ دعنا من هذا الآن، مثلما اتفقنا أحسن، سوف نظل نشرب حتى الرابعة من بعد ظهر الغد، موعد قطارك، قطار الموت.

وشربنا، وآخر شيء أتذكّره طيف كاترين وهو يقودني الى القطار. كنت أسمع أصوات طبول، وكنت أرى اضواء ملونة، وأتذكّر ان شيئاً ساخنا على صدري وانا أقدّم تذكرة القطار الى رجل يرتدي بذلة زرقاء، طلبها مني... وبعد ذلك نمت!

12

كنت يا منصور ديكاً مع كاترين. كنت ديكاً يلبس طربوشاً وجوارب سوداء ويمر على شواربه بأبّهة ملك شرقي. لم يكن ينقصك سوى وردة تضعها في عروة السترة. لقد رأيت الياس نخلة يضع عرقاً أخضر في عروة سترته، أنت أكبر منه، أطول بقدم، يجب ان تضع وردة. وردة سوداء فاحمة، وتتقدّم خطوة كبيرة باتجاه الحاج زهدي الصناديقي، وتقول له: انا منصور عبد السلام، رجل ليس كالرجال. يجب ان تعرف يا حاج اني أُشرّفك كثيراً عندما أطلب يد ابنتك! نحن عائلة لا تنجب إلاّ العمالقة والأفذاذ! صحيح انك لم ترَ أبي، ولكن ليس في هذه المدينة أحد إلاّ ويعرفه. كان أحمد عبد السلام ملء الأسماع والأبصار. وكان كبيراً في حياته ومماته. وأنا منصور عبد السلام، استاذ الجامعة، احمل شهادة عالية، وأخطو أولى خطواتي في طريق العظمة. أريد ابنتك يا حاج زهدي.

ويبتسم الحاج وقد امتلأ فرحاً وزهواً. انه يناسب العظمة والمجد، ان ابنته تليق بهذا الرجل العظيم. وخلال فترة قصيرة ينتهي كل شيء، يتزوج منصور، ويبدأ يزحف باتجاه المستقبل الذي يفتح صدره للرجال الكبار!

الوردة السوداء هي التي كانت تنقصك يا منصور. لو وضعتها في عروة سترتك لكنت الآن ملكاً! ولكن الحاج زهدي لم يرك إلاّ

فأراً صغيراً، تقفز عن المقعد وكأنَّ ناراً تكويك. لم يكن ينظر إليك في المرة الأخيرة مثلما كان يفعل من قبل. ماذا حصل؟ مَن الذي تغيّر؟

لا تتعب نفسك كثيراً. المهم ان تفهم القوانين، اذا فهمتها جيداً تستطيع ان تحل أصعب المسائل، اما اذا لم تفهمها فلا تتعب. لا تحاول. وحتى لو حاولت فإنَّ النتيجة معروفة سلفاً.

خلال الشهر الأول ارسلت لها ثلاث رسائل. قلت لها الكثير عن الرحلة والوطن والذكريات. وقلت لها احبك يا كاترين. وفي الشهر الثاني أرسلت ثلاث رسائل وبطاقة. وبعدها توقفت لأمور طرأت. وتلقيت منها، وبانتظام، ثلاث رسائل كل شهر. كانت رسائلها حزينة. قالت في إحدى هذه الرسائل انها لن تذهب إلى البحر في هذه السنة. استغربت ذلك كثيراً، رغم انني اتفقت معها على أن تذهب، وان أبعث لها الرسائل على عنوان كتبته لي. وقالت في رسالة أخرى انها قرأت مؤخراً رسائل تشيخوف، وتريد ان تترجمها، ولن تستطيع أن تسافر. وقالت في رسالة غيرها انها ستعمل كثيراً من أجل ان تأتي لزيارتي في الربيع القادم.

بعد فترة كتبت لها: يجب ان تفكّري بشكل آخر يا كاترين، اذهبي إلى البحر، ترجمي رسائل تشيخوف، افعلي أي شيء، سوى ان تأتي لزيارتي. لن أستطيع أن أستقبلك، لأنّي بعد فترة قصيرة سأكون جندياً، سوف أقوم باداء خدمتي العسكرية.

وفي ختام الرسالة قلت: كوني واقعية يا كاترين، منصور أبعد مما تتصورين، بعيد إلى درجة انه نفسه لا يعرف أين أصبح. وقلت لها أحبك أكثر من قبل يا كاترين!

ويتوقف الآن منصور. لا يريد ان يكتب كلمة واحدة.

مات منصور. نعم مات تماماً!

بعض أصدقائه انتحروا. وآخرون قتلوا. اما الذين بقوا أحياء

فإنَّهم الآن يحسبون أيام الشهر ليقبضوا راتباً، ومهدّدون كل لحظة ان ينتقلوا بسيارات الاسعاف الى حديقة السرو او الى المقابر، لأنَّهم اكتسبوا عادات ذميمة لا يمكن ان تلائم الحياة في المرحلة الراهنة!

اما لماذا مات منصور، ومتى فلا احد من الأحياء يعرف السبب على وجه التحديد، اختلفت الروايات حول موته كثيراً:

قال بعض الناس انه عطش ومات.

وقال ناس آخرون ان الحزن الذي احسّه وهو يخدم العسكرية جعله لا يطيق شيئاً فشرب سماً ومات.

ويقول أناس غيرهم، ان منصوراً شهد حرباً وهو يؤدي خدمته الالزامية، وقد أظهر من الجبن والضعف ما دفع قائده لأن يقتله، ولقد قال القائد وهو يطلق عليه النار.. «مت أيُّها الكلب، ان جبنك يهزم أكبر جيش». وأطلق عليه ثلاث رصاصات استقرت واحدة في رقبته من الخلف، وهي التي تسببت بالوفاة. كما ذُكر في تقرير طبيب الوحدة!

وما دام منصور ميتاً، فإنَّه لا يستطيع ان يتكلم، ولا أحد في النهاية يستطيع أن يجزم بشيء حول أسباب الوفاة. لكن في وقت من الأوقات راجت اشاعة قوية ان منصور رغم موته بعث من جديد، وتستمر الاشاعة فتقول ان منصور الذي يعيش الآن يختلف كثيراً عن ذلك الذي مات رغم وجود ملامح مشتركة بين الاثنين!

اما الذي يسافر في القطار فإنَّه يشبه الديك المنتوف، وينبغي ان يكون قد عرف منصور الأول او التقى به، والأمر من الغموض والالتباس بحيث تتداخل الصور لدرجة يصعب معرفة الحقيقة من الخيال، فإنَّ المسافر الذي يجلس في الدرجة الثانية، يتذكر انه تعرَّف أثناء دراسته في بلجيكا على امرأة اسمها كاترين. ويتذكّر مرة انه تلقَّى منها رسالة حزينة. وقد قالت له في تلك الرسالة: «انتظرت يا منصور ثلاث سنين، انتظرت رغم انك لم تكتب! وفي الفترة الأخيرة تعرّفت

على زميل في العمل وقرّرنا ان نتزوج، لقد حدّثته عنك طويلاً، حتى أصبح الآن يشتاق اليك ويود ان يتعرّف بأقصى سرعة على المسيو منصور».

الجندية. الطلقة التي أصابت منصور. الهزيمة. شيء آخر لا يعرف ابداً، هو الذي جعل رجلاً يقول لامرأة بعيدة، بعيدة جداً، أحبك أكثر من قبل يا كاترين.

الانسان أحمق، هذه صفة لازمة، تتكرّر بلا توقف. وربما يتناقلها جيل عن جيل بالوراثة، اما لماذا قال منصور لكاترين أحبك أكثر من قبل؟ فلا أحد يعرف، ربما كانت نزوة، او لحظة من لحظات الكآبة الثقيلة، اذ كان منصور في ذلك الوقت قد استقر بعد ان خدم العسكرية، وبدأت ذاكرته تعود إليه تدريجياً. شُفي من الشظية التي أصابته في مؤخرة رأسه ولكن رغم ان الجرح اندمل، فإنَّ جرحاً آخر في قلبه قد أخذ ينز بدم أسود، كان ينز كل يوم، دون توقّف، ولم يجد دواء لهذا الجرح.

سمع بقصص أصدقائه الذين انتحروا بعد الهزيمة، سمع بقصص الذي ذهبوا لحديقة السرو العالية، وسمع بقصص الذين انتفخت بطونهم وأصبحوا مثل الضفادع: بطون كبيرة ورؤوس تضمر وتضمر كل يوم.

وقرّر منصور عبد السلام ان يتزوج تخلصاً من العذاب والكوابيس التي تطارده في الليل، ومن الأفكار السوداء التي تسيطر عليه في النهار.

ـ نحن يا استاذ منصور نعرف ان هذه العادات قديمة ويجب ان تزول، لكن ماذا نستطيع ان نقول لمعارفنا وأقربائنا؟

ـ المهم يا حاج ان يكون كل شيء بسيطاً وعملياً، ثم ان المرأة ليست سلعة يساوم عليها.

ـ ولكن اختها. . . كان مهر اختها أكثر من ذلك بكثير!

ـ زوج اختها ثري، اما انا فلا أملك سوى الراتب، وأعتقد ان التفاهم أساس كل شيء. قد يدفع الانسان ولكن في النهاية يعتبر ان ما دفعه يسمح له أن يفعل ما يشاء.

ـ أنا لا أستطيع. اختها تزوّجت قبل سنة!

ـ وأنا لا أستطيع، لا أدفع أكثر مما قلت لك.

ـ على أقل تقدير ضعف المبلغ، وأنا أدفع الباقي.

ـ بصراحة، ليس معي، لو كان معي لما تردّدت لحظة واحدة!

ـ يمكن ان تؤمن المبلغ. استدن من أصدقائك، من معارفك.

ـ وغير ذلك؟

ـ آسف. اعتقد اننا تساهلنا أكثر مما يجب، ولولا ثقتنا بأخلاقك ومعرفتنا بك لما تحدّثنا في الموضوع. يا استاذ منصور، أولاً وقبل كل شيء، الأخلاق، نعم الأخلاق.

ـ لنؤجل كل شيء الآن. واترك لي فرصة لأفكّر.

ـ القضية بسيطة، ولا تستوجب التفكير والاختلاف!

ـ كما ترى يا حاج.

ـ والله يا أستاذ منصور المال ليس مهماً، المال يأتي ويروح، المهم الأخلاق والسمعة الحسنة، وأنت ولله الحمد، منصور عبد السلام على عيننا ورأسنا.

ـ شكراً. . هذا من فضلكم!

ـ الأخلاق. . الأخلاق أستاذ منصور.

وبعد شهور وعلى نفس المقعد، جلست. قال لي الحاج زهدي الصناديقي:

ـ المهر مثل اختها والموضوع الآن اختلف عن السابق، كنت موظفاً، أستاذاً في الجامعة. أمَّا الآن. . .

وسكت لم يضف كلمة واحدة!

ـ يا حاج انت تقدّر أحسن من غيرك. الأوضاع الراهنة مؤقتة. صحيح انني سُرّحت من الجامعة، ولكن فرص العمل ما تزال كثيرة، واذا تعذّر عليّ العمل هنا أُسافر!

ـ تسافر؟ لا نزوِّج ابنتنا على سفر.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ الأفضل أن تؤجِّل الموضوع الآن!

ـ لماذا؟

ـ لا حاجة لأن.. ثم ان الزواج يحتاج إلى مال.. هل تملك شيئاً؟

ـ في الوقت الحاضر.. لا.

ـ ولكن الزواج يحتاج إلى مال، وغداً الأولاد. لنترك الزواج الآن، المهم ان تفتّش عن عمل.

ـ لا أشترط أن يتم الزواج فوراً. المهم الآن الخطبة.

ـ وكيف ستتزوج؟

ـ نؤجِّل الزواج!

ـ والله الأفضل ان نؤجّل كل شيء!

ـ إلى متى؟

ـ إلى ان يشاء الله. حتى يتغيّر وضعك.

ـ واذا طال الأمر؟

ـ لكل حادث حديث.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا أقصد شيئاً، ولكن كما قلت لك، الزواج يحتاج للمال، وبعد ذلك البيت والأولاد. أنت تعرف كل هذه الأشياء!

ـ المهم ان تتم الخطبة...

ـ المهم العمل، وبعد ذلك نتحدّث عن الزواج.

وانتهى الأمر. تزوَّجت سهام بعد أربعة أشهر من تركي للعمل، جاء مهندس وتزوَّجها وسافرت معه!

«والأخلاق يا حاج زهدي؟»

«الأخلاق.. الأخلاق أهم من كل شيء يا أستاذ منصور».

وتزلزل الدنيا تحت قدمي، وأشعر ان كل شيء كاذب، حتى عندما يذكر الانسان اسمه!

لو كنت أضع وردة سوداء في عروة السترة لقلت للحاج: انا منصور عبد السلام.. اشرفك كثيراً إذا تزوّجت ابنتك. واذا لم يبتسم فسوف ابصق في وجهه واخرج. اما كيف قضيت الوقت الباقي وكيف خرجت، فلم أعد أتذكر شيئاً، سوى اننا سفحت فنجان القهوة على بذلتي الرمادية الجديدة ووقعت في بركة ماء صغيرة، خلفها المطر الذي انهمر بعد ظهر ذلك اليوم.. لقد جعلني ذلك المطر أتشاءم كثيراً وانا أتجه الى بيت الحاج زهدي الصناديقي من اجل ان أتزوج ابنته!

13

... **خرجت** من بيت زهدي الصناديقي، تلك الليلة، يائساً ومتعباً، ولـم أجد أمامي سوى بار عايدة، قلت لنفسي وأنا أقطع زقاقاً ضيقاً مليئاً بالحفر التي تحوَّلت إلى برك، لأَصل الشارع الرئيسي قبل الميدان: انت مجنون يا منصور، وإلاَّ كيف تفكّر بالزواج الآن؟ هل لديك ما يكفي لشراء الأثواب والفراش والخشب؟ هل لديك ما يكفي لتقيم حفلة مثل تلك التي أُقيمت لأختها قبل عام؟ والحاج زهدي، صحيح انك تكنّ له احتقاراً يكاد يندلق من عينيك ومن ابتسامتك التي لا تخفى على أحد، خاصة عندما يبدأ يتحدث معك في السياسة، ولكن يبقى الحاج رجلاً عملياً. يريد ان يوفر لابنته الشروط التي تجعل زواجها ناجحاً! عليك ان تفهم الناس يا منصور، وان تقدر ما يجول في رؤوسهم من أفكار!

أمَّا سهام فقد نظرت دون اهتمام، عندما كنت تتحدث مثل اسقف تعب كثيراً وهو يحضر كلماته وأفكاره، كانت تنظر بحياد، وكأنَّ الأمر لا يعنيها!

والكلمات الكبيرة، والأحلام والحضارة، كل هذه البضاعة التي تؤرقك لا تعني شيئاً بالنسبة لها.

قالت لك ذات مرة، وأنت تحاول اقناعها ان تفكّر مثلك!

ـ ليس لي رأي، المهم ان تتفق مع بابا. .

ـ ولكنك أنتِ التي ستتزوجين يا سهام!

ـ اعرف، ولكن بابا هو الذي يقرّر كل شيء!

ـ وأنتِ. . . ماذا تقرّرين؟

ـ هل تريد ان تحرجني؟

ـ ولكن أسألك من جديد: هل تحتاجين إلى هذه الأشياء الآن؟ ماذا لو رتبنا البيت بطريقة اخرى؟ بدل الغرفة الكئيبة التي يسمّونها غرفة ضيوف نشتري أشياء عملية ومفيدة. . . مكتبة مثلاً:

ـ وأين يجلس الضيوف؟

ـ ليجلسوا معنا في نفس المكان الذي نجلس فيه.

ـ ونبقى دون غرفة ضيوف؟

ـ لا أقول ذلك، ولكن نؤجّل شراء هذه الأشياء إلى حين نعثر على بيت آخر، وبعدها يمكن ان نرتب كل شيء بعناية!

ـ والستائر وغرفة النوم. . . أتريد ان تحذفها أيضاً؟

ـ المهم ان نتفق يا سهام، هل يمكن ان نتخلص من هذه التقاليد السخيفة، ومن الركام الأبله الذي يسمّونه جهازاً؟

ـ منصور. . . كما قلت لك لا تبحث معي هذه الأمور، اتفق مع بابا.

ـ سهام. . . أريد ان أتفق معك أنت، اذا اتفقنا نحن فمن السهل ان نتفق مع أبيك.

ـ والناس. . . ماذا يقولون؟

ولم نتفق.

كان مثل هذا الحديث يجري بيننا في وقت مبكر، عندما كنت أذهب وأنا في الجامعة لبيت زهدي الصناديقي!

أمّا الآن فقد ولّى كل شيء. . .

كان الأب يجلس مثل ملك الموت، وتخرج الأم وتنادي عليه. وخلال اللحظات التي يتركوننا كنت أحاول ان أقول شيئاً، ولكن جو الغرفة اللعينة كان يوحي لي بالصمت: الزهور الصناعية تطوقني من كل ناحية، ألوان المقاعد والستائر فجة وكأنّها اصبع ممدود في العين، ثم صورة الحاج زهدي الصناديقي تطل علينا مثل اطلالة الشرطة والمحققين من شقوق الأبواب ونحن في الزنزانة!

فكّرت بكل شيء وأنا أقطع الزقاق المعتم، وما كدت اصل بار عايدة حتى شعرت ان حملاً ثقيلاً ينزاح عن كتفي. قلت لنفسي وقد سيطر عليّ شعور التحدّي:

«ليذهب الحاج زهدي الصناديقي الماوردي الأصفهاني الثعالبي إلى الجحيم.. ليذهب وجميع أفراد العائلة، بما فيهم الآنسة المصونة، سليلة المجد والعفة والأدب.. الآنسة سهام».

وبدأت أشرب، ولكن بفرح، لأنّي نجوت من مصيدة، بل من مكيدة كان يدبّرها لي بمكر ثعلب مجرب، الحاج زهدي الصناديقي.

انسَ يا منصور الذكريات اليائسة، انسَ البيوت العريقة والزهور الصناعية والصور الموضوعة في اطارات ذهبية مزخرفة. انتفض الآن مثل ديك في شمس الخريف الدافئة.

كانت الشمس مثل شيء كبير كبير بين الغيوم الراكضة ولكنها ثقيلة فوق القطار لا تتركه، لم أستطع ان انظر اليها طويلاً. شعرت ان لطعمها ملوحة.

انها تختلف عن الشموس في الأماكن الأخرى..

رأيت الشمس هكذا، مرة كنت على ضفاف البحر الأسود، كانت مشعة قاسية، حرقت بشرتي، حولتها إلى السواد فأصبح جلدي مثل جلد البقر، غمست قميصي بالماء ووضعته على ظهري العاري لكي يعينني على احتمال الحروق، لكن الماء المالح انغرز في عظامي. آلمني. صرخت. كانت تجلس بجانبي تقرأ كتاباً. التفتت

حين سمعت صرختي الصغيرة. نظرت إليّ من تحت نظارتها السوداء، وابتسمت!

في الليلة الأولى رقصنا معاً، وخلال الأيام التالية لم نفترق.

ابحث في دفاترك القديمة يا منصور عبد السلام. ابحث مثل اليهودي العتيق، واحدة بواحدة، فما دام الحاج زهدي الصناديقي صدك مثل كلب، ألاَ يوجد صدر احتضنك ذات يوم؟

.. نعم في الليلة الأولى رقصنا معاً. وخلال الأيام الثلاثة التالية لم نفترق، وبعدها استقرت حقيبتها في إحدى عربات القطار المسافر إلى بودابست، نزلت الى الرصيف مرة ثانية. كانت حزينة ومتماسكة. نظرت في عيني وقالت:

ـ لو اتيت في وقت مبكر لقضينا فترة ممتعة... وطويلة.

ـ سوف أتذكر هذه الأيام الثلاثة أكثر من الأيام الأخرى!

ـ لماذا؟

ـ لأنّي عرفتك وعشنا معاً.

وصمتت قليلاً ثم قالت بسخرية حزينة.

ـ بعد قليل، عندما يتحرك القطار، سوف تذهب لتفتش عن امرأة أخرى!

ـ لن أفعل.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّ وجودك سيبقى حاضراً معي ولن أحتمل ان تأتي امرأة مكانك. وصمت أريد ان أتذكر الدفء الحاد وأصابعها تنغرز في لحمي المحروق، وقلت وأنا أتذكّر كل شيء..

ـ أية امرأة لن تكون مثلك...

ـ أتتكلم بصراحة؟

ـ منتهى الصراحة!

ـ أتحبني؟

قلت بصوت بطيء وخافت. .

ـ أخاف من هذه الكلمة. أخاف ان اخطىء باستعمالها، ولذلك قرّرت ان أنساها!

ـ اذن لا تحبني!

ـ لم أقل ذلك، واذا أبعدنا هذه الكلمة بالذات فإنِّي أحسّ نحوك بمشاعر لم أحس بمثلها منذ وقت طويل!

ـ عن أية أحاسيس تتحدّث!

ـ أشياء غامضة لا أعرف كيف تجيء. صدّقيني لا أعرف، ولا أستطيع ان أعبّر عنها!

ـ حاول ان تقول الأشياء بكلمات.

ـ قلت لك لا أعرف كيف أصفها، كيف أنقلها اليك بكلمات!

قالت وقد بدا الضيق في عينيها.

ـ ألم تعرف الحب في حياتك؟

ـ لا أريد ان أعرفه.

ـ وهل عرفته ذات يوم؟

ـ هل انا مجبر على الاجابة؟

ـ لست مجبراً على شيء!

ـ لنتحدّث في أمور أخرى. لم يبقَ إلاّ وقت قصير وتذهبين.

ـ ألا تحب ان نلتقي مرة أخرى؟ أن نعيش معاً؟

قلت دون أن أُفكّر.

ـ أتمنى ان يحصل ذلك!

ـ ولماذا لا يكون الآن؟

ـ كيف؟

ـ تسافر معي

ـ لماذا لا تبقين هنا فترة أطول نفكّر في كل شيء، ثم نقرّر؟

ـ لا يمكن ان أبقى. إلاّ اذا. . . وسكتت لحظة ثم أضافت وعلامات الحزن تتحرك في رقبتها وفي عينيها: أُمّي تنتظرني غداً في بودابست.

ـ يمكن ان ترسلي لها برقية تقولين لها انك لن تأتي غداً.

ـ ولماذا يجب أن أبقى؟

ـ لكي نفكر!

ـ وبعد ذلك؟

ـ لا أعرف. .

ـ اذا كنت تحبني يمكن ان أبقى، واذا كنت تريد ان تعيش معي فيمكن ان أذهب معك إلى آخر الدنيا، لا أريد شيئاً سوى ان أذهب معك. اما اذا كنت تريد. . .

وصفَّر القطار. تشبثت برقبتي، جرَّتني، قبّلتني مثل مجنونة، دفعتني تريدني ان أصعد معها، ولكنّي تجمّدت في مكاني. لم أستطع ان أفعل شيئاً. توقَّف عقلي عن التفكير.

وصفَّر القطار مرة أخرى. ارتمت على رقبتي. شعرت بالدفء والرغبة بالبكاء. قالت:

ـ اصعد ولن تندم، واذا لم ترد قل لي كلمة ابقى!

ولكنّي نظرت إلى السماء، إلى العربة، فبان كل شيء بلون أخضر ميت، حتى وجهها رأيته يشحب ويتلاشى.

لم أعد أرها. .

وعندما تحرَّك القطار كانت يدها تلوّح لي من النافذة بحزن.

لم تكن تلويحة وداع، كانت تعني الأسف، الحب المهزوم، العجز، كانت شيئاً يخترق الانسان ويستقر في مكان بعيد، لا يعرف أين، ولكنه يخضه، يعذبه، يبكيه.

انفجرت في قلبي رغبة مفاجئة، ان أضمّها، ان ألحق بها. ركضت، احتك كتفي بمأمور المحطة الذي يقف في نهاية الرصيف، نظر إليّ بأسف وامتدت يده توقفني، أسرع القطار. ارتفعت سحابة بيضاء فملأت الجو. ولما ابتعد وأصبح مثل طير، كنت أرى وجهها يكتسب خضرة زاهية..!

انتعشت روحي. ركضت وراء القطار. ركضت بجنون فوق القضبان ثم تعبت، توقفت، وفجأة بدأت أبكي. لا أعرف لماذا... وحتى الآن لا أعرف!

والحاج زهدي...؟

«الأخلاق.. الأخلاق يا أستاذ منصور».

ـ لماذا تركتها تذهب؟ لماذا؟ لماذا؟

14

... كان ذلك منذ وقت طويل!
والآن ماذا لديك يا منصور؟

انت بالتأكيد ذبابة، فأر أعرج، ثور مربوط العينين يدور حول نفسه، حول شيء اسمه منصور عبد السلام. ليس في حياتك منذ البداية حتى الآن شيء يستحق أن يُحكى، ولكن عندما جروا قدم الحصان ليضعوا لحافره حذوة جديدة، قدم الفأر رجله، وقال: وأنا ايضاً!

لا تشبه في شيء الياس نخلة. اتركه يستعيد ذكرى القبر الشامخ الذي بناه في ظهيرة يوم خريفي، وذكرى سلطان الذي لا يشبه أي حمار في هذا الكون. أمَّا الأشجار.. التي قطعت والتي تنمو الآن فإنَّها تقف مثل البروق المتوهجة في ذاكرته. وأنت يا منصور عبد السلام، الرجل الضامر الذي يلف نفسه في بدلة رمادية ناصلة قليلاً من فرط ما رأت من عيون الموظفين الكبار ورجال التحقيق، أمَّا انت فلا تمدد لسانك مثل ذلك الفأر.

تتصور حياتك في ساعات معينة كأنَّها حياة نابليون، ولكن في ساعات أخرى تتصورها مجدبة منحطة، ليس فيها أي شيء. الصورة الثانية هي الحقيقة المطلقة، هي انت الذي يقضم أظافره، الذي يدخن بشراهة ذئب، الذي يريد ان يحوّل بحار العالم إلى عرق ليشربه، ليغرق فيه!

حياتك التي تتصورها مثل حياة نابليون مقلوبة على قفاها. انتصارات نابليون تقابلها هزائم، عشيقات نابليون تقابلها أحلامك في النهار وأنت تفتح فمك ببلاهة وتنظر في الفراغ. وحتى هزائم نابليون رغبات بهزائم لن تقع بالنسبة لك!

أفضل لك أن تخرس. . . أتسمع؟

الشمس تتدفق مثل شلال، تغمر العربة ويرتفع خيط من الغبار وانت تحرّك قدمك مثل ابليس، تتصور ان القدم شيء لا صلة له بالجسد. افعل مثلما يفعل المجانين. حرّك قدميك، وحرّك ذراعيك، ستكتشف أشياء جديدة، مذهلة. وسوف تقودك هذه الاكتشافات يوماً إلى حديقة السرو.

ـ هل عندك أحد يا بني؟ هل المحلات هنا فارغة؟

وتدخل امرأة، وراءها شابة لا تتجاوز العشرين، دق قلبي وأنا أنظر إلى هذه الشعلة من الأنوثة المتدفقة. ظفرت يا منصور. مَن صبرَ ظفر. الآن يمكن ان تتحول الى انسان آخر. المرأة الشابة لك. كلها لك. الجسد والعينان والشعر. . انتفض مثل ديك، الق الغبار عن روحك، استعد للمواجهة. . مواجهة القدر! امرأتان حقيقيتان، الصغيرة لك. لا تريد غيرها. لقد جاءت على رجليها، نعم انها تمشي بخجل، ولكن أية امرأة لا تفعل ذلك؟

ـ اقعدي يا بنيتي. هنا أفضل ألف مرة!

اقعدي في قلبي، قلبي أجمل مكان يمكن أن تجلسي فيه، اجلسي وامددي قدميك.

عيناها إلى الأرض. الدم يتفجر من خدّيها. والأهداب الطويلة طويلة مثل خيمة سوداء، مثل عرائش العنب.

ماذا أقول الآن؟ لأفكر. لأبتدع اجمل الصور، أدق الكلمات. وأقف مثل متسول وأقول لها: أريد انساناً أتحدّث معه. أريد امرأة

لأنظر في عينيها واغرق. هل تستطيعين أن تكوني لي مثلما كانت حنة لالياس نخلة؟

ولكن أي شيء يهمها من حياتي؟ وما هي حياتي التي أحملها على ظهري مثل قربة وأركض بها؟

اترك الأفكار المشوهة يا منصور. اترك الأحلام. اقرأ. تحدّث بالأمور العادية. الانكليز عندهم المطر، ودائماً يتحدثون عنه. ماذا عندك أنت؟ اترك الجوانب المظلمة من حياتك الكبيرة الحافلة بالمآثر. اتركها الآن، لأن القبر وحده يستطيع ان يضمها بحنان ذات يوم!

ـ قلت لك يا ابنتي لا يجوز ان تتحدّثي مع الرجال!

ـ وماذا أفعل؟

ـ لا تلتفتي اليهم. انهم لا يريدون من السؤال إلاّ أن يتحرشوا!

ـ هل يجب أن أبقى خرساء؟

ـ ولكنك رأيت بعينيك، أوّل مرة سألك إلى أين تسافرين، ثم سألك هل هذه أمك أم قريبتك، وبعدئذ سألك أنتِ متزوجة أم لا...

ـ ليس في هذا شيء.

ـ أنا سمعت الذي كان يجلس الى جانبي وهو يقول لصاحبه: علقت السنارة يا محروس!

ـ لا يهمني ما يقولون!

ـ ولكن البنت المؤدّبة يجب ألا تعطي عيناً للرجال!

ـ وماذا فعلت؟

ـ أنا لا أقول انك كذا وكذا، ولكن هذه عادة الرجال دائماً. أوّل مرة يسأل عن الوقت. وآخر شيء يعتدي عليك.. أنا أعرف الرجال!

ـ ماذا تتصورين، في القطار، في النهار، وانت معي؟
ـ يا ابنتي الباب الذي يأتي منه الريح...
ـ خالتي.. بربك كفى.
ـ انا لا أتكلم إلاً من أجلك، اذا ضايقك هذا الكلام أَسكت..
ـ لم يضايقني، ولكنك تتوهمين!
ـ أنا؟
ـ نعم أنت!
ـ مثلما تريدين، ولكنِّي أعرف الرجال أحسن منك يا بنتي!

مثل بوابة السجن عندما تهزها اليد المشعرة القوية وتغلقها، هكذا أغلقت امامك البوابة يا منصور! سمعت كل شيء. لا تحاول اذن. لا تقل كلمة واحدة. لقد هربت المرأة عندما سألوها هل انت متزوجة ام لا... وانت بماذا تحلم الآن؟

عيناها كبيرتان مثل عيون الغزلان، أهدابها خيمة حريرية، جسدها الناحل الرشيق دافىء مثل ليالي تموز. وقد تحلم أكثر، قد تفكّر ان تمد يدك إلى شعرها، إلى هذا الليل الافريقي الداكن، وقد تلمس ساقيها، وقد تفكّر ان تمد يدك إلى صدرها، وتتركها هناك. يمكن ان تحلم أكثر. لا أحد يحاسب على الحلم، قال لك معلمك الياس نخلة ان الأحلام الشيء الوحيد الذي يمارسه الانسان دون رقابة أحد!

ماذا تستطيع أن تفعل؟ حاول ان تقول شيئاً، ولكن العجوز بعينيها الرماديتين الباهتتين سوف تقول: اخرس أيُّها الداعر. وقد تصرخ وتجمّع عليك الناس. واذا لم تشأ ان تفعل شيئاً من هذا فسوف تمسك القديسة التي تراها الآن أمامك وتخرجان معاً. كن مؤدّباً يا منصور. ارخ عينيك ولا تبتسم ببلاهة. اترك مصيدة الذباب التي تتدلّى من عينيك، ولا...

ـ خالتي هذا المكان فارغ أيضاً. يمكن أن تجلسي هنا مع اتجاه القطار!

ـ شكرا يا ابني... هذا المكان يكفي!

نظرت اليك العجوز تريد ان تمتحن كلماتك، نواياك، ألم ترَ المكان الذي تشير إليه، وكأنَّك الخوري سمعان، أو كأنَّك طفل بريء... ألم تره فارغاً؟

ـ ألستِ أنتِ التي طلبت منهم ماء أوّل الأمر؟

ـ نعم يا ابنتي، ولكن ليس معنى هذا أن يعتدوا على الناس!

ـ لم يقولوا شيئاً. اسئلة عادية.

ـ مائة مرة قلت لك ان القضية تبدأ هكذا، ثم تتطور...

ـ طيب.. طيب.

ـ هل غضبت؟

ـ لا ولكن انت تصنعين من الحبة قبة، دائماً تتوهمين، تشكين بالناس، وأنا بعد ذلك لست صغيرة وأعرف كيف أتصرف!

ـ اذا كنت تريدين أن نرجع إلى نفس المكان تفضّلي!

ـ هل قلت انني أريد ان أرجع؟

ـ أراك تغيرت، كأنَّني ارتكبت ذنباً كبيراً!!

ـ لا... ولكن من العيب امام الناس ان تتحدثي معي هكذا، وفوق ذلك انا لست صغيرة.

ـ ماذا قلتُ؟

ـ هل نسيت؟ تكلمت معي وكأنَّني طفلة!

ـ ماذا قلت؟

ـ انهضي يا بنت. الرجال لا يعطون وجهاً. كبّرتم كلامكم. ماذا تظنون... بنات شوارع؟

ـ وهل في هذا الكلام أي شيء؟

ـ كان ممكناً ان تطلبي منّي ان نغيّر المكان دون ضجة.

ـ انت غاضبة لأنّي قلت لهم عيب هذه الأسئلة.

ـ هذه آخر مرة أسافر معك. المرة القادمة سوف أسافر وحدي!

ـ لا تعمل خيراً شراً لا ترى.

وتضحك القديسة، تضحك بعصبية، وتصمت!

وأنت يا منصور، يا فارس، ماذا تستطيع ان تفعل الآن؟ هل استوعبت الدرس جيداً؟

أية رغبات تجول في رأسك؟ أية أحلام، تسافر في الجلد الملفوف ببذلة رمادية ناصلة اللون؟ ها تحدَّث. تقدّم. كن رجلاً. لا تتبجح بحياتك الماضية، لا تذكر كلمة واحدة، وحتى الذكرى محرمة عليك. أين كاترين الآن؟ وأين تلك البنت المجرية التي غابت عنك ملامحها ولم تعد تتذكرها إلاّ اذا رأيتها مرة أخرى...؟

ورحاب؟ وليلى؟ انسَ كل شيء. الآن، إمَّا ان تكون رجلاً، فارساً، أو انت ذبابة، فأر أعرج. كنت تريد أحداً لتحدّثه عن حياتك، عن منصور عبد السلام الذي يسافر الآن.

تراجع خطوة إلى الخلف.. مائة خطوة وخطوة. في الزاوية ذليلاً منبوذاً اقرأ. احلم. افعل اي شيء، ولكن افعله وحدك!

لو كانت الفتاة وحدها لقلت لها انك بطل وشهيد، لقلت لها انك حزين ووحيد، لقلت لها أريد انساناً يضع راحته تحت رأسي المتعب. أريد نظرة عطف. لقلت لها اشعار العالم. ولكن العجوز اللعينة تحاصرك الآن. تسد في وجهك الطرق، وحتى النافذة الصغيرة التي يطل منها كل انسان على العالم، نافذة العين، تريد العجوز ان تقفلها.

لن تستطيع ان تسأل الفتاة عن عمرها، عن اسمها! لن تستطيع ان تسألها أين تسافر. اما ان سألتها أمتزوجة أنت أم لا تزالين عذراء. أما هذا السؤال فإنّه محرم عليك، امضغ الأحلام والأفكار والذكريات

مثل أرنب، امضغها جيداً، لعلها تكون لك زاداً في هذه الرحلة الطويلة والمجهولة.

والعرق؟ هل تستطيع أن تشرب عرقاً الآن؟

آه... لم يعد الانسان قادراً على شيء. قبل قليل كنت تفتش عن انسان، أي انسان، أمَّا الآن فإنَّك تريد أن ترتد، ان تنزلق تحت الجلد وتخبىء رأسك. آه لو ان الياس نخلة موجود الآن. لو انه هنا لضحك مثل طفل، لتحدّث مثل خطيب الجمعة، لجرَّ العجوز من شيبتها وقال لها أشياء انفجرت بعدها بالضحك وبعدها يغمز بعينيه، وتتقدم انت مثل القائد الظافر... تتحدّث بثقة الملوك، وتتصرف مثل أي رجل في غرفة نومه!

«اسمعي... سنذهب الآن إلى شاطىء البحر. لن نبقى هناك طويلاً، حتى الخامسة، وبعدها سنذهب إلى الفندق. أموافقة على ذلك؟ وتهز رأسها، وتمسك بها من خصرها وتركضان على الرمال الساخنة، وتسمع صرخات صغيرة مثيرة.. ولا تتمالك نفسك!».

15

منصور عبد السلام، مدرّس سابق في الجامعة، كلية الآداب، قسم التاريخ.

من حيث الأوصاف ليس له صفات محدّدة. وكما في جواز السفر العلامات الفارقة: لا شيء. يشبه عدداً لا يحصى من الناس. ليس طويلاً وليس قصيراً. ليس نحيلاً ولا مفرط السمنة. تجاوز الخامسة والثلاثين. يدخن. يشرب. يقرأ كثيراً. له عدد من الأصدقاء. غير متزوج!

منصور عبد السلام يسافر الآن بالقطار. يركب عربة في الدرجة الثانية، يجلس باتجاه سير القطار. أمامه ثلاثة كتب: «ملحمة جلجامش»، «الجيل الخائب»، «التنقيب عن الماضي». يقلب الكتب بملل، يقرأ ولكنه لا يستوعب، يتيه في أفكار بعيدة ومضطربة، يفكّر في الأيام القادمة، يفكّر بحياته خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة. يشرد في بعض اللحظات إلى أيام بعيدة جداً، فتبدو له هذه الأيام لبعدها معتمة. تتخايل أمام عينيه كأنّها أشباح، والأحداث التي جرت خلالها وقعت أم لم تقع لا يدري، ولكنه يرى في تلك الأيام البعيدة صوراً حادة، يراها بتفاصيلها الصغيرة، حتى لكأنّها تحصل الآن، في هذه اللحظة.

منصور يسافر. نعم يسافر. حالة واقعية تماماً. ليست حلماً ولا رغبة مستحيلة كما كانت من قبل. يسافر ليبدأ عملاً جديداً.

شعور عميق بالراحة، لا يشوبه الاحساس بالفجيعة الذي أحسه ذات يوم، قبل أكثر من عشر سنين، عندما كان يسافر لأول مرة خارج الوطن. لقد كبر كثيراً منصور عبد السلام، اتزنت انفعالاته، استقرت. أصبح يفكّر بهدوء، ويتخذ قراراته بهدوء.

لا يحس منصور إذن وهو يفارق الوطن هذه المرة انه مفجوع أو كئيب، ولكن لا يشعر بالسرور أيضاً. «السرور وهم كبير». إنّه الآن أشبه بإنسان يقوم بعمل عادي، كأن يأكل مثلاً. انه يؤدي مهمة ضرورية، ليس لأنه جائع، ولكنه يشعر بالواجب. شعور بالراحة، ليس أكثر ولا أقل. هل فهمتم هذه الصورة الكئيبة والمعتوهة؟

سفر منصور حقيقة واقعية. ومن الأدلة التي تؤكّد هذا السفر، انه الآن في القطار، في عربة الدرجة الثانية، يجلس باتجاه سير القطار، ومن الأدلة أيضاً الأشياء التي أمامه. الكتب الموضوعة على الرف الصغير الذي جرّه من داخل العربة، وسنده لكي يضع عليه الكتب وعلبة السجائر. والشيء الآخر هاتان المرأتان اللتان تجلسان الآن على الكرسي الذي يقابله. يلاحظ منصور اهتزازات القطار في الليل الرتيب، في الصوت، في الوجوه التي أمامه!

كانت الرغبة تملؤه لأن ينظر إلى الفتاة، لأن يتحدّث معها، ولكن العجوز سدّت في وجهه الطريق. قتلت الرغبة، او جعلتها مستحيلة، ولم يملك القدرة على ان ينظر إليها مواجهة. انه الآن يسترق النظرات مثل لص، يشتهيها على البعد، يحلم انه نائم معها. وإذا أغمض عينيه قليلاً يمكن ان يتصورها امرأة أخرى.

ان لدى منصور فلسفة خاصة، فلسفة بسيطة تتلخص في ان كل انسان قادر على ان يتخيل أي شيء، ما عليه إلاّ ان يغمض عينيه ويركّز أفكاره، أو ينظر إلى الغيوم. كان يستطيع ان يرى في الغيوم خيالاً، وقد رأى مرات كثيرة وجوه نساء. وكثيراً ما كان يرى امرأة يعرفها. وفي حالات معينة رأى قطة وكلباً يتعاركان. ليس هذا فقط،

يستطيع منصور ان يفعل أشياء كثيرة، اذ زيادة على التخيّل، يستطيع أن يحلم...

هذا هو منصور عبد السلام. قد يقال انه لم يعد سوياً، او انه غامض وخطير. وقد يصفه الناس انه حالم وخيالي. ولكن ماذا يستطيع ان يفعل ازاء الحياة التي يعيشها؟

لقد أصبح قاسياً في الفترة الأخيرة، قاسياً وشرساً، واتجاه مَن؟ اتجاه نفسه، حتى وهو ينظر إلى المرآة. كان يبصق إذا رأى وجهه، ويلتذ وهو يشتم نفسه، وتتملكه الغرابة وهو يسمع صوته، وكأنَّه صوت انسان آخر.

ومن أغرب الأمور التي لاحظها، وكان ذلك شيئاً مفاجئاً تماماً، ان صوته يشبه صوت الكلاب. وقد اعتبر الحالة شاذة إلى درجة تحتاج إلى علاج، وهو ينوي ان يعالج نفسه عندما تتوفر له الأموال اللازمة.

أمّا كيف حصل ذلك؟

فقد كان ذات يوم يتحدّث إلى الطلاب عن قيام النظام الملكي. كان الصمت يخيم على القاعة. الطلاب ينظرون إليه بلهفة، يتابعون كلماته. وفجأة اكتشف صوته. حتى تلك اللحظة لم ينتبه، ولكنه أمال برأسه قليلاً فاكتشف ان صوته غريب وقاس حتى انه كان أقرب إلى عواء الكلاب. لما حصل ذلك ضاعت أفكاره. ضاعت الكلمات التي كانت جاهزة في رأسه ليقولها، توقّف. نظر طويلاً إلى الطلاب. عاود الكلام من جديد. أصبح صوته عدواً له. لم يطقه. لم يحتمل أن يسمعه. توقّف تماماً. نظر إلى الطلاب وفي عينيه رجاء كبير أن يغفروا له. ولكن نظرات الطلاب كانت تمتلىء دهشة ثم تساؤلاً، حتى أصبحت استغراباً.

سألوه ان يتابع، كانت أصواتهم صغيرة راجية. سألوه ان كانوا

يستطيعون ان يفعلوا شيئاً من اجله. ان يحملوا له الماء مثلاً، ان يفتحوا النوافذ، ولكن بهزات رأسه رفض كل شيء. سحب سيجارة وبدأ يدخن. ثم استقر رأيه على ان يقف، وقف وهو لا يدري ماذا يفعل. نظر إلى الوجوه التي أمامه والتي بدأت تمزّق الصمت بهمهمات صغيرة، ثم بدوي هائل ملأ كل عقله. لم يجد أمامه سوى اللوح. امسك بالطباشير وكتب: «آسف. لم تعد حنجرتي تساعدني على الكلام. أرجو المعذرة».

خرج والسيجارة في يده، وأخذ يكيل لنفسه الشتائم. لو أحد مشى إلى جانبه لسمعه يقول: طز عليك يا منصور عبد السلام هل اكتشفت في صورتك مغني أوبرا؟ هل اكتشفت القارة المفقودة؟ ليس ذلك كل شيء، أصبح منصور لا يحتمل أي شيء. الريح تضايقه، تخلق في نفسه نرفزة تصل حدو الكآبة. كان يشتم الريح. يشتم هذا الغبار الذي يتطاير على شكل أوراق شجرة ميتة واهتزازات شبابيك!

وإذا لم يأت وراء الريح المطر، كان يصرخ وقد امتلأ غيظاً: كل هذه العربدة ولا قطرة مطر؟

هذه حالة مألوفة. الطبيعة داعرة مثل البشر، الطبيعة تصرخ، تنادي، تستغيث، تريد ذكرا!!

أمَّا المرآة فقد أصبحت أشد الأعداء لمنصور عبد السلام. كيف يستطيع الانسان ان يقف ساعات ليرى نفسه في المرآة؟ ألا يموت غيظاً؟ وقد استنتج ان المرأة والمرآة لعنات من القدر، تمتحن بهما قوة الرجال ومدى قدرتهم على الصمود!

وقرَّر ألاَّ ينظر في المرآة، قال لنفسه بشراسة: إذا كنت رجلاً يا منصور يجب ان تحلق ذقنك كل يوم دون مرآة، وأصبح يحلق دون ان ينظر إلى المرآة او إلى زجاج النافذة. كان يعتبر عينيه نافذة إلى الخارج. أمَّا إذا انعكست في المرآة فإنَّها ترتد إلى داخله وتؤذيه. لم

يعد ينظر إلى عينيه، هذا ما فعله تماماً، وفاتته الحبوب الصغيرة التي بدأت تطفح على وجهه وأذنيه، ولولا أصابعه التي أصبحت مثل مجسات دقيقة، لمرض وربما مات.

وتحوَّل منصور تدريجياً، دون ان يلاحظ ذلك، إلى التشاؤم. الريح أكبر مظهر للرعونة، انها تفسد مزاج الانسان، وبعض الأحيان تفسد عفويته. حبات الرمل التي تستقر تحت أجفانه مثل النصال حادة. القطة السوداء التي تقف على جدار البيت، خلف الحديقة التي تواجهه، شيطان يحمل كل معاني اللؤم والخسة.

بائع الحليب الأعور يداهمه كل صباح وكأنَّه مكلّف من جهة ما لأن يفسد عليه مزاجه. ليس ذلك فقط لماذا أصبح مستحيلاً عليه ان يجد الحاجات التي يفتش عنها؟ لماذا أضاع ورقة اليانصيب التي اشتراها قبل أسبوعين؟ انها ترقد الآن في مكان ما، ربما وضعها انسان، أو وضعتها قوة ما، في مكان بعيد، لكي لا يراها. إنَّها رابحة، فهو متأكّد من ذلك، ولكن أين هي الآن؟ ولماذا ضاعت؟ وامتد التشاؤم الى عروقه. لكن التدخين يساعده. يمتص جزءاً من عذابه، وكذلك العرق يمتص الجزء الآخر! منصور الآن يدخن بإسراف، هكذا يقولون. اما هو فيقول: لا أدخن إلاَّ ما ينبغي، لا أدخن إلاَّ ما أحتاجه بالفعل. وفي الحقيقة فإنَّه لا يشعل سيجارة إلاَّ إذا شعر بحاجة، برغبة. في لحظات معينة كان يقاوم رغباته، ولكنه تأكّد في النهاية ان مقاومة الرغبات تولد في الجسم مرضاً أكثر من ضرر التدخين!

والعرق... هل يضر أحداً اذا شرب؟ ليتركه الناس يفعل ما يشاء. هل أخذ أموالاً من أحد ولم يعدها؟ انه يشرب من ماله الخاص، أو من المال الذي سوف يعيده ذات يوم، ويعتبره الآن مجرد قرض! الناس فضوليون لدرجة منغصة. انهم بالضبط يتدخلون في أمور لا تعنيهم «لا تشرب كثيراً يا منصور.. الشرب يفسد

صحتك! لا تدخن يا منصور، التدخين يولد السرطان... سرطان الرئة وسرطان الشفتين!

لماذا يتدخلون كثيراً في حياة منصور؟ لأنَّهم يحبونه! انهم لا يحبون إلاًّ أنفسهم، لو قال لأحدهم اعطني ما تملك هل يعطيه؟

قال له مرة وليد وهما يجلسان في بار عايدة:

ـ يجب ان تنظر إلى الأشياء بعيون جديدة، بعيون لم يغلفها التشاؤم، وبهذه الطريقة وحدها تستطيع ان تكتشف آلاف المتع، حتى إذا انتهيت من مشوار الحياة كنت راضياً. الحياة قصيرة. قصيرة جداً يا منصور. لا تزيد على عشرين سنة، وبعدها تتحول إلى أمراض وأرق، وفي الليل إلى سعلة وضرطة! سوف تندم كثيراً إذا ظللت تشرب وتسهر هكذا!

وضحك وهو يتذكّر جاراً لهم. كان الجار يبلغ الثمانين. لا يدخن، ولا يشرب، وفي التاسعة تماماً يأوي إلى الفراش. سيعيش هذا الرجل حتى يبلغ المائة، حتى يبلغ الألف!

أمَّا هو، منصور عبد السلام، فيشرب، يشرب بإسراف، يدخن، لا يتقيّد بمواعيد ثابتة للنوم، وحتى الآن لم يشكُ من علة. هكذا قال لوليد ورشف بلذة مجنونة من كأس العرق الذي كان أمامه!

فردَّ عليه وليد:

ـ ولكن لا تزال في أول عمرك!

ـ وسأبقى كذلك حتى آخر عمري.

ـ لكن لن تعيش طويلاً!

ـ سأعيش بالعرض. ولا أريد ان أعمّر مثل سنديانة بلهاء. خمسون عاماً تكفي. لا أريد غيرها، وبعدها لن أندم!

ـ إذا مت في الخمسين، وأنت بكامل صحتك، لا أسف عليك. أمَّا إذا عشت حتى السبعين وأنت مريض، ماذا تفعل؟

ـ لن أعيش!
ـ إذا لم تمت فسوف تعيش.
ـ أقول لك لا أريد أن أعيش وأنا مريض.
ـ ولكنك ستمرض. لن يستطيع جسمك ان يحتمل، أن يقاوم، ستنهار ذات يوم، وتبدأ تلاحقك الأمراض!
ـ ماذا تريد ان تقول؟
ـ يجب ان تعتدل في كل شيء. في الأكل والشرب والتدخين، يجب ان تنظم حياتك!
ـ من أجل ماذا؟
ـ لكي تعيش طويلاً!
ـ ومَن قال لك ان هذه رغبتي؟
ـ هكذا يجب أن يفكّر الانسان العاقل!
ـ وغير العقلاء كيف يفكّرون؟
ـ مثل الحيوانات!
ـ إذن أنا حيوان، وأحب ان أبقى حيواناً إلى الأبد!
ـ حتى الحيوانات لا تدخن ولا تشرب!
ـ لأنّها حيوانات.
ـ المناقشة معك عقيمة!
ـ لماذا تناقشني إذن؟
ـ لكي نصل إلى نتيجة.
ـ ومَن قال لك اني أريد أن أصل إلى نتيجة؟
ـ هكذا أفترض.
ـ افتراض خاطىء.
ـ آسف.
ـ كما تشاء.

وانتهت المناقشة بينهما، وظلَّ منصور عبد السلام يشرب، وظلَّ يدخن، وما زال حتى الآن يعيش. لم يشك من علة. ولم يحتج إلى عملية جراحية من أي نوع!

والتشاؤم قاد منصور إلى العزلة، ثم إلى الكآبة. انطوى على نفسه. لم تعد الضحكة تزور فمه، وحتى الابتسامات أصبحت حزينة، صغيرة، حتى انه كان يحس بالحرج إذا قبض على نفسه متلبساً بالضحك. لقد نسي هذه العادة، كما نسي عادات أخرى غيرها.

المرأتان اللتان أمامه تثرثران، وكان الغضب الذي رأى طيفه قبل لحظات على وجه الفتاة زال تماماً، مثلما يزول الطيف عن المرآة بعد ان يذهب العفريت الذي كان يقف أمامها!

مدَّت الفتاة ساقها، مدّته قليلاً.. نزعت حذاءها. فرت مشط قدمها في الهواء. فرته مرة ثانية. أحسَّ ان الساق كائن مستقل، له حياته وكيانه. ماذا لو مدَّت ساقها ووضعت مشط قدمها على طرف الكرسي الذي يجلس عليه؟ لو فعلت لمدَّ يده وفرك لها أصابعها، وفجأة يكركر باطن قدمها، تقفز مثل قطة وتهجم عليه وتقبّله بقوة! تنظر العجوز بذهول. لن يلتفت إليها. لتذهب والسنين التي تحملها إلى الجحيم. لقد ذهب دورها. لم تعد انساناً حياً. أخذت من الحياة كل ما تستطيع، ولم يبقَ منها إلاَّ الركام. الآن حان دور منصور عبد السلام. يجب ان يفرح، ان يتفجر، ان يعتصر هذا الجسد الغض المكهرب الذي يجلس مواجهته تماماً!

قلب منصور ملحمة جلجامش.. توقَّف عند صفحة وقرأ:

«عشتار لم تجد في الدروب مَن يواسيها ويفرِّح قلبها».

وفي مكان ثان قرأ:

«كُلِ الخبز يا انكيدو، فإنَّه مادة الحياة.

واشرب من الشراب القوي.. فهذه عادة أهل البلاد».

لا يشرب قطرة من العرق. لو يشرب لأصبح مثل انكيدو. أكثر جرأة من انكيدو. يستطيع أن يعارك الثور! وما هذه العجوز المهترئة؟ إنَّها لا تحتمل شيئاً. وسوف ينتزع الثياب عن هذه الفتاة، لن ينتزعها بقوة، لن ينتزعها بخشونة، سيمد يده بهدوء ويتسلّل إلى رقبتها، إلى أذنيها، سيداعب جسدها، وعندما تصرخ، تصيح، سوف ينتزع عنها ثيابها. قد لا ينتزعها هو، ستنزعها دون ان يقول لها كلمة واحدة. وعندما تتعرى، سيرى البريق المتوهج الذي يلمع على كتفيها، على صدرها، على ساقيها. سيقبّلها بوحشية. سيقول لها انا مَن يواسيك يا عشتار، ودون ان يتكلم يرى صدرها المرمري يصعد ويهبط مثل فرس أتعبها الجري، ويرى في عينيها ذلك النداء الملهوف الذي ينزل إلى العظام. وفي لحظة يغرقان، يذوبان في لذة مجنونة ليس لها نهاية!

احلم يا استاذ الجامعة السابق. الحلم الشيء الوحيد الذي تحسنه، ولن يحاسبك عليه أحد!

ولكن تأكّد ان نظرات العجوز سوف تحرقك. ان نظراتها مثل طوفان مستحيل يمنع عنك كل شيء، يحرمك من كل شيء!

ومثلما حصل في أكثر المرات..

لقد حلمت كثيراً.. ودفعت ثمن أحلامك.. أتتذكر ذلك جيداً يا منصور؟!

16

رجعت إلى الوطن قبل نهاية الصيف، بعد ان أكملت دراستي العالية في بلجيكا. لقد حصل ذلك منذ وقت بعيد. ولم تمضِ أسابيع قليلة على عودتي حتى دعيت لخدمة العلم.

والآن.. لا يريد منصور عبد السلام ان يتذكّر فترة الثلاث سنوات التي قضاها جندياً، الآن مثل هذه الذكرى تجعله يبكي بصوت عال، تجعله يبكي مثل الأطفال تماماً، ليس ذلك فقط بل وتسيطر عليه رغبة لأن يتعرّى ويخرج إلى الشارع، وبعض الأحيان يذهب إلى المقبرة بملابس النوم. وهناك عند القبر، يفترض انه قبر أمه يجلس، ويسأل الموتى والأحجار وحبات التراب:

«لماذا حصل كل ذلك؟ نعم أنا أسأل ويجب أن أفهم الجواب، أريد جواباً واضحاً مثل حد السكين، وليس أقدر على الإجابة من الموتى.. وأنت يا أُمّي تنامين هنا منذ وقت طويل.. طويل، لقد عرفت كل شيء، وتستطيعين ان تقولي لماذا حصل ذلك!»

قال حفّار القبور، وهو رجل طويل قاسي الملامح خشن العظام: «لقد وجدت منصوراً أكثر من مرة نائماً بين القبور. كان ينام على وجهه ويضع راحتيه فوق رقبته، وعندما أوقظه كنت أشم رائحة العرق الحادة وأرى وجهاً مصفراً أقرب إلى الموتى. لم يكن منصور يفعل شيئاً وهو يستيقظ، كان يقول بصوت هامس أقرب إلى

الوشوشة: لم يقولوا كل شيء! نعم فهمت قليلاً، ولكن يجب أن أفهم أكثر من ذلك».

عن أي شيء يسأل؟ ويسأل مَن؟

في ساعات الاشراق اللامعة يقول منصور عبد السلام: الحرب أية حرب، تعني، أغلب الأحيان، ان جيشاً ينتصر وان جيشاً ينهزم، هذا هو قانون الحرب. وفي حالات قليلة تنتهي الحرب دون ان ينتصر أحد ودون ان ينهزم أحد.

في ساعات الإشراق يقول منصور هذا الكلام، ويتابع بهدوء اسقف قروي فقير: وأفهم ان نهزم مرة. وأفهم ان نهزم مائة مرة. ولكن الشيء الذي لا أفهمه هو ان نتصور هزيمتنا انتصاراً.

نعم هذا هو الشيء الذي لا أفهمه. كيف تتحول الألوان؟ كيف تنقلب؟ ولماذا؟

قال له الطبيب وهو يركز نظارته فوق أنفه: الكآبة التي تعاني منها لها أسباب عضوية وأخرى نفسية. فالشظية التي أُصبت بها تركت أثراً سيزول بالعلاج بعد فترة. أمَّا التعب النفسي فأنا لا أستطيع ان أفعل شيئاً، أنت وحدك تستطيع. اترك التفكير بهذه الأمور. تجنّب كل ما من شأنه ان يزعجك وحاول ان ترتاح: نم مبكراً. لا تقرأ كثيراً. لا تغضب. قلّل من المنبهات. لا تدخن ابداً. .

ويستمع منصور إلى الكلمات البلورية، يستمع إليها وكأنَّها مجرد أصوات، لا تعني شيئاً، أو هي تشبه فقاعات الصابون تظهر لحظة ثم تختفي. لا يترسب منها سوى كلمات قليلة:

ـ وكيف استطيع ذلك؟ ألست انساناً يا دكتور؟

ـ ولكن ماذا تستطيع أن تفعل؟ أنت مريض الآن. عندما تستعيد قواك يمكن ان تعاود العمل، يمكن ان تفعل كل شيء؟

ـ ولكن ماذا أستطيع ان أفعل؟ وقبل ان أسأل هذا السؤال أريد اجابة عن السؤال الأهم: لماذا حصل ذلك؟ تقول انك طبيب،

مهمتك الوحيدة ان تعالج المرض، ولكن يجب أن تعالج الأسباب، العلة في مكانها المعتم هناك، أمّا اذا أردت ان تكشط هذه الطبقة الخارجية، وتتصور ان الأمور عادت إلى طبيعتها، فإنَّك تخطىء كثيراً. عفواً يا دكتور، لا أريد أن أتدخل، ولكن أصبحت كبيراً مدركاً، ان المرض، في أحيان كثيرة، حالة نفسية يعرفها المريض أكثر من الطبيب!

ـ انت طبيب نفسك. اذا ساعدتني فلن يمر وقت حتى تعود أكثر نشاطا وثقة بنفسك من قبل.

ـ وكيف أستطيع؟

ـ كما قلت لك: تجنّب كل شيء يمكن ان يولد المرارة والحزن والتعب.

ـ ماذا يعني هذا الكلام عملياً؟

ـ يعني ان تكف عن هذه الأسئلة التي لا جدوى منها. الحرب حصلت يا منصور. كلنا يعرف ذلك، ويعرف أيضاً ان الهزيمة كبيرة ومريرة لدرجة لا تخفى على أحد. أمّا الكلمات التي يقولونها فإنَّها لا تقنع قطاً، لا تقنع حتى الأطفال!

ـ ولكنهم يقولونها. يقولونها بأصوات عالية، وفي كل وقت.

ـ من أجل ان يقنعوا أنفسهم.

ـ بأي شيء؟

ـ لا أعرف...

ـ هذا الذي أُفكّر فيه، وهذا ما يحيرني!

ـ وحتى لو عرفت، هل يغيّر هذا شيئاً؟

ـ يغيّر أو لا يغيّر، المهم ان أعرف.

ـ وبعد ذلك؟

ـ إذا عرف السبب بطل العجب.

ـ مجرد مثل لا يعني شيئاً!

ـ ما نزال في نفس المكان، أريد ان أعرف.

ـ كما قلت لك يا استاذ منصور، أنت طبيب نفسك، إذا أردت ان تشفى يجب ان نتعاون.

ـ اكتب لي الآن الأدوية. .

ـ الأدوية وحدها لا تفيد. المهم ان تقرّر بإرادة قوية ان تشفى.

ويقول أصدقاؤه انه ظلَّ يعاني من حالة الكآبة والعزلة فترة طويلة، ولم يتوازن إلاَّ بعد ان عُيِّن في الجامعة لتدريس مادة التاريخ المعاصر!

أين هو الخطأ ومتى وقع؟ حتى هذه اللحظة لا أدري. وأتساءل الآن: لو اني درست مادة أخرى غير التاريخ المعاصر، هل كنت سأواجه نفس المصاعب والنهاية الكئيبة التي وصلت إليها؟

لا يجدي الندم. أصبح الآن كل شيء بعيداً ومستحيلاً. وحتى لو ندمت لما تغيّر شيء. الندم يعني الاعتراف بخطأ من نوع ما. أنا لم أُخطىء، وإذا أردت أن أُجامل غيري أقول لم اكتشف هذا الخطأ الذي رماني إلى الشارع.

البداية. . النهاية، النهاية. ولكن كل ذلك حصل بالفعل.

في اليوم الأول، بعد ان عيّنت مدرساً لمادة التاريخ المعاصر، استيقظت مبكراً. كانت الشمس ترتاح بكسل على الستائر. كان طعم العرق يفوح من كل خلية في جسدي، وشعرت ان فمي جاف، وقلبي يرتجف وحتى الدفء الذي يولده اللحاف كان قاسياً وخشناً.

أوّل يوم أواجه الطلبة. عيون، عشرات العيون تنظر إليّ بفضول، تنزلق على جسدي مثل الرصاص المصهور. قلت لنفسي: يجب أن تتماسك يا منصور. تكلّم ببطء. أنت تعرف كل شيء تريد أن تقوله. لا تضطرب، لا تخف، في لحظات معينة تقوم بيني وبين العالم سدود هائلة لا أستطيع تجاوزها.

كيف أستطيع مواجهة الطلبة؟ رائحة العرق! وهذا المعجون اللعين، لم تعد له رائحة النعناع الزكية الباردة. لا شيء يفيد. فنجان القهوة يتلاشى بسرعة. السجائر لا تخفّف رائحة العرق. يجب ان أكف نهائياً عن الشرب، لو خلصت من رائحة العرق، كيف أستطيع التخلّص من الحمرة التي تتمدّد بكسل في عيني، إنَّها تفضحني، العيون تفضح.

سارتر، هذا الأحول الزنيم يقول ان العيون تتكلم أكثر من اللسان. هذا الأحول لا يقول إلاّ الحماقات. أخاف من العيون، من عيون الأطفال، لا أجرؤ ان أتطلع إلى عيونهم. انهم يسألون.. يسألون باستمرار. ماذا أقول عن بشرتي النحاسية الصدئة، عن الحمرة في عيني؟

سألني مرة طفل عن الجرح في أسفل ذقني. قال: مَن ضربك؟ لماذا ضربك؟ لم أستطع أن أجيب، تذكّرت السجن وكدت أبكي!

قلت لنفسي وأنا أدخل قاعة المحاضرات: سأتكلم بهدوء، بهدوء أبله، أقرب إلى النشرة الاملائية! لماذا توقفت الاذاعات عن النشرات الاملائية؟ ما زلت أتذكر.. كان ذلك منذ وقت بعيد، لم أعد أسمع هذا النوع من النشرات. أصبحت الآلات الحديثة تغطي كل شيء. يمكن للجريدة ان تشتري جهازاً حديثاً ينقل لها، في لحظة، أخبار الدنيا كلها. أصبحت الجرائد عبارة عن آلاف الموظفين وعمارات كبيرة وآلات وأكاذيب!

انت الآن استاذ التاريخ المعاصر. انت تعرف الكثير عن التاريخ، ولكن ما هو التاريخ؟ لماذا لم تسأل نفسك هذا السؤال؟

التاريخ قصة طويلة وحزينة، تمتلىء بالأكاذيب، وقد كانت بهذا الشكل منذ البداية، وسوف تستمر هكذا!

بعد ان غضب الله على آدم وحواء وأخرجهم من الجنة، ألقى كلاً منهما في مكان، وما كادت أرجلهم العارية تستقر على الأرض،

حتى بدأت رحلة البحث، وبدآ يبحثان عن بعضهما. كانت حواء تفتش في الليل والنهار. أمَّا آدم فكان يفتش النهار كله وينام الليل. ظلاً كذلك حتى التقيا ذات يوم على جبل عرفات!

سألت حواء آدم:

ـ منذ متى بدأت تفتّش عنِّي يا آدم؟

ـ منذ أن أكلنا التفاحة.

ـ ولكن لماذا أكلتها يا آدم؟

ـ لأنِّي سمعت نداء يقول لي كل ولا تخف!

ـ وكيف كنت تفتش عنِّي؟ وأين؟

ـ كنت أبحث في واحات النخيل، في المغاور، لقد تعبت وأنا أُفتّش عنك، ولم أترك مكاناً إلاَّ وبحثت فيه.

ـ وهل كنت تبحث في كل الأوقات؟

ـ كنت أبحث من طلوع الشمس حتى مغيبها، فإذا جاء الظلام نمت بانتظار اليوم التالي!

بعد ان ارتاحت حواء على ركبتي آدم، واطمأنت نفسها سألها:

ـ وأنتِ يا حواء العزيزة المعذبة، هل فتّشتِ عنِّي؟

نظرت إليه بعيون كسيرة وساخرة، وقالت:

ـ منذ أن أطعمتني التفاحة يا آدم وجدت نفسي هنا، ولم أستطع ان أفعل شيئاً.

هزَّ آدم رأسه بحزن وقال:

ـ لقد تعبنا كثيراً حتى التقينا. ومن هذه اللحظة لن نفترق.

وتضحك أُمي، تضع نقطة وراء كل ما قالته، وتضيف بلهجة لها نكهة خاصة، تقول:

ـ منذ ان غضب الله عليهما وأخرجهما من الجنة ظلَّت حواء تبحث ليل نهار، تبحث في كل مكان، حتى التقيا على جبل عرفات.

ولكن حواء لا تحب ان تعترف، ان تقول الحقيقة!

وبكلمات حكيمة تختم أُمّي القصة: المرأة تحب الحيلة، وتحب الكذب. . والحيلة والكذب وُجدا مع بدء الخليقة!

كان هذا أول تاريخ سمعته، ومنذ ذلك الوقت بدأت تفتك بي الشكوك، حتى لم أعد أصدّق شيئاً.

اليوم الأول، مواجهة الطلبة، الحديث عن التاريخ والحقيقة!

وجاءت قصة الطوفان. وكما تروي القصة الكتب السميكة، قرأت القصة وامتلأ قلبي بالرعب. كنت أتصور نوحاً يقطع أشجار الغابة لكي يبني السفينة. والماء حوله يطوّقه من كل ناحية، والأرض تغرق، والمركب يطفو بهدوء فوق الماء، وعليه من كل زوج اثنين، حتى القمل والبراغيث والأفاعي وبنات آوى. وعندما غرقت الأرض وارتفعت المياه فوق هامات الأشجار، ثم فوق الجبال، وامتلأت الدنيا رهبة، وظلَّ الأمر كذلك حتى مرت أربعون ليلة. . بدأ الماء بعدها ينحسر! جلجامش والملحمة عاشا قبل الكتب السميكة بأكثر من ألف عام. والناس، كل الناس، يتحدثون عن الطوفان والأحياء المزدوجة استناداً إلى التوراة وحدها، ولا يعترفون بغيرها، والتاريخ ابتدأ منذ الطوفان، أمَّا قبل ذلك فلا يوجد تاريخ. لا يعترف به أحد. ومطلوب من كل انسان ان يصدّق. أمَّا ألواح الطين المشوية، أمَّا الشعر وانكيدو فليس لهم وجود. ومَن لم يصدّق فهو كافر يستحق الرجم بالأديان الثلاثة!

ما هو التاريخ إذن؟ كيف بدأ. .؟ وكيف يجب ان يتحدّث منصور عبد السلام مع الطلاب الذين ينظرون إليه الآن وكأنَّه دمية؟

«ستكون المحاضرات التي ألقيها عليكم حول التاريخ الحديث. على الجميع ان يسجلوا النقاط الرئيسية، أمَّا طباعة المحاضرات فلن تتم قبل شهرين. سأحاول ان أحضرها بسرعة، ولكن اقترح على الجميع ان يدونوا المعلومات والملاحظات!

قبل البدء في موضوعنا يجب ان نستعرض النظريات الأساسية التي تحدّد التاريخ وتصنفه بين معارف الانسان، بمعنى آخر هل التاريخ علم أم أدب؟

بعض النظريات تقول ان التاريخ علم مثل سائر العلوم، مثل الرياضيات والفيزياء.

«كان من الواجب ان أعرف العلم أولاً، ان انطلق من أفكار أولية بسيطة».

«الأستاذ فريد، بنظارته الطبية الأنيقة يقف أمامنا. ارتج عليه أول مرة. خرجت الكلمات من فمه مقطوعة الرأس. أحمرّ وجهه. خجل ولكنه بعصبية تابع: «التاريخ علم. وليس علماً فقط، وإنَّما هو أساس العلوم. أمَّا الآداب، وتتغير ملامح وجهه، تمر موجة استخفاف تصل حدود القرف، «ليس للتاريخ علاقة وثيقة بالأدب، لأنَّ الأدب يعتمد على الخيال، أمَّا العلم فله قواعد موضوعية صارمة!».

«الأستاذ فريد بشهادته العالية يستثير فينا الحقد والسخرية. امَّا الأستاذ أدهم الذي درَّسنا التاريخ العربي الوسيط فإنَّه يحوّل التاريخ إلى أرجوحة من المتعة لا تنتهي. أقصوصة طويلة لذيذة نسمعها بآذان ملهوفة! أمَّا النظرية التي تصنف التاريخ ضمن نطاق الأدب فإنَّها تستند إلى التراث، خاصة القديم منه، لأنَّه مستمد من آداب الشعوب، من الشعر والملاحم والقصص!

«صحيح ان كتابة التاريخ، اختلفت اختلافاً جوهرياً من عصر إلى عصر، ولكنها في الوقت الحاضر تعتمد على قواعد محدّدة، موضوعية، كما ان تفسير وقائع التاريخ تعتمد على أسس محدّدة، ومع ذلك فإنَّ الصفة الأدبية ما تزال واضحة. وبعض الأحيان أساسية لفهم تاريخ شعب من الشعوب.

واستطراداً نقول: ان ابن خلدون، واضع قواعد علم التاريخ،

يعتبر أوّل مَن غيّر في فهم التاريخ وطريقة معالجته. وتعتبر مقدمته أهم أثر عالمي، في عصره، وفي عصور لاحقة من التاريخ؛ ولكن ابن خلدون الذي وضع تلك القواعد العلمية، لم يطبقها في التاريخ الذي دوّنه!».

هل أقول لهم كل شيء؟ هل أقذف الحقيقة في وجوههم مرة واحدة؟ ولكن لا داعي لهذه الصدمة، سوف أفتح عقولهم تدريجياً.

«وكما لاحظتم.. فإنَّ التاريخ بحاجة إلى اعادة نظر، إلى كتابة جديدة، (حياتنا كلها أكذوبة) وخاصة التاريخ المعاصر.

لو القينا نظرة على التاريخ المعاصر، وعد بلفور، الرصاصة الأولى، الثورات، الهزائم، أين هي الحقائق؟ أين هي مصادر التاريخ؟ العادة الانكليزية تجعل الوثائق، حتى السريَّة، ملكاً للناس بعد مرور خمسين سنة على صدورها. أمَّا تاريخنا.. ما هو تاريخنا؟

احتقار لكل حقيقة، تزويرها، قلبها!

الكتب الموضوعة الآن رسمية، كتبها الحكّام، كتبوها من زاوية مصلحتهم لتخدمهم، أمَّا الحقائق فإنَّها مطوية في صدور الناس، ولا يمكن لضوء الشمس أن يصلها، وستذهب مع هؤلاء عندما يموتون!

التاريخ القديم، تاريخ الملوك والقادة والفتوحات.. من كتبه؟ ولماذا كتب بهذا الشكل؟ هل ما نقرأه وقائع حصلت بالفعل؟ أم مجرد صور ابتدعها الخيال؟

تنصيب الملك فيصل على العراق مثلاً؟

التاريخ الذي بين أيدينا يقول: بعد ان تمَّ اختيار فيصل ملكاً للعراق، عمت البلاد موجة كاسحة من الاستبشار فأقيمت الأفراح في كل مكان، في المدن والقرى، في الحواضر والبوادي، وكانت الزينات والاعلام العربية فوق البيوت ترفرف ليل نهار، والولائم تقام في الغداء والعشاء، حتى ان الفقراء لم يستطيعوا ان يحملوا بقايا الأكل فتُركت للكلاب او دُفنت في التراب؟

ومنذ ذلك اليوم، والبلاد كلها تزحف إلى القصر الملكي لتعبّر عن سرورها وفرحها، ولتجدد البيعة وتؤكّدها. وهذا يكفي دليلاً لإثبات ان الأمة اختارت ووُفّقت في الاختيار!

إذا أردنا أن نؤرخ لحدث ما، ماذا نفعل؟

نحصر الوقائع، ثم نصنفها من حيث تاريخ وقوعها. ونبحث مصادرها، ونحلّل النقاط المشتركة ثم نستنتج.

لو حاولنا ان نطبق هذه القواعد على أية واقعة تاريخية، وأعني من الوقائع المعاصرة، لوصلنا إلى تاريخ يختلف تماماً عن التاريخ الذي بين أيدينا، التاريخ الذي نعلّمه في المدارس!

وكلما توغَّل التاريخ في القدم كان أكثر صحة، لأنَّ عدد المستفيدين من التزوير يصبح أقل! ولولا الخروم اللعينة التي تفسد الواح الطين المدوّن عليها التاريخ القديم والملاحم والقصص لاستطعنا ان نصل إلى حقائق كاملة؟».

بعد ستة أسابيع من رسالتي الأولى للمسيو مارشان، تلقيت الرسالة التالية:

«نرجو ان تقدموا أنفسكم للمسيو دونال في موقع العمل، حال وصولكم إلى البلاد، باعتبار المسيو دونال مسؤولاً عن البعثة. وسوف نقوم بإبلاغ الجهات المسؤولة رغبتنا بالتعاقد معكم لتسهيل سفركم».

السفر إذن للبحث عن الآثار.. وافق المسيو مارشان. شكراً لك يا مسيو مارشان، أتمنى ان نلتقي ذات يوم. سوف تأتي لترى البعثة، او ربما سألت عن المسيو منصور، قد تستغرب إذا قلت لك اني أكنّ لك احتراما عميقاً، يصل حدود الحب. وهذا الشعور لا أكنّه لأحد في وطني! ألأنَّك انقذتني، فسحت لي مجال العمل؟ لا أدري!

ما هو شكل المسيو مارشان؟ أتوقع ان يكون طويلاً.. طويلاً

جداً، ونحيفاً، له شارب صغير أشيب. عيناه زرقاوان، أنفه اقنى، يتمتع بحيوية لا يتمتع بها الشباب. يعرف بعض الكلمات العربية. محبوب من الجميع، ولكنه عصبي المزاج. خاصة بعد وفاة زوجته!

هكذا أتصور المسيو مارشان. وستبقى الصورة هكذا حتى أراه. أما المسيو دونال فلا أريد أن أتخيل صورة له، بعد غد أُقدم له نفسي:

«أُقدّم احترامي، مسيو دونال، أنا منصور عبد السلام، المترجم» اية انطباعات سترتسم على وجهه؟

لم يبقَ إلاّ خطوات، أصبح المسيو دونال قريباً جداً. لقد خرجت أخيراً من الحصار...

أنا أُسافر إذن لأبدأ العمل. شكراً. . شكراً لشيء ما!

17

كان وجه كاترين يلمع في ذاكرتي وينطفىء. كان في كل لحظة يلمع، وفي كل لحظة ينطفىء. وتركض أعمدة الهاتف والأشجار الخضراء بسرعة، وأتذكّر، وأنسى. كنت أريد ان أتذكّرها إلى الأبد، وكنت أريد ان أنساها تماماً وأنا أعود إلى الوطن بعد هذي السنين الطويلة من الانتظار والأحلام!

ومع حركة القطار الرتيبة، كانت الأفكار تطرق رأسي دون انقطاع!

ابدأ بسرعة يا منصور. نعم يجب أن تبدأ. لن تكون وحدك، ان ما تفكّر فيه من البساطة والضرورة بحيث لن يتأخّر أحد. وسوف تكونون مجموعة متماسكة مثل الصخر، وتبدأون العمل.

لقد ملّوا مثلك الكتب الصفراء. ملّوا الكتب الرسمية، ويجب أن يكتبوا التاريخ من جديد.

وأي تاريخ يجب أن يكتب؟

قطعاً لن يكون تاريخ الملوك والسماسرة والقوادين الذين يشبهون الديوك. سيكون تاريخ الناس الذين مرُّوا دون أن يتذكر أسماءهم كتاب او قطعة من الرخام، سيكون تاريخ الأحداث التي غيّرت الحياة. . . دون أن تكتشف!

ووصل القطار الى الوطن. ووصلت بعده آلاف القطارات. وماتت أحلام كثيرة!

أي زمن مرَّ منذ أن وصل القطار الذي حملك؟ وأية رغبات انطفأت خلال هذه السنين؟ أية تجارب عشتها أنت والناس الآخرون حتى تأكّدت بعدها ان هذا العالم المجوسي يجب ان يحترق؟

لم تمر فترة حتى بدأ الرجال يتساءلون: وأي تاريخ يمكن ان نكتب؟ ويهزّون رؤوسهم بأسى موجع ويقولون: يجب أن نتحول إلى علماء آثار، ان نقرأ الحجر ولا شيء غير الحجر، لأنَّ الحجارة الميتة لا تنغص حياة أحد، وبعد ان نحل الرموز المسمارية، ونقرأ ألواح الطين، يمكن ان نكتب شيئاً عن التاريخ القديم، يمكن ان نكتب شيئاً يسمح به الأحياء الذين يحكمون. أمّا ان نكتب عن الأحياء، أمّا ان نقول للناس كيف يجب أن يكون التاريخ، فإنَّ هذا سينغص حياة الديوك المنفوخة، سيغضبون وقد يصل بهم الأمر ان يلغوا نهائياً ما يسمَّى بالتاريخ!

... انتهت تلك الأيام! وانتهت معها الرغبات الجامحة التي تراكمت في ذاكرة الزمان الميت.

بعد أيام قليلة سأبدأ العمل من جديد، ولكن هذه المرة أريد ان أعمل بيدي. سوف أمسك الفأس وأضرب الأرض. سوف اعفر وجهي ويدي بالتراب. سألبس بذلة قديمة وأظل أعمل منذ ساعات الفجر الأولى وحتى الغروب.

والمسيو دونال... هل يسمح لي ان أعمل بيدي؟ سأقوم بكل واجبات الترجمة، ولكن هل يسمح لي ان أكون من الذين يحفرون وينقبون؟ انهم يريدون مترجماً ولا يريدون عاملاً يحمل فأساً. وهل ألقى من جديد في المكتب وراء طاولة؟

خلال الفترة الأولى سوف أتقيد بالتعليمات، لن أتصرف دون رغبتهم، ولكن مع الأيام سأبدأ بممارسة العمل الذي يلائمني أكثر.

سنكون جميعاً في موقع العمل، الى جانب بعضنا، نتحدث ونعمل. ليست هناك فروق بين الذي يعمل في الترجمة والذي يحمل فأساً ويحفر. حتى مسيو دونال سيكون بيده فأس!

ـ مسيو دونال.. أريد ان أعمل بيدي. سأقوم بكل واجبات الترجمة ولكن اسمح لي ان أشارك الذين يحفرون.

ـ مسيو منصور.. تعرف ان حاجتنا اليك في المكتب أهم بكثير من حاجتنا اليك في الموقع.

يجب ان تؤمن اتصالاتنا مع المسؤولين في الآثار والسلطة، أمَّا العمل في الموقع فلدينا عدد كاف من العمال، لا نحتاج إلى أكثر!

ـ والعمال يا مسيو دونال؟ مَن سيترجم لهم؟ مَن سيعلمهم ان يقوموا بأعمالهم على أحسن وجه؟

ـ لا تقلق، ليست هناك مشكلة. احفر هنا. يحفر. احمل التراب من هنا، يحمل التراب. تعال، يجيء.

ماذا تتصور الترجمة بيننا وبين العمال يا مسيو منصور؟

ـ ولكن الآثار، يا مسيو دونال، شيء رقيق، لا يحتمل الخطأ. تصوّر ان عاملاً لم يفهم قصدك، وبدل أن يحفر بهدوء ضرب فأسه وكسر القطعة التي نبحث عنها! ماذا تتصوّر ان يحصل!

ـ سيتعلمون بالتدريج. سيروننا ونحن نعمل، ونحن أين نحن؟ سنكون موجودين معهم في كل لحظة!

ـ ولكن أريد ان أساهم بالتنقيب يا مسيو دونال!

ـ سيكون لدينا وقت للمساعدة، ولكن الأهم الآن ان تؤمن ترجمة الأشياء الضرورية.

في النهاية سيقتنع المسيو دونال، سيقول لي:

ـ مسيو منصور اترك الأوراق التي بين يديك، تعال معنا للموقع. يجب ان نستمتع باللحظة الخطيرة، لحظة الاكتشاف..

ويجب ان نقول ان المسيو منصور كان معنا عندما اكتشفنا الألواح!

سأنجز هذه الأوراق في وقت آخر يا مسيو دونال. نعم سأذهب معكم فوراً. يجب ان أشهد الاكتشاف. سأتذكّر هذه اللحظات حتى نهاية حياتي، لقد انتظرنا طويلاً. . عملنا كثيراً. . والآن وصلنا!

بعد نصف ساعة نكون في الموقع. النهار ما يزال في أوّله، شمس الشتاء تبث دفئاً لذيذاً، لسعة البرد تتراجع، الرجال يلبسون معاطف العمل، بأيديهم فؤوس صغيرة وفراش، وأمامهم صناديق مجلية تنتظر احتضان الألواح. ويبدأ العمل. ومع ضربات الفؤوس الناعمة الحنونة ترتفع اغنيات تشبه اغنيات البحارة العائدين وقد رأوا أنوار الشاطىء. ان فرحاً من نوع نادر، قلَّما يحصل في الحياة، يطغى على كل شيء! وخلال ساعات تكون الشمس قد مالت نحو الغروب، ولكن تكون الصناديق قد امتلأت ووجوه الرجال تتفجّر بالفرح وهم يتناولون زجاجة النبيذ الأحمر ويشربون نخب الانتصار. وفي أقل من ساعة تكون البرقيات قد طارت في الاتجاهات الأربعة تحمل بشرى أعظم كشف تاريخي. ومَن ساهم فيه؟ لقد ساهم رجال كثيرون، رجال ليس لهم أسماء، وجوههم سمراء وشقراء، عيونهم تضحك، أيديهم تمسك القطع الصغيرة مثلما تحتضن العشيقات المسافرات!

ومنصور. . انه مع الرجال، لقد ساهم مع الرجال. الغبار اللذيذ على وجهه وشعره، ويتحدّث مع نفسه ومع الآخرين بأشياء غير مفهومة؛ يريد ان يتحدّث فقط. ان يصرخ، ان يفعل شيئاً. وبعد ان يضع الصندوق يتناول زجاجة النبيذ ويشرب، ويشرب. لقد انتصر. ما أطيب انتصار الانسان. . ما أطيب هذا النبيذ، الشمس ما تزال فوقه، ولكن طعمه يشبه ذلك النبيذ الذي شربه يوماً على ساحل البحر الأسود. كان ذلك منذ وقت طويل. الأشياء تلتقي فوراً.

تجتمع. لقد انتصر الانسان، وصل إلى الشيء الذي يريده!

انس كل شيء يا منصور وعش هذه الساعة. انها أعظم الساعات على الاطلاق، ولن تعيش مثلها ابداً. أتقدر معناها؟ أتحس بأهميتها؟

الانسان يتماوج بين الحدين النهائيين: الاكتشاف والفشل. الشيء الذي يبحث عنه ولا شيء أبداً. الحياة والفناء. هذه هي اللحظات الكبرى، لقد وصلت، ومن أجل هذه اللحظات بالذات يمكن ان تنسى كل المصاعب، ولا تعود الأشياء بالنسبة لك أكثر من ذكرى. سوف تتوارى الأيام الصعبة، أيام كنت تبحث عن عمل فلا تجده، أيام كنت تدق الأبواب فلا يرد عليك أحد. أيام كنت تنتظر الساعات من أجل ان يتعطّف عليك ذلك الكبير. ولكنه يخرج من الباب الآخر. ويذهب انتظارك سدى! كنت تشعر بالمرارة، بالحقد، باليأس، أمّا الآن فإنَّك ترى بعينيك الألواح الرائعة، والابتسامات تشرق في كل وجه. الرجال قد أصبحوا أخوة يضحكون ويبكون معاً من الفرح. ان هذه الساعات تعادل حياتك كلها!

ولكنك تحلم يا منصور. الفتاة التي أمامك تنظر اليك باشفاق. المرأة العجوز تفتح صرة لا تعرف أي شيء فيها وتنشغل! والقطار يهتز اهتزازاً موصولاً رتيباً وكأنَّه لا يتحرك! لقد ذهبت بعيداً يا منصور. حلمت، قبضت بيديك الاثنتين على ألواح الطين. أنت ما تزال هنا، لم تصل الموقع ولم ترَ المسيو دونال، أمّا الاكتشاف فقد يكون وقد لا يكون!

أريد ان أكلمها، أن أقول لها شيئاً! لا يهمني اسمها. لا أريد ان أعرف أي شيء عن ماضيها. عن حياتها قبل أن تركب القطار. أريدها في هذه اللحظة، لأننا بعد قليل سنفترق، وقد لا نلتقي مرة أخرى. «هل تسمحين، أيّتها الرائعة الجمال، ان أسألك سؤالاً . .» وتهز رأسها وضحكة صغيرة ترتسم على شفتيها. أقول لها: «لا أريد

ان تجيبي بصوت عال. يكفي ان تجيبي بطريقة ما، تستطيعين ان تعبّري عن رغباتك بشكل بدائي. ان تضعي يدك على الزجاج مثلاً. ان تدقّي الطاولة ثلاث دقات. ان تلبسي حذاءك المشلوح الآن بطريقة خاطئة. تكفيني اشارة مثل هذه حتى أفهم ان الرغبة عندك توازي الرغبة عندي.

اذا كان الأمر كذلك، فإنَّ الرغبة التي تدق صدري الآن عنيفة، هائجة، جموحة لدرجة لا أستطيع مقاومتها، ويجب ان أستجيب لها. لا تخافي من هذه العجوز اللعينة. لقد امتلأت لذة حتى فاضت وجفّت، ولا يحق لها الآن ان تقول كلمة واحدة».

ولكن ما فائدة كل هذا الذي أُفكّر فيه الآن..؟ بعد قليل ستحمل العجوز سلالها وحزمتها، وقبل ان تترك العربة ستدفع الفتاة أمامها وتذهبان. سوف تذهبان دون كلمة وداع، دون نظرة! ماذا أستطيع ان أفعل؟

لا شيء أبداً يا منصور، ما جدوى كلمة أقولها وصدري يصعد ويهبط كأنّي أقف أمام المحقق؟

لا شيء يفيد. لقد تقرّرت الأمور، أخذت مساراتها، ولن تستطيع أية قوة ان تغيّرها. لتسر الأشياء كما تريد، ويمكنني ان أستمر بالحلم دون خوف، دون ان يقول أحد كلمة واحدة!

وما زال مسيو دونال بعيداً. والموقع... أين هو الموقع؟ قريب من المدينة؟ بعيد عنها؟ أين سننام؟ وهل نأكل في نفس المكان؟ ومع بعضنا؟

أنت لا تعرف حتى ان تحلم يا منصور. تنتقل من حلم لآخر، وحتى المتعة التي يحسّها الناس بالأحلام أنت لا تعرفها. ما زال كل شيء بعيداً، مستحيلاً. لا تعرف عن العمل الذاهب اليه سوى انه تلال من التراب والحجارة، وقد تجده ممتعاً وقد تضيق به نفسك منذ

اليوم الأول. والرجال الذين ستعيش معهم هل أنت متأكد انهم الرجال الذين تبحث عنهم؟ لا تعرف... نعم لا تعرف، ولكن تبقى الدنيا الآن، أحسن آلاف المرات من دنيا البارحة، دنيا السنين الثلاث الماضية.. هل نسيت؟

18

متى أخطأت. . . وما هو الخطأ؟

ولكن لماذا أتعب نفسي الآن بالبحث الأبله؟ لم يكونوا محتاجين إلى أدلة. الأدلة موجودة دائماً. يمكن اختراعها دائماً. الأمر بسيط جداً، فالقاعدة التي تتكرّر في كل مكان وزمان علمتهم: أفعل ما تريد ثم فتّش عن الأسباب والمبررات!

أصبحت أعرف هذه القاعدة جيداً، ومع ذلك أظلّ أسأل، ما هي الأسباب، التي دفعتهم لاتخاذ تلك الاجراءات؟

احتل الانكليز العراق، وكان الشريف حسين قد أطلق رصاصته المشهورة ضد الأتراك!

جاء الانكليز محرّرين لا فاتحين! كتبت هذه الكلمات ذات يوم على قاعدة تمثال القائد الذي فتح بغداد. لم يعد التمثال موجوداً، حطّمته المظاهرات التي قامت ذات يوم. جرَّ الناس التمثال والحصان بالحبال، وسقط القائد وضاعت كلماته!

ولكن كيف نُصِّب فيصل ملكاً؟ مَن الذي استقبله؟ وماذا قال الناس؟

الزعماء في العراق يتنافسون على العرش، الفرنسيون يطردون فيصل من دمشق، وفيصل ابن الذي أطلق الرصاصة الأولى يجب ان يكون له عرش، والعراق خال ينتظر. وركب فيصل البحر ووصل إلى البصرة، وهناك استقبله اليهود!

حتى وقت قريب كان التاريخ يقول ان العراق زحف من شماله الى جنوبه ليرحب بفيصل ويبايعه ملكاً، ولم يقتصر الأمر على التاريخ، حتى الشعراء قالوا هذا، وأيضاً المغنون!

هل كان العراق، بعد الفتح، أو التحرير، كما تقول كلمات القائد، امرأة مقهورة تنتظر رجلاً من وراء الحدود؟ هل كان خالياً من الرجال؟ والانكليز، هذه اللعنة التي تتكرّر باستمرار، دون ان يطالها العقاب أو الاثم، الانكليز الذين يلبسون قبعات مزينة بالريش، وجدوا ان أحسن مكافأة للعائلة التي أطلقت الرصاصة، ان يعطوها عرشاً، اكثر من عرش، امرأة مقهورة! وبدأت المضابط، ثم صارت البيعة، وأخيراً المقبرة الملكية التي توارى فيها الجثث غير المحروقة!

أين هو التاريخ؟ أرى ركاماً من الأكاذيب والافتراءات، ولا أرى شيئاً غير ذلك! ليست هناك وقائع صحيحة بالمرة. هناك سلسلة من عمليات القرصنة والخيانة والقوادة، بدأت منذ فجر التاريخ ولم تنته بعد. قابيل قتل هابيل. دائماً هناك هابيل مقتول وقابيل قاتل، ثم جاء الطوفان والديانات والفتوحات وسمل القادة العسكريون الأتراك عيون الخلفاء وبنوا سامراء، ووضعوا السم في طعام الصغار، وبذلك تحوَّل التاريخ الذي نقرأه الآن الى سلسلة من العلاقات الجنسية والمؤامرات التي كان على رأسها دائماً الجواري!

ماذا نقرأ في التاريخ؟

نقرأ: كان عقبة بن نافع، وهو يخوض مياه الأطلسي بحصانه يقول: لو لم يكن هذا البحر لوصلت إلى أقصى الدنيا! وتنتهي مرحلة، وتأتي مراحل الجواري والقصور. البرامكة، القرامطة، صفية الامنازي، عبلة عشيقة الخديوي... ثم تنصيب الملك فيصل على عرش العراق!

والشعوب... أين هي الشعوب؟ (اكتشاف معاصر.. ولا تسخروا) لم يكن في الماضي، وحتى الآن شيء اسمه الشعب.

ولكن في القرن الماضي اهتم بعض علماء الاجتماع فوصلوا إلى اكتشافات لها نتيجة رهيبة: الناس هم الذين يصنعون التاريخ!

ارتجفت عندما مرَّ الموكب. كنت قريباً من أسوار وزارة الدفاع. الناس كتل مخيفة. طوفان. كان الناس يملأون الشوارع، الأسطحة، أعمدة النور. ومرَّ الموكب. كان الوصي جميلاً مثل دمية يابانية! صفَّق الناس، ارتجت الأرض، كان الموكب قريباً. لا... كنت أنا القريب. أعلنت ببلاهة احتجاجي. كنت أريد ان انتقم لعصور العبيد والمخصيين. لم أصفق. لماذا التقت نظراتنا في تلك اللحظة؟ لماذا نظر إليّ؟ ارتجفت. ارتجفت حتى أصابع قدمي. كاد ينزل. او هكذا تراءى لي. حاولت ان أصفق في داخلي لأخلق توازناً من نوع ما، ولكن الموكب مرَّ، وترك على قلبي جمرة من خوف. وظلت هذه الجمرة تحترق، حتى سمعت ان جثة الوصي قد تحوَّلت إلى كومة من الشحم الأسود المحروق. لم تعد عيناه موجودتين. ذهبت إلى الأبد، وانطفأت معها الجمرة، وحطَّم تمثال القائد الانكليزي والعبارات المكتوبة عليه!

ماذا أريد ان أقول!

التاريخ مجموعة من أكاذيب لفقها أناس محترمون يضعون على عيونهم نظارات طبية سميكة، وهؤلاء الناس يتقاضون رواتب كبيرة نتيجة الجهد الذي بذلوه! ليسوا كاذبين تماماً، انهم يخدمون هدفاً كبيراً، هدفاً مهماً اسمه: «الحقيقة!».

هذا مثل صغير من التاريخ. واية واقعة ترونها الآن مكتوبة بخط أنيق، على صفحات مصقولة، يجب ان تفترضوا سلفاً انها كاذبة! او على أقل تعديل يجب ان تشكُّوا بصحتها. ابحثوا في عقول الذين ينزوون في المقاهي لا يكلمون أحداً، وانما يراقبون المواكب التي تمرّ، وترتسم على شفاههم ابتسامات حزينة. ابحثوا هناك لعلكم تجدون بداية لتاريخ حقيقي!

هذا ما قلته ذات يوم. كان الأمر عادياً، ولكن حادثة وقعت بعد ذلك مباشرة جعلت لساني يفلت بكلمات غير متزنة. حدث ذلك في غمرة الانفعال!

سألني وابتسامته تدور حول شفتيه:

ـ وماذا تقول في تاريخ ما بعد الملوك؟

ـ أنا أتحدّث عن التاريخ، وما ينطبق على واقعة كبيرة كانت إلى وقت قريب مثل حقيقة أزلية، ثم تهشمت بعد ان برزت وقائع أخرى، ما ينطبق على تلك الواقعة، ينطبق على غيرها. مهمتنا ان نشك، ان نبحث حتى نصل!

قال ذوالنظارات السميكة:

ـ أن تصل إلى ماذا؟

ـ إلى التاريخ الحقيقي. ان نفهم الدنيا وعلى اي قرن تدور!

ـ والتاريخ الذي نعيشه هذه الأيام. . . ماذا تقول فيه!

ـ قلت ما فيه الكفاية، ومَن أراد ان يبحث أكثر عليه ان يبحث في الكتب غير الرسمية، في صدور الناس الذين لا يلمعون مثل الطواويس!

لتأكلك الأفعى يا منصور كما أكلت العصفور. ليمتلىء فمك قيحاً. لماذا لا تقول كل شيء؟ هل تخاف ان تبعث بك تقاريره إلى هناك؟ إلى حيث ذهب عدد من زملائك وطلبتك؟ إلى السجون البعيدة والزنزانات؟ لماذا لا تتحدّى هذه النظارات التي تشبه قاع الزجاجة الميتة. . ؟ لو كسرتها يوماً أو يومين لمنعته من التقارير!

إن احدكما أبله، وقد تكون أنت يا منصور! وإلاّ لماذا لا تطرده مثل كلب؟ لماذا لا تفتح الباب وتسدّد بإحكام نحو مؤخّرته وتضرب مثل تلك الضربات التي كنت تضربها وأنت لاعب كرة قديم؟

تكلم مرة واحدة. تكلم مثلما يتكلم الرجال، وليكن بعد ذلك الطوفان! ولكن من أجل ماذا؟ ان الذين يقرؤون التقارير منذ عشرين

سنة وحتى الآن لم يتغيروا. يذهب الكبار، يذهب اللامعون، يذهب الطواويس، أمَّا الذين يقرؤون التقارير فإنَّهم يظلُّون يقرؤونها حتى يموتوا فوق أسرة عريضة من التخمة او من النقرس!

هؤلاء ليسوا أعداءك، ولكن يوجد بالتأكيد أُناس ينصبون الشباك، يريدون ان يقتلوا الناس. مَن هم؟ ان احداً لا يعرفهم، ولكنهم موجودون في كل مكان. ليست لهم ملامح، ليس لهم أسماء، ليست لهم نياشين، ولكنهم لا يموتون. لا يتحركون، لا يغيبون!

قل، لا تخف، المهم ان تفقأ الدملة، افقأها.

خفّف من غضبي ان الوقت المحدّد للمحاضرة انتهى. سمعت الجرس فشعرت اني أعود لعالم واقعي. كان من الممكن ان أتحدّث أكثر، ان أصرخ، ولكن!

منذ تلك الساعة التي لم تكن ستين دقيقة ابداً، وانما آلاف الدقائق المشحونة بالأخطار والمتفجرات، بدأ يأتي مع ذي النظارات السميكة رجلٍ آخر، كان يبدو هادئاً، وسيماً، تنبىء ملامحه عن جدية تفوق أياً من الطلاب الآخرين. كان يستمع باهتمام، ويكتب باهتمام، وكانت عيناه لا تتركاني لحظة واحدة!

ومنذ ذلك الوقت تعكّرت حياتي تماماً! أصبحت عصبياً، نزقاً، يثيرني أي سؤال. ورغم اني كنت حريصاً على اختيار كلماتي وأجيب بهدوء أبله، فإنَّ حالة من التسمُّم دخلت إلى قلبي. لم أعد أعرف كيف أتكلم. كيف أتوازن. أصبحت أشعر اني مكروه من الطلاب ومن نفسي. لم أعد أرى الابتسامات الفرحة على وجوه الطلاب وأنا أتكلم عن الأيام المشؤومة، أيام التكنولوجيا، كما أحب الكتّاب الكبار ان يُسمُّوها، بعد ان مروا سريعاً على أيام العصابات الأولى!

لم أعد أرى ذلك الغضب يخترق الهواء الساكن ويرتفع سحباً سوداء من الحقد تريد ان تغرق كل الأكاذيب والقديم. بدأت أرى

وجوهاً يعذبها الصمت والتساؤل! وشعرت اني تحوّلت إلى قارىء للكتب الرسمية المصقولة، ولم أعد مدرساً للتاريخ.

كنت أتعذب، وأحقد على نفسي، وكنت أشتم دون ان أنظر إلى المرآة، وتعودّت عادة ذميمة لا تناسب رجلاً مثلي. تعوّدت ان أبصق في كل مكان، على الأرض، على الجدران، وفكّرت مرات كثيرة ان أبصق على السقوف! وبدأت أفكّر بشكل جدي ان أستعمل قاموسي الحقيقي، القاموس الذي أستعمله بصمت بيني وبين نفسي: ان أشتم بصوت عال، ان أقول الكلمات الكبيرة التي يقولها الحمالون وبائعو اليانصيب وسائقو العربات، ولكن سور الجامعة أصبح أقسى عليّ من سور السجن، وأصبحت القاعات الكبيرة الباردة المليئة بالعيون مثل زنزانات لها رائحة المراحيض!

أصبحت أرتد إلى داخلي مثل أرنب مذعور. أرتب الأفكار التي أريد ان أقولها، وأختار كلمات ملساء مثل حجارة القبور، وهكذا تحوّلت إلى فأر أعور ينظر إلى الأشياء بالعين المطفأة.

وبدأ العداء الحقيقي بيني وبين كل الأشياء التي حولي. الريح دعارة الطبيعة. الشارع مزبلة، السجّانون مجموعة من الديوك المخصية. البيت علبة فارغة تنبع من جدرانها الضجة والكآبة. والمخبرون... مَن هم المخبرون: القط الأسود الرابض على سور الحديقة المجاورة مخبر في جلد قط! وبائع الحليب، أمسكت بتلابيب بائع الحليب الأعور، ذات صباح وقلت له:

ـ ان دققت بابي مرة ثانية، أطعمتك للجرذان. اذهب، لا أريد ان أراك!

19

أنت معاد، أنت مخرب، أنت حاقد، وتنهال الصفات. ولكن لفرط استعمالها تصبح مثل غلاف الحية عديمة الجدوى وبدون معنى!

كنت أقول لهم: أنا مجرد انسان يبحث عن البقايا الشريفة في الناس قبل ان تسحق وتتلاشى!

كانوا يسخرون. ينظرون إليّ نظرة تمتزج فيها الكراهية بالرثاء والخوف. ويقولون كلمات كبيرة كأنَّها كلمات القضاة:

«أنت لا ترى في الدنيا إلاَّ الوجه الأسود. لا ترى سوى السلبيات، وعلى أساسها تبني أحكامك ومواقفك. نحن نعترف ان أخطاء تقع، وان.. وان.. ولكن يبقى ضرورياً ان ترى الجوانب الإيجابية. الانجازات».

قلت ذات مرة، وقد نفد صبري:

ـ ماذا تريدون منِّي؟

قال لي صديق، ظلَّ ينظر إلى مواقفي بحزن وأسف:

ـ منصور... أنت تعرّض نفسك للخطر!

سألته: لماذا؟

ـ أنت لا تعيش في هذه الدنيا. تظن نفسك في مكان آخر، وفي عصر آخر. لو كنت واقعياً لتصرّفت بشكل آخر!

ـ ماذا أفعل؟

ـ أن تعتدل، أن تسكت!

ـ هل أترك الجامعة؟

ـ ليس الأمر ان تبقى في الجامعة أو تتركها، المهم أن تغيِّر أسلوبك؟

ـ كيف؟

ـ لسانك حصانك، ان صنته صانك. يجب ان لا تقول أشياء كثيرة، يجب ان لا ترى أشياء كثيرة!

ـ أرأيت صورة السعادين الثلاثة؟ لم أرَ لم أسمع لم أتكلم.

ـ أعرف انك لن تستطيع ان تكون هكذا، ولكن ماذا لو حاولت؟

ـ تتحدّث عن الاعتدال والتطرف، كما لو اني أمتلك قوى جبارة أريد من خلالها ان أدمر الدنيا...

ـ ماذا أملك؟ هل أكذب عليهم؟ هل أقول لهم مثلما قال قائد لأهل مدينة يفتحها: لقد جئت محرراً لمدينتكم لا فاتحاً!

ـ ليس الأمر هكذا، ولكن أنت تعرف ان الذين يكتبون التقارير يريدون طرف خيط، مجرد بداية، وأنت لا تعطيهم طرف الخيط، وانما تساعدهم بكتابة التقرير أيضاً!

ـ ماذا فعلت حتى تقول هذا الكلام؟

ـ هكذا سمعتهم يقولون، ولولا انك صديقي لما قلت لك!

ـ منذ الغد سأتحدث مع الطلبة بشكل آخر!

ـ كيف؟

ـ سأتناول التاريخ الرسمي، التاريخ المكتوب على الأوراق الصقيلة وأقرأ عليهم!

ـ مَن أراد ان يعيش يجب ان يفعل ذلك.

ـ ولكن هذا لن يغيّر شيئاً. سترى بعينيك ان التقارير لن تتوقف يوماً واحداً، وان الحقيقة التي كان يجب ان تعلَّم للطلاب، والتي يمكن ان تفعل شيئاً في يوم ما، داسوها. بالوا عليها، وان منصور عبد السلام أصبح يساوي بنظر نفسه قشرة بصل، بل ويجب ان يموت!

ـ أنا لا أريدك ان تخون قناعتك، ولكن يجب ان تتصرف بلباقة، ان تدرك في أي ظرف تعيش.

ـ ومنذ الآن أقول لك ان هذا لن يغيّر في النتائج!

ـ تخطىء كثيراً اذا تصوّرت الأمر هكذا.

ـ سترى!

تحوَّلت قاعة المحاضرات الى سجن، سجن حقيقي، وتحوَّلت كلماتي الى قطع من الحديد الصدىء، لم أعد أُصدّق انها تصدر عني. كنت أميل بأذني لكي أسمعها، فأنكرها. لم أكذب كثيراً ولكن لم أعد أهتم بما يجب ان يقال. أصبحت أُلقي المحاضرات كأنَّها واجب ثقيل، وأصبحت أرفض الاجابة عن أية أسئلة رغم ان هذا سبَّب لي آلاماً عضوية تفوق طاقة الانسان على الاحتمال.

ـ لماذا هزمنا أول مرة، وكانت لدينا جيوش، وكانوا هم عصابات؟ ولماذا هزمنا للمرة الثانية وكانت لدينا جيوش وعصابات، وليس لديهم إلاّ الجيوش؟

ماذا أقول لهم؟ هل أصرخ وأتعرى؟ هل أقذف نفسي من النافذة؟ كنت أريد ان أتحدّث عن هذا عشرين ساعة متواصلة. ان أقول لهم عن: الجيوش والعصابات، عن ارادة القتال، عن الاستعداد للقتال. كنت أريد أن أبدأ ولا أنتهي، أن أقول لهم لنحاول اختبار الحقائق بشكل مشترك، لنكشف الأخطاء، لا أدَّعي ان لدي الحقيقة، ولكن لنبحث عنها.

ولكن الرجلين اللذين يجلسان هناك كانا ينظران إليّ وإلى ذلك

المسكين الذي يسأل. كانا بنظراتهما المشاكسة التي تشبه بندول الساعة ينتظران ان أبدأ، ولكن لم أقل كلمة. نظرت إليه وهززت رأسي وقلت:

ـ نتابع الآن الفترة التي تلت الهزيمة.

وبصقت في داخلي بصقة كبيرة!

المهم يا منصور ان تملأ الخمسين دقيقة. قل أي شيء. ولكن حذار ان تقرب خط الاستواء! هناك الشمس الحارقة، ومَن يمد رأسه في الشمس يحترق، يدفع ثمناً! وهكذا أصبحت أقول الأشياء كما لو كانت متعلقة بكوكب آخر!

ومع ذلك لم أستطع أن أتجنب النهاية الكئيبة التي وصلت لها.

قبل نهاية السنة الدراسية بثلاث شهور تلقيت قرار التسريح، وأصبحت خارج أسوار السجن!

فرحت. قلت لنفسي: الموت أهون من تزوير الحقيقة. وأنت يا منصور، أصبحت فأراً أعور، أصبحت كلباً أعرج، أصبحت شيطاناً مشروم الشفة. ومع ذلك فإنَّ لديك الآن مبلغاً يساعدك، ولكن لا تسرف، حتى تجد عملاً آخر. ستجد عملاً خلال شهر او شهرين، لا تخف، الدنيا ما تزال خيرة طيبة ويمكن ان تحيا من جديد!

20

ما دام الناس خلقوا أحراراً ومتساوين، فلماذا لا يكون لنا نصيبنا من هذه الأسلاب التي توزّع كل يوم؟

ويصرخون، ويصرخون حتى شقّوا طريقهم بالصراخ. لقد انتهى عصر الاقطاع، انتهى عصر العائلات الكبيرة المتحكمة، يجب ان يتنفس الناس الآن، أن يعيشوا! وفي النهاية وحدهم الذين يعيشون، وحدهم الذين يصبحون اقطاعاً من نوع جديد.

نسوا الرجال المسنّين والأوقات الممتدة إلى ما لا نهاية، نسوا الجرود والبساتين والخرائب. نسوا الانتظارات الصعبة في ليالي الشتاء الطويلة والرجال تصفرّ وجوههم من الخيالات والأشباح وهم يشقون طريقاً أبله من أجل أن يقضوا ليلة قبل ان يواصلوا سفراً مجهولاً، وحبال المشانق تتمرجح في ذاكرتهم وكأنَّها الحيات السود التي تلدغ في الفم تماماً.

كان الرجال يسيرون في الليل، وفي النهار ينتظرون امرأة تلبس ملابس الرجال وتحمل الزاد والأخبار وسلام المحبّين، وتقول انها سمعت عن عفو قريب، وعندما يصدر العفو ستنتهي أيام الخوف والفراق!

ويأكل الرجال الزاد بصمت، يأكلون وينظرون بعيون أسيانة إلى البعيد. لا يريدون شيئاً سوى ان يظلوا أحياء. وعندما يأكلهم الملل

ولا يجرؤون على الغناء، كانوا ينبطحون على بطونهم وينثرون الحصى ثم يجمعونها. يعدّون حبات القمح، يقسمونها أكواماً صغيرة ويتراهنون عليها، فإذا تعبوا بكوا بصمت، وانتظروا. وفي تلك الليالي عندما تصفّر الريح، عندما يسقط المطر يتخيّلون الأشباح تطوقهم، يتخيلون الأحجار تتكلم، تنظر إليهم، فلا ينامون. فإذا أتى نهار جديد تكون وجوههم شاحبة تعلوها علامات حزينة!

كان هذا نوعاً من الرجال يعيش في وقت من الأوقات، وقد حاولوا بالعصا، بالكلمة، بالعين الغاضبة، ثم ماتوا منسيين، ولم يجدوا أحداً يحفر لهم قبراً! أين هؤلاء الرجال من الذين نراهم هذه الأيام؟

ـ كأنك تحكي قصة. كأنك تحلم!

كانت عينا أسعد النوري تضحكان، وفيهما سخرية أكثر من الإشفاق.

واسعد النوري صديقي. عشنا معاً سنوات طويلة. سُجنا معاً. طُردنا من المدرسة معاً.

ثم عملنا في السياسة طويلاً، حتى تعبت، كما أكّد لي بإصرار، وتابع هو. وفي النهاية أصبح مالكاً لبيت له حديقة، ويعيش في الحديقة ثلاثة طواويس وغزلان، زيادة على مائة وسبعة عشر نوعاً من الزهور والنبات كما قال وهو يفاخر بالزهرة السوداء التي تلقاها هدية.. !

قلت له وقد اختنقت روحي تماماً:

ـ الحرمان، يا نوري، يزداد كل يوم، والكنيسة البابوية التي كانت تحرّك بعض الناس، في العصور الوسيطة، والتي احترقت، في يوم الثلاثاء، لم تعد شيئاً بالقياس لكنيستكم الجديدة. ان الكنيسة الجديدة لا تريد ان تُبقي انساناً واحداً إلاً وتخلق له ذيلاً!

ـ عن أي شيء تتكلم؟

وانزلقت من عينيه عبارات الرثاء، وكأنّها تشهد نهاية ما!
أدرت وجهي إلى الحائط وقلت:
ـ اتركني بربك المجوسي، اتركني... احلم.
ـ هذا الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يسلبه أحد منك!
ـ ولكني لم أعد أحلم بالأشياء الحلوة، الأشياء التي افتقدها! أصبحت أحلم بالأيام الموحشة القاتمة التي تظلل الحياة في الوطن، وأنا الآن اقعي مثل كلب قبل تنفيذ حكم الرمي!
ـ لو فكّرت بشكل واقعي لما كنت الآن بحاجة إلى الأحلام!
ـ لقد فقدت ارتباطي بعالمكم الواقعي. أريد ان أحلم فقط، ولكن هل تعرف بماذا أريد أن أحلم؟
ـ أي شيء تحلم به مثل فسوة في الهواء!
ـ ولكن هل تسمح لي بهذه المتعة الصغيرة؟
ـ أية متعة؟
ـ متعة أن أحلم بنهايتكم. عندما أراكم معلقين من أرجلكم!
ـ احلم بما تشاء! ولكن سنبقى فوق صدرك مثل كابوس. سوف نقتلك وأنت حي. ثم انك أبله لا تستحق ان تقتل. واعتقد ان الجماعة لن يوسخوا أيديهم بقتلك. يكفيك ان تموت مسحوقاً مثل فأر!
ـ حتى اللحظة الأخيرة سوف أضحك من أعماقي، لأنّي سوف أرى جثثكم مثل جثث الخنازير!
ـ توهم كما تشاء... واحلم.
ـ سوف افعل. وأنت رغم الصداقة التي كانت تجمعنا، أحسّ أنك لم تعد انساناً.
ـ بالله يا منصور اترك الأحلام ولنتحدث بشكل واقعي!
قلت له باسترخاء، وقد مددت رجلي على طولهما، ونظرت إليه بسخرية:

ـ تفضّل أيُّها المشرِّع!

ولكني فكّرت وتذكّرت قبل أن أسمعه:

«لا أريد أن تدخل إلى حياتي أية كلمة من كلماتك الكبيرة. الشيء الوحيد الذي سأحرص عليه حتى النهاية ان لا أجن ابداً. وهل هؤلاء التافهون يستحقون ان يطلق عليهم النار؟ انا لن أفعل. ولكن الجنون! هل يقتل المجانين أنفسهم؟ قرأت مرة: انهم أحرص الناس على حياتهم، ولكن هل يتألمون؟

تفضّل، هذه الأوراق المالية نصف مليون ليرة ذهبية. يمكن ان تصرفها مباشرة من بنك سردار. قل لهم اذا امتنعوا عن الدفع انِّي سأشهر افلاسهم. لا يجوز أن يتلاعبوا بأموال الناس. نعم لا يجوز. ولكني أعتقد انهم سيُصرفون هذه المرة، في المرات السابقة كانوا معذورين، أنت تعرف الحياة فيها العسر واليسر، وهل تعرف ماذا يعني لو سحبت أموالي من بنك سردار؟ يعني الافلاس. يعني بالضبط ان يرفع البنك يديه مثل الجندي عندما يواجه العدو المتفوق!».

مددت يدي عبر الأسلاك والتقطت الأوراق. كانت عيناه تتراقصان بخوف وهو يمد يده، وعندما وضع الأوراق بيدي، ضغط وقال: لا تسمح لأحد ان يراها! لو رآها أحد لأصبحت حياتك في خطر. حياتك تساوي بعوضة أو دم قملة!

وبهدوء يتراجع خطوتين إلى الخلف ويعاود الكتابة؟ وانظر إلى الورقة التي معي، واقرأ:

«ادفعوا لحامله خمسمائة ألف ليرة ذهبية عثمانية، لا غير».

وعلى ظهر الورقة اقرأ:

«الله يجازي الذي كان السبب. طز على هذه الدنيا. انها تساوي أنف بقرة ميتة».

ـ ماذا تقول يا منصور؟

وواصلت مشواري بين الحقول، وكنت أُردّد كلمة واحدة: «الجنون قمة اللذة!»

ـ ان هذا الجيل مثل الأجيال السابقة. اترك الأحلام وحاول ان تفكّر بشكل واقعي من أجل ان تعيش. ثم انك لم تكن كذلك! ماذا أصابك؟

ـ ثق ان كل الأجيال التي مرَّت في التاريخ كانت أحسن من هذا الجيل. جيلنا لم يفقس من البيضة حتى انغمس في التفاهات. انه أقبح جيل يمكن ان يمر على هذه الأرض، ولكنه لا يعترف. ماذا نحن يا أسعد؟ هل رأينا أعواد المشانق؟ هل شممنا رائحة البارود؟ نحن لم نتشرد في طول الدنيا وعرضها، فتحنا أعيننا على المناصب الكبيرة، وأنت ألا تريد ان تصبح وزيراً يا أسعد؟ وغيرك ألا يفكّر بالراتب الكبير؟ ألا يفكّر ان يتزوج من عائلة كان إلى الأمس القريب يشتمها؟ واللصوصية، نعم اللصوصية، السرقات، الصفقات الكبيرة.. ومع مَن؟ نفس السماسرة ونفس القوّادين، ما أشبه الليلة بالبارحة!

ـ والله لو نقبوا عينيك فلن يكون كثيراً!

ـ لينقبوا حتى يشبعوا. ليس بعد الكفر ذنب. وتغضبون اذا قال لكم أحد الحقيقة؟ نعم يجب أن تغضبوا!

ـ يا أخي لن تستطيع شيئاً، لو سلّمت معك بكل ما تقول ما فائدة الكلام الآن؟ أنت فرد، ولا تساوي ذبابة!

ـ الجيل الذي تدافع عنه، هذا الجيل النتن، المأبون، الدعي... ألف صفة من هذا النوع لا توازي الصفات الكبيرة التي يطلقها على نفسه.

ـ وهل كانت الأجيال الأخرى أحسن؟

ـ جيلنا لم يعط نفسه حتى فرصة الخيال، ان يتخيل ببناء مدن سعيدة. بهدم هذا العالم المتوحش الكئيب. هذه المتع الصغيرة التي

يحسها أي حشاش لم ينعم بها هؤلاء الصغار. انهم يركضون وراء أمور يخجل حتى الذين تجاوزوا المائة سنة من التفكير فيها! انتهوا قبل ان يبدأوا، هؤلاء الصغار. كل واحد منهم الآن يفكّر بحساب الراتب التقاعدي، بتأمين صلات مع جهة ما، في مكان ما، بأن يجول العالم بجواز سفر ديبلوماسي، وبعد ذلك يكون صراخه أشد ما يكون اذا طُلب منه ان يعطي شيئاً. ينفعل، يحتج، ينتقل من ضفة الى أخرى، يتظاهر انه مضطهد، انه شهيد، ويحلم مرة بالعودة الى مركز أفضل، إلى راتب أكبر!

ـ أنت تظلم الناس، لقد حاولنا أن نقيم عالماً جديداً، ونحن الآن نقيمه. لقد تغيّر كل شيء، ولكن الظروف أكبر منا، يجب أن تفهم الأمور فهماً واقعياً، ولا تطمح أن نطالب هذا الجيل بأكثر مما يستطيع!

ـ قلت لك هذا الجيل مريض، عاجز حتى عن الحلم. كل الأجيال، وفي جميع الأماكن، حاولت ان تعمل شيئاً، وحتى في أصعب الساعات وأكثرها قسوة لم يكن الواحد من الأجيال الأخرى يريد ان يسلم!

يا للسخرية: الجيل الخائب: رجال ونساء ومعهم أطفالهم في عربات تجرها الخيول.. وأين؟ في الشتاء الأوروبي القاسي الحزين، يبدأون رحلة ليس لها نهاية، رحلة يائسة من أجل أحلام يعرفون انها لن تتحقق، ولكنهم يتوقعون ان يكون أول رسول يأتيهم من روسيا سيكون المبشر والنبي الذي يزف اليهم أنباء سقوط القيصرية وانتهاء الرق!

ضاعوا في منافي أوروبا، ولكنهم ضاعوا وهم يحلمون، ونحن؟ نشتمهم، نقول البلهاء.. الذين عجزوا عن فهم حركة التاريخ!

جيل الآباء، جيل الأجداد.. أولئك الذين أرادوا ان يظهروا،

ولو لفترات قصيرة، كشهداء، عندما شرطوا عروقهم بالأمواس وتركوا الدماء تسيل، استلقوا عند أبواب الزنزانات ليتسرب خيط الدماء ويراه الحرس، حتى هؤلاء الذين نشتمهم، ونمتنع عن اعطائهم ارضاً بطول ستة أقدام وعرض قدمين ليدفنوا فيها، حتى هؤلاء كانوا أحسن من جيلنا!

ـ ألا تقول لي يا منصور بماذا تحلم الآن؟

ـ أحلم ان أرى جثتكم تأكلها الديدان والغربان وبنات آوى.

ـ وجثة الأمبراطور؟

ـ سمّني ما تشاء، لا يهم.

ـ سنبقى أصدقاء. قل ما تشاء...

ـ لا أريد ان أقول شيئاً. أريد ان أحلم!

ـ وبماذا تريد أن تحلم بعد ان ترى جثتنا معلّقة على المشانق؟

ـ ما فائدة ان أقول لك، ما دامت أحلاماً؟

ـ أنت تحلم عن الجميع، وسوف تموت وأنت تحلم!

ـ اذا كنت تريدني ان أستمتع بالأحلام فاتركني.. لا ترني وجهك.

ـ أنت أناني أكثر مما يجب.

وافتح الجيل الخائب واقرأ كلمات ليرمنتوف!

«ان نتأمل الحياة دون ضجة او شكوى.

ربما يكون ذلك أفضل المواقف. ألاّ نشارك في الأشياء.

ولكننا آنذاك ونحن نتأمل،

سنفهم ان الحياة ليست سوى مزاح ثقيل.

مزاح مبتذل وبليد.

ولعب اخرق بالألفاظ».

21

تسلقت بنظراتي الساقين، تسلقت البطن، وعند الصدر تماماً بدأت أحس بدمي يلهث. كنت أريد ان أصل عيونها، لأنَّ نظرتها اثناء ما انشغلت العجوز بفتح صرتها حرّضت كل جسدي، فتحت الأنفاق العكرة التي تدوي في دمي. قلت لنفسي وانا أدلق الى داخلي ابتسامة كبيرة لا أريد ان تظهر على شفتي: «مَن صبر ظفر يا منصور وأنت الآن ترتمي في عينيها مثل خيال اغريقي. تريدك، تشتهيك، فإذا عرفت كيف تتصرف فلن تنتهي الرحلة إلاَّ وانت ملك متوّج. المهم ان تضع السم لهذه الكومة من الحطام، التي ليس فيها سوى هاتين العينين الذابلتين، تحركهما مثلما تحرك الحية لسانها. اقتلها فوراً. قف، امسك بها من رقبتها الضامرة وبكل ما أوتيت من قوة اضغط حتى يخرج لسانها، حتى يتدلّى مثل قطعة المطاط. وستبقى وحيداً معها، تسألها عن اسمها، تمد يدك الى شعرها الأسود وتعبث به. وتنظر إليك وتضحك، ثم فجأة تسألك: وهذا الضمير الميت أنتركه معنا؟ وتحمل العجوز وتلقي بها من العربة. لا يبقى منها إلا الصرر السوداء وبقايا الأكل!

أتأخذها معك الى مواقع العمل؟ لن يقول مسيو دونال كلمة واحدة، لم يسألوك ان كنت متزوجاً أم لا، ومسيو دونال أليس متزوجاً؟ هل يترك زوجته في باريس؟ لا. . ان الأجانب لا يتركون زوجاتهم ابداً. مسيو دونال: زوجتي، ولكن ما اسمها؟ رحاب؟

كاترين؟ سهام الصناديقي؟ اسمها ليلى. ويقول لك المسيو دونال: ما أرق هذا الاسم، انه يناسب هاتين العينين الجميلتين! ليس عيناها وحدهما الجميلتين يا مسيو دونال ان لها بشرة شفافة مثل البلور. وقلبها!».

ولكن فرحك تبدّد في لحظة دفعت اليك العجوز عينين متعبتين ونظرت. كدت ترتجف، كدت تبكي. لم أفعل شيئاً أبداً، ما زلت في مكاني. وحتى الرغبات المشروعة لا أقوى ان أمارسها. . انا أدخن أقل من السابق، امتنعت عن شرب العرق، لا أتحرّك ابداً، وصامت كأني حيوان أخرس، هل تريد منِّي أكثر من ذلك؟

لقد تبدّد كل فرحك يا منصور. لم تعد تعرف الفرح. ولكن هل يفرح الناس؟ كيف يفرحون؟ تبدّد كل شيء فيك، أصبحت مثل ابريق مثقوب القعر، لا يستقر فيك سوى الحزن. ان الحزن كثيف لدرجة انه يلتصق بجوانب الجسد من الداخل، يلتصق ولا يزول، ألاَ تحس بالطبقة اللزجة فوق لسانك؟ في جدران عروقك من الداخل؟

سافر الفرح يا منصور، تبدّد مثلما كانت تتبدّد النقود من جيبك.

قالوا لك بصوت عال لا غموض فيه ابداً:

«لا تحاول. نعم لا تحاول. لن تجد وظيفة أخرى. أنت مسرّح، أتعرف معنى ان يكون الانسان مسرّحاً؟».

اعتبرت الأمر، في البداية، مجرد غضب سيزول. ولكن الأيام تنقضي والأبواب تصدني باب وراء باب! قلت لنفسي ذات يوم: لن أتركهم يقتلونني، لن يقتلوا ارادة الاحتمال فيّ. لن تموت، حتى الكلاب لا تموت جوعاً، ومن هؤلاء الذين يريدون قتلي؟ أنا أعرفهم، أعرفهم واحداً واحداً. لقد رأيت هذه الوجوه حتى مللت رؤيتها، ورأيت وجوهاً غيرها. أين أصبحت تلك الوجوه؟».

قالوا لي عن طريق صديق: «أمامك أحد أمرين، إمَّا ان تصبح رجلاً معقولاً وواقعياً او ان تجن».

«لن نكرمك مثلما فعل غيرنا، بأن ندخلك السجن، لكي تصبح بطلاً وشهيداً، ولكن لن نعطيك فرصة لأن تعيش براحة ما دمت عنيداً هكذا!».

ماذا يريدون منّي بعد ان أصبحت الوظائف الحكومية محرّمة عليّ؟» ماذا يريدون ان أفعل؟

منصور عبد السلام في أول عمره. يمكن ان يعمل بواباً، كناساً، تاجراً صغيراً، سأبوّل على الشهادة وأعمل بيدي. لن أتركهم يشمتون بي. منذ الغد لن أراجع أية جهة رسمية... وسوف نرى!

قلت لمدير مدرسة خاصة، وانا أقدّم له شهادتي:

ـ يمكن ان تتعاقد معي براتب خريج الجامعة. لا أطالب بعلاوة ثمناً لهذه الشهادة!

نظر إليّ باستغراب، وزاد استغرابه اكثر عندما عرف اني كنت مدرساً جامعياً، قال:

ـ يشرّفنا ان نضم إلى جهاز التدريس رجلاً مثلك. وصمت.

صمتنا وقتاً طويلاً، كأنَّنا نسينا عادة الكلام، وما كدنا نسمع صوتاً طرق آذاننا في لحظة ما، حتى افقنا كلانا، نظر إليّ من جديد باحترام يشوبه الخوف ثم سألني:

ـ ولماذا تركت الجامعة يا أستاذ؟

وبهدوء أبله، حاولت ان أقول أصعب الكلمات:

ـ لقد سُرّحت. سُرّحت لأسباب سياسية!

مد رجليه، تمطى قليلاً، ثم فتح درج مكتبه وأخرج ورقة رماها أمامي بوقاحة، وقال:

آسف يا استاذ. يمكن ان تطّلع بنفسك على هذه التعليمات التي تمنع علينا استخدام أي شخص مسرّح!

وذهبت الى تاجر كان صديقاً لابن خالتي، وبعد مجاملات طويلة تخلّلتها الأحاديث عن البلدان الأجنبية قال لي:

ـ أشعر بأسف حقيقي لأنّي لا أستطيع ان أُوفّر لك عملاً في الوقت الحاضر.

وأفهمني بشكل غير مباشر ان أُفتّش عن عمل في مجال آخر، لأنَّ خبرتي بالأعمال التجارية لا تشجّع أحداً على استخدامي!

طرقت أبواباً كثيرة، ولكن لم أجد احداً يجيبني. كانت الاجابات متشابهة، واحدة. وكانت الوجوه رغم الابتسامات التي تطفو عليها، تتعب وتقسو عندما يصبح الحديث متعلقاً بالعمل.

وخلال هذه الفترة ولدت في رأسي عشرات الأفكار العبقرية، ولكن كانت تتبدّد وتنتهي عندما ابدأ أُفكّر بالمال!

واقتنعت أخيراً ان العمل اليدوي وحده يمكن ان ينقذني، ولكن هل تستطيع هذه العضلات المشلولة، والتي لم ترَ الشمس منذ وقت طويل، ان تفعل شيئاً؟

ماذا لو أصبحت بنّاءَ أو خزّافاً؟ هل أستطيع ان أحمل الحجارة؟ ان احوّل الطين الأصم الى كائنات حية تركض في كل البيوت؟

وماذا لو حاولت ان أُسافر؟

نعم السفر الحل الوحيد. يمكن ان أُسافر فوراً، لا يهم إلى أين، حتى إلى الجحيم، فقط أريد ان أبقى حياً. وخلال اسبوع يمكن ان أحمل حقيبتي وأُسافر..

وقدّمت طلباً للحصول على جواز سفر. قلت في نفسي، اذا وضعت الجواز في جيبي أُصبح أكثر قدرة على التفكير المتزن، أمّا الآن فإنّني أُفكّر مثل كلب.

وبدأت رحلة جواز السفر. انها أطول رحلة في هذه الحياة، لم أستطع ان أصل إلى نهايتها إلاَّ بعد سنتين وسبعة شهور.

مَن يصدّق انني انتظرت سنتين وسبعة شهور من أجل جواز السفر؟

ـ أين تريد أن تسافر؟

ـ ليس أمامي مكان محدّد. أريد ان أبحث عن عمل، اينما أجد عملاً أذهب!

راجعنا بعد شهر!

وبعد شهر أدق الباب. لقد نسيني تماماً. لم يعد يتذكّر انه رأى وجهي من قبل. لأتركه يأكل الآن وأعود إليه بعد نصف ساعة. أغلقت الباب بهدوء وتراجعت.

ـ راجعنا بعد شهر آخر!

وتنقضي الشهور. وتمر سنة بكاملها وأنا أُراجع دون تعب. وبدأت أستدين، لم أترك أحداً من أصدقائي ومعارفي إلاَّ واستدنت منه، أصبحت أخجل وأنا أذهب إليهم، وأنا أراهم. لم تعد الأرض تسعني، أصبحت صغيراً مثل برغوث، ودنيئاً مثل قط أجرب، كنت أتمنى ان أدخل بالوعة الشارع، ان أرمي نفسي في النهر. «هل تحوّلت يا منصور إلى شحاذ؟»

وإلى متى يحتملك أصدقاؤك؟ إلى متى يعطونك نقوداً؟ ولكن الدين معروف بين الناس منذ أيام نوح! لماذا أخجل؟

خلال هذه الفترة وجدت ان أحسن طريقة للحياة هي ان أعمل في الترجمة.

واستغرب كيف انني لم أُفكّر بهذا الأمر منذ وقت طويل. لو بدأت بالترجمة لاستطعت ان أنجز خلال هذه السنة ثلاثة كتب او أربعة. كل كتاب يعادل سنة في الجامعة. هذا معناه أنّي سأُصبح ثرياً! جميع الذين يعملون في الترجمة أثرياء. لم يكونوا كذلك، ولكن ما

ان مضت سنوات قلائل حتى تحوّلوا من أُناس عاديين إلى رجال مرموقين وأثرياء!

الترجمة قارب النجاة. سوف أختار كتباً ملائمة. لن أنحدر إلى مستوى الترجمات التي تملأ الأسواق. سوف أختار كتباً جادة. لا يهم ان تكون سياسية او أدبية، ولكن الترجمة الأدبية تحتاج إلى قاموس خاص، لا أدري ان كنت أمتلكه.

اخترت كتاباً بالقرعة. نعم يجب ان تصدّقوا. فبعد ان حرت في الأمر طويلاً، قرّرت ان أختار كتاباً من سبعة، وان أختاره بالقرعة، وكان ذلك الكتاب سبباً جديداً من أسباب النحس الذي يرافقني. كان الكتاب ببساطة: «كومونة باريس». عملت ليل نهار. دخّنت عدداً لا يحصى من السجائر. صفنت طويلاً وانا أختار الكلمات بأناقة، ولما انتهى شعرت بفرح لم أشعر بمثله في حياتي. في لحظة واحدة ذاب التعب وزالت الهالات الزرق التي كانت تحيط بعيني، وأحسست أنّي قادر على مواصلة العمل فوراً، ولكن قلت لنفسي: يجب ان تحتفل بهذا الحدث يا منصور. اعطِ نفسك اجازة يومين أو ثلاثة. واذا سكرت الآن فلن يكون سكرك على زعل. لقد حان وقت الفرح، ويمكن ان تكرّم نفسك على ما أنجزته!

وما كدت أنتهي من تحضير الكتاب للطباعة حتى بدأت أُفكّر بالكتاب الثاني، وكدت أستقر على اختياره، ولكن رحلتي الثانية أجّلت كل مشاريعي.

الناشر الأول رفض أن يناقش الموضوع بصورة مطلقة. قال: لدي كتب مدرسية أريد أن أنتهي من طباعتها قبل الخريف، ولا أُفكّر بشيء غير ذلك الآن!

الناشر الثاني قال بلهجة متعالية رخية:

ـ موضوع الكتاب جيّد، ولكن ليس له سوق هذه الأيام، لن يكون كتاباً تجارياً، ولذلك لن أغامر بنشره.

وطلب منّي أن أُراجع ناشراً سمّاه لي قد يكون له امكانية لنشر مثل هذا الكتاب.

تصفّح وجهي أكثر مما تصفّح الكتاب. قال:

ـ أتذكر اننا التقينا قبل هذا الوقت، لا أدري أين ومتى، ولكن الوجوه التي أراها مرة لا تغيب عنّي! كنت مهذباً. قلت ان وجهك مألوف بالنسبة لي. ولكن لا أتذكّر أين التقينا!

وانتهى الأمر بأن تركت عنده الكتاب، على أن أُراجعه بعد اسبوعين. وخلال هذه الفترة عاودتني فكرة ترجمة الكتاب الجديد، ولكن قلت لنفسي: اصبر يا منصور، انت لست أبله إلى الدرجة التي تنفق فيها القروض الصغيرة التي تحصل عليها ثمناً للورق!

ابتسم لي وبدأ يتحدّث عن كساد سوق الكتب والصعوبات التي تواجه الناشرين هذه الأيام، وكيف ان السلطات تخلق له مضايقات كثيرة. صحيح انها تسمح بنشر بعض الكتب التي كانت ممنوعة ذات يوم، ولكن لكل شيء ثمناً!

بدأت أتشاءم وأنا أستمع اليه، وأخيراً جاء صوته بارداً حاداً وهو يقول لي:

ـ قرأت الكتاب، الكتاب مهم، مهم جداً، ولكن أعتقد ان صعوبات تعترضه، قد لا توافق السلطات على نشره، واذا وافقت سيكون الكتاب غير تجاري. ما رأيك يا أستاذ منصور لو تترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية. أليس ذلك أفضل؟

أمّا الناشر الأخير فقد قال لي وهو يتمطى:

ـ انا تاجر. الكتاب الذي يُعطي مردوداً تجارياً أتبناه، وأنا لا أستطيع أن أقدّر نوعية الكتب الملائمة. اترك لي الكتاب، سوف أعرضه على مستشاري، فإنْ وافق عليه، يبقى أمامك خطوة أخرى، ان تحصل على موافقة السلطة لنشره، وعندها يمكن ان أعطيك قسماً من المبلغ الذي نتفق عليه!

كان رأي المستشار الثقافي: يُحتمل ألاَّ تسمح السلطات بنشره!

وبدأت رحلة طويلة مع السلطات، انتهت بالفشل! رفضوا الموافقة على نشر الكتاب. كانت العبارة صغيرة وواضحة: اشارة الى معروضكم الخاص بنشر كتاب «كومونة باريس» نشعركم بعدم الموافقة!

هل تريدون أن أموت جوعاً، ان أتسلّل عبر الحدود واهرب؟ ماذا تريدون منِّي بالضبط؟

قال لي أسعد نوري، وهو يمد شفتيه باستخفاف:

ـ لماذا تسألني بهذه اللهجة؟ هل انا خصمك؟

ـ ولكن أريد ان أفهم، إلى متى سوف تستمر المعاملة هكذا؟ لا عمل، لا جواز سفر... وحتى كتاب أريد ان أطبعه لا توافقون؟

ـ لست مسؤولاً ولا أعرف شيئاً عن الموضوع!

ـ مَن يعرف؟ ماذا لو كنت مكاني؟

ـ ولكن لا أستطيع ان أفعل شيئاً.

ـ والكتب التي تتراكم مثل التلال، وتتحدّث عن الانحرافات الجنسية، وعن عشيقات نابليون... وعن.. وعن، كلها يُسمح بها وكتاب ترجمة العبد الفقير منصور عبد السلام لا يوافقون عليه؟

ـ لا أستطيع ان أفعل شيئاً.

ـ ومَن يستطيع؟

ـ أنت تعرف!

ـ والله لو متِ جوعاً لن أفعل! صحيح اني غير قادر على المقاومة ولكن لن أُصبح كما تريدون! أريد ان أسألك سؤالاً صغيراً يا اسعد: هل منصور عدوكم الأساسي؟

ـ تتكلم معي كما لو كنت أنا الذي يقف في وجهك.

ـ انت مثلهم. أنت واحد منهم!

ـ قلت لك انني حاولت، وقد عرضت نفسي لاتهامات وشكوك كثيرة حتى انهم حققوا معي وسألوني عن علاقتي بك. لماذا تدافع عن منصور! ولكن يا ناس منصور انسان يريد أن يعيش، وأعتقد انه ليس أسوأ من غيره «لا أنت لا تعرف منصور، أو تتستر عليه»! ولكن منصور أقوى من العقبان، منصور لا ينتهي، انه يسافر الآن. لكن الديون التي بذمتي سأعيدها، سأعيدها وكلمة شكر رقيقة:

أيُّها الناس الذين ساعدتم منصور ليظل حياً لا أقدّم لكم شكري فقط، أريد أن أقدّم شيئاً من روحي، أريد ان أستعمل لغة لم يستعملها بشر في التعبير عن التقدير الذي أحسّه نحوكم. هل رأيتم كلباً يشكر صاحبه؟ أريد أن أستعمل طريقة للتعبير عن شكري... مثل طريقة الكلب!

22

من حقِّي أن أقف على ساق واحدة وأرقص، من حقِّي أن أتمدّد على المقعد بعد ان أنزع حذائي. لي حقوق كثيرة، لماذا لا أُمارسها؟ ألم أدفع ثمن تذكرة كاملة؟ تصوروا. . . ولم أتقاضَ حسماً من أي نوع. دفعت قيمة التذكرة حتى آخر بارة، وأنا الآن مربوط مثل حمار البئر، انظر ببلاهة الى هاتين المرأتين، انظر الى الكتب، أدخن، أتطلع إلى الشمس الغارقة في وهج أسود. أفكّر، أحلم، أبصق في داخلي، وأتمنى أن أمتلك قنابل ذرية.

وأنت يا مسيو دونال، هل وصلت إلى الموقع؟ هل حضّرت كل شيء لاستقبال الرجال الذين سيبحثون عن ألواح الطين؟ واذا وجدناها يا مسيو دونال، ماذا سنفعل بها؟ لنعرف التاريخ القديم بشكل أفضل؟ واذا عرفناه هل يتغير شيء في حياة الناس الذين يعيشون الآن؟ ان ما تفكّر فيه يا مسيو دونال مجرد عبث أخرق. وحتى المسيو مارشان الذي أحببته كثيراً، إنَّ ما يُفكّر فيه عبث أخرق. لو تركنا الألواح ترقد في مكانها بسلام، لو تركناها تتحلّل وتنتهي. . . أما كان ذلك أفضل؟

ولكن يجب ان تفرح يا منصور، نعم ان الحياة قصيرة لدرجة ان الانسان يجب ان يسرق لحظات الفرح، واذا لم تكن سارقاً جيداً سوف تنزلق الحياة، وسوف تنظر إلى الوراء ذات يوم وتبصق، ستقول لنفسك: هذه السنين كلها ولا لحظة فرح واحدة؟

افرح. قم وارقص على ساق واحدة. من حقك ان ترقص، من

حقك ان تتمدّد على المقعد، أمّا هذا البلور الشفاف الذي تراه أمامك فسوف يتلاشى في المحطة القادمة. وان لم يكن في المحطة القادمة ففي محطة أخرى. لن تبقى من هذه الحياة إلاّ ذكرى ستتبدّد في غبار الموقع وانت تحضر فأسك الصغير. أترى الأشياء تسير؟ ان الأشياء مثل الأنهار لا يمكن ان يبدّل سيرها أحد. لو تكلمت معها، لو سألتها عن اسمها، ولو قلت لها انت جميلة أيّتها المرأة... وماذا بعد ذلك؟

وبعد سنتين أُسافر إلى بلجيكا مرة أخرى. سوف أزور كاترين.

«لقد تغيّرت كثيراً يا كاترين خلال هذي السنين. ماذا حصل لك؟» «وانت يا منصور لشد ما هي قاسية يد الزمان. لا أُصدّق انك أصبحت هكذا! وهذه التجاعيد كيف غزت جبهتك بهذه السرعة؟

أتذكّر انك كنت تقول: لن أشيب، لن أهرم. أراك الآن وقد تحوّلت إلى شيخ!».

«وماذا سميت ابنتك الثانية يا كاترين؟»

«نعم أريد صورة ايزابيل وصورة دايانا. نعم أريد صوراً كبيرة..»

«وانت ألاَ تفكّر ان تتزوج يا منصور؟»

ومسيو دونال؟ لو عرفت الحياة التي عشتها يا مسيو دونال لما فكّرت ان تبحث عن ألواح الطين أبداً. التاريخ! ما هو التاريخ؟ أكذوبة كبيرة، القسوة، الفظاظة، الكذب، كل شيء منذ أيام نوح حتى هذه اللحظة مبني على الأكاذيب، والناس يلتذون كثيراً وهم يركعون أمام هذه الأكاذيب ويقبّلونها!

لا أستطيع يا مسيو دونال ان أرفع قضية امام المحاكم، فكّرت بذلك طويلاً، ولكن لم أجرؤ. ان محاولة مثل هذه ستؤدّي إلى مزيد من المتاعب، وبدون جدوى. العمل حق وواجب يا مسيو منصور. لا ان البطالة قدر، مثلما هو الموت، ولكن تلك أيام بعيدة، ويجدر بالانسان ان ينساها! كاترين... أريد غداً ان أسافر. كانت أياماً

جميلة، مثل تلك التي كانت قبل سنوات، ولكن لا أستطيع ان أبقى، سوف أمر في عودتي على باريس، هكذا اتفقت مع المسيو مارشان. ان لديهم نصوصاً أريد ان أترجمها. والمسيو مارشان رغم قسوته لا يكف عن الشراب والضحك، انه قصير وله كرش، ولكن لم أرَ في حياتي انساناً مثله: يحضّر طعامه بنفسه ويشرب حتى يدوخ! صحيح اننا نختلف في فهم التاريخ ولكن ما التقينا مرة إلاّ وكنا نصرخ في وجوه بعضنا مثل الديوك، ثم ينتهي الأمر بأن ندق كؤوسنا ونشرب وقد خيّمت علينا سعادة حقيقية!

أمّا رحاب فقد تلاشت، أصبحت طيفاً، وهاني غرق تماماً في عيادته. ذهب أكثر من مرة لبريطانيا ولكنه ما ان يعود حتى يفكّر ببريطانيا مرة أخرى! هل أحب امرأة انكليزية؟ هل له عشيقة هناك؟ يقول لها يجب ان تبقي مع الأولاد يا رحاب. ماذا أستطيع ان أفعل وأنا أقضي حياتي كلها في المستشفى وبين المرضى؟ لم أرَ مسرحية واحدة! لم أذهب إلى السينما أكثر من مرتين خلال السنة الماضية. يجب ان تصدّقي يا رحاب، اذا لم تصدّقي اضربي رأسك بالجدار. نعم يجب ان يتحطم رأسك. انتهت تلك الأيام كلها. لم يبقَ شيء أبداً!».

بإمكاني أن أرقص. بإمكاني ان أغنّي بصوت عال، ألم أدفع ثمن تذكرة كاملة؟

بعد غد، بعد ثلاثة أيام تلبس معطفاً أزرق وتحمل فأساً صغيراً، وتبدأ. العضلات المشلولة، الوجه الكابي، العيون التي أتعبها الضوء الكهربائي، الكتب، حتى جلجامش، الكتاب الذي تحبّه كثيراً، يجب ان تتحرّر منه، يجب ان تغيّر نمط حياتك.

حاول ان تصبح الياس نخلة جديداً. لماذا لا تصبح فيلسوفاً يا منصور؟ لماذا لا تكون لك فلسفة في الحياة؟ لو فكّرت جيداً لاستطعت ان تكتشف الحقائق الكبرى. ان اكتشاف الحقائق بداية رائعة. سوف تفهم جيداً لماذا يطارد الياس نخلة، لماذا قطعوا

أشجاره. وأنت... سوف تفهم حياتك، لماذا أصبحت يابس الرأس وترفض ان تعيش مثل الآخرين.

ولكن عن أي آخرين تتكلم الآن؟ أحمد، محمود، راتب، اسعد؟ نعم تتذكرهم جيداً، تتذكر كل شيء ولا حاجة بك الآن لذكريات أخرى، ولكن الحياة هكذا، انها حادة مثل السيف، واذا لم يستطع الانسان ان يمشي بمحاذاة السيف تماماً فسوف يتمزق، سوف يتحوّل جسده إلى فتات صغيرة، أصغر من النحل.. والأفكار!

الكلمات الكبيرة؟

اترك كل شيء، المهم ان تبدأ عملك بعقل جديد. حاول ان تنسى.

❀ ❀ ❀

وقف القطار في محطة صغيرة، محطة ليس لها اسم، وقف هناك ولم يتحرك. ومن النافذة رأيت عدداً من الجنود بأسلحتهم يطوقون القطار، وسمعت اصواتاً خافتة وحركة مشحونة بالخطر. ومن النافذة رأيت الجنود يسوقون اثنين. كانا رجلين في حدود الثلاثين. هل كانا بائعين للملابس القديمة؟ مهرّبين؟ تاجرَيْ أسلحة؟ سياسيين؟

كانت الشمس تنزلق من السماء حادة مشحونة بالعذاب والسأم. نظرت إلى وجوه الرجال، كانت غاضبة وحزينة، وكان الرجال غاضبين وحزانى، الرجلان اللذان يمشيان بثقة الأنبياء الصغار كانا حزينين وغاضبين، الجنود الذين يحيطون بالرجلين والقطار، كانوا غاضبين وحزانى. ونظرت الى الأرض، إلى السماء، إلى وجهي المرأتين اللتين تجلسان قبالتي وتتابعان المشهد. كانت كل الأشياء حزينة لدرجة البكاء. نظرت من النافذة وقلت: لا بد أنَّهما فعلا شيئاً مخالفاً للقانون، وربما تحديا القدر، هذان الرجلان يجب ان يجلدا حتى الموت!

اليوميات

الثلاثاء 7 تشرين الثاني:

السماء صافية، بعيدة... كذلك الفرح.

الموقع بعيد عن المدينة، وكل ما حوله أرض خراب لا تنبت عرقاً أخضر. الأشجار هنا حلم.

ولكن ما هو الموقع؟

مجموعة خيام وعربة، وسط تلال صفراء. ولا شيء غير ذلك.

أحضر المسيو دونال عربة قيادة، وهي عبارة عن مقطورة خشبية أنيقة، لونها رمادي، وقد أصبحت، بعد أن فكّت عن السيارة وانزلقت قوائمها في الأرض، بيتاً ومكتباً ومخزناً للبيرة والنبيذ.

كنت أقضي في عربة القيادة جزءاً مهماً من وقتي في تحضير الرسائل لدائرة الآثار... وللمسيو مارشان.

نحن الآن ثلاثة عشر رجلاً، لا توجد رائحة لامرأة في مساحة نصف قطرها خمسة عشر كيلومتراً، أمّا زوجة المسيو دونال فلن تأتي قبل الربيع.

«لو كنت متزوجاً يا مسيو منصور لسببت لنا هماً. لقد تذاكرت مع المسيو مارشان حول ذلك، فضرب رأسه وقال: لقد خدعنا ذلك

الزنجي. استغل خطأنا ولم يذكر شيئاً عن زوجته، وسوف يأتيان معاً إلى الموقع».

فكّرت بكاترين. لو كانت معنا الآن، أين تسكن؟ ماذا تستطيع ان تعمل؟ وهذه التي التقيت بها في القطار... أو أية امرأة أخرى!

لا يستطيع الرجل ان يفكّر باتزان إذا لم تكن المرأة قريبة منه. إنَّ عقله يختل، ويصرف وقتاً طويلاً في حلّ أمور صغيرة!

بدأنا العمل أمس. وضعنا خطوطاً بيضاء حول التل الكبير، بعد ان نصبنا الخيام وحضّرنا الساحة الرئيسية التي ستكون مركز التجمّع والمخزن ومكان وقوف السيارات!

فكّرت بأن نزرع شيئاً، ولكن الماء قليل لدرجة ان الانسان يجب ألاّ يفكّر بمثل هذه الحماقات.

كان لقائي مع المسيو دونال رسمياً، لم يكن دافئاً، ولم يكن مثيراً للاشمئزاز. مدَّ الرجل يده وشدَّ على يدي، وقال:

ـ أتمنى ان نقضي وقتاً ممتعاً... معاً.

ثم بدأ يقدّم لي العناصر التي تعمل معنا:

ـ مسيو فرانسوا مهندس، مسيو راؤول مرمّم آثار، مسيو ريجي مجموعة اختصاصات تبدأ من تذوّق النبيذ حتى تنتهي بالعزف على القيثار... وبين النبيذ والقيثار: رسام، طاه، نحّات!

ونظر إليّ المسيو ريجي وغمز بعينه وهو يضحك. يبدو هذا الرجل أقرب إلى التشاؤم رغم المرح الظاهر عليه!

ثم قدّم لي المسيو دونال العناصر المحلية:

ـ أنا لا أعرف أي اسم. أعرفهم بوجوههم. أمَّا المسيو جبيّر فهو المسؤول...

وتقدّم خطوة نحو جبيّر وأمسك بساعده وضغط وهو يبتسم!

ـ المسيو منصور لقاء الشرق والغرب. سيكون لسان الجميع،

سيكون عربياً وفرنسياً في وقت واحد!

لا أريد ان أعلّق الآن بكلمة واحدة. . .

السماء صافية وبعيدة. لا قطرة ماء حتى الآن. برودة لذيذة في آخر الليل، التلال قاسية صفراء كأنَّها دمامل في هذا المدى المترامي. لولا التعب الذي يحسه الرجال لغنوا او لسئموا، ولكن التعب يمتص كل شيء!

الأربعاء 8 تشرين:

جاء اليوم موظف الآثار ومعه ضابط الشرطة.

كان اللقاء رسمياً، جرى خلاله الحديث عن العمل والطقس. كنت أترجم للمسيو دونال، لكن وقع شيء لم أرتح له ونحن نشرب الشاي في عربة القيادة.

قال ضابط الشرطة:

ـ يجب ان يكون واضحاً انه محظور على أي فرد من أفراد البعثة ان يقيم صلة مع السكان المحليين. لا نريد متاعب من أي نوع، أمَّا الحديث في السياسة. . .

وهزَّ رأسه.

قال له المسيو دونال كلمات مجاملة، ولم يتوقف طويلاً عند هذه النقطة. أمَّا أنا فقد شعرت ان قلبي ينقبض. هل يعرفون عنِّي شيئاً؟ هل يريدون أن يلتهم الانسان حفنة من التراب ويموت؟ أية سياسة يتحدّث عنها هذا الرجل؟

جلس الضابط في المقعد الأمامي للسيارة، وقبل ان تتحرك، التفت إليّ وقال لي بلهجة ودودة ناعمة تختلف عن اللهجة التي استعملها قبل قليل:

ـ اسأل المسيو. . . إذا كان ممكناً تشغيل عامل أو عاملين معكم، إنَّ هذا الأمر يهمني!

سألت المسيو دونال، مطَّ شفته السفلى بضيق، وقال:

ـ مسيو جبيّر مكلف باختيار العناصر.

استدرك وقال:

ـ عامل واحد ممكن!

قلت للمسيو دونال في الليل المتأخر، بعد ان تحدّثنا في أمور كثيرة:

ـ ما رأيك لو حفرنا بئراً؟

نظر إليّ باستغراب وسأل:

ـ من أجل أن نشرب؟

ـ لا، من أجل ان نزرع اشجاراً، ان ننشىء حديقة!

ردَّ عليّ:

ـ ماذا تفيد الأشجار في هذه الأرض الخاوية؟ ثم إنَّ الأشجار حتى تنمو وتكبر تحتاج إلى وقت طويل، ويبدو أنّي لن أستطيع البقاء هنا فترة طويلة؟

ـ لن تبقى فترة طويلة؟

لقد اكتشفت متشائماً جديداً. ليس المسيو ريجي وحده المتشائم، رئيس البعثة، الرجل الذي يجب ان ينغرز في هذه الأرض مثل الرمح، يقول الآن إنَّه لن يبقى وقتاً طويلاً!

سكر المسيو فرانسوا هذه الليلة. أمَّا المسيو راؤول فقد انضم إلى العمال، ولعب معهم لعبة اخفاء الخاتم. لقد وجدوا الخاتم بيده أكثر من مرة وضربوه. كانت صرخاته صغيرة حادة وهو يتلقّى الضربات، ولكن روحه مرحة عندما يضرب وعندما يُضرب!

على الانسان ان يحصر تفكيره جيداً إذا شغلته القضايا الكبيرة، يجب ألاَّ يتشتت ويضيع في قضايا متفرقة.

منذ الغد سوف أفكّر: لماذا تزداد حالة الانسان بؤساً يوماً بعد آخر في الأرض التي يسمّونها الوطن!

الخميس 9 كانون الأول:

نزلنا أنا والمسيو دونال إلى المدينة. قدّمنا لدائرة الآثار المصورات وخريطة البداية.

جلبت عرقاً وقلت للمسيو دونال ونحن نحكم إغلاق زجاج السيارة:

ـ أحسن طريقة لمواجهة الحياة في مثل ظروفنا ان نشرب العرق، سوف تتذوقه هذه الليلة، وسوف تتوقف عن شرب النبيذ!

سألني بلهجة أقرب إلى الأطفال:

ـ وما الفرق بين العرق والكونياك؟ إنَّهما مصنوعان من العنب، ونسبة الكحول فيهما واحدة!

ـ العرق يا مسيو دونال أقرب إلى القلب، بارد وجبّار. ثم إنَّه رمز الشرق، كما الكونياك رمز لفرنسا، ونحن نشربه كي نمتلك الجرأة لمواجهة كل شيء: النساء والقيظ والمحقّقين!

وبلهجة الأطفال نفسها ردّد ورائي نفس الكلمات:

ـ النساء والقيظ والمحقّقين؟

ـ نعم يا مسيو دونال: النساء والقيظ والمحققون. ليس هذا فقط وإنَّما لمواجهة كل شيء في هذا الشرق اللعين. أنتم تشربون لكي تفرحوا، نحن نشرب لكي نتخدر. أنتم تشربون من أجل ان تتألّق أرواحكم، أن تزهر، أمَّا نحن، في الشرق اللعين، موطن الكآبة والخنافس السوداء، فنشرب لكي نغرق وننسى!

ـ وما علاقة ذلك بالنساء والمحقّقين؟

هؤلاء الناس لا يفهموننا. صحيح ان المسيو دونال جاء هنا أكثر من مرة، ولكن في كل مرة يجيء ليحفر الأرض، وينقّب عن

الآثار، أمّا قلوب الناس فإنَّه لا يعرفها. يتصوّر ان عطلة الأسبوع كمية أكبر من النبيذ، سباحة، نوم حتى العاشرة، قميص ملوّن.. ولا شيء بعد ذلك. اسمع يا مسيو دونال: هذا الانسان الذي تراه أمامك الآن يودّ من أعماق قلبه ان يمتلك قنابل ذرية. عندما يمتلكها سيلبس طربوشاً أخضر ويحمل طبلاً، ويضع على كتفه ديكاً، وعلى ظهره عشرات القنابل، وعند الظهر تماماً، في ظل شجرة الزيتون القديمة المسودة، سوف ينزع طربوشه ويبوّل فيه، ثم ينزل الديك عن كتفه ويقول له قف ناحية اليمين ولا تخف، يبدأ يدقّ الطبل، يبدأ أوّل الأمر بثلاث ضربات افتتاحية، ثم يعوي، يزأر، يصهل، وعندما يجيء دور النهيق، يضرب الطبل بقوة بغل، ويضرب حتى يتعب، ويتجمّع حوله النمل والخنافس والحيوانات الصغيرة الزاحفة على بطونها... ويقول لها:

ـ آن لنا أن نحتفل بنهاية الحياة على هذه البقعة من الأرض التي يسمّونها الشرق.

ويستخرج قنابله، يقلّبها بين أصابعه، ينظر إليها بفرح، يبصق في راحة يده، وبأقصى قوة يمتلكها يبدأ بقذفها. سوف يقذفها في الاتجاهات الأربعة، وآخر واحدة يضعها تحته مثلما تضع الدجاجة البيض ويجلس فوقها!

هل يشترك المسيو دونال في هذه المغامرة؟

الثلاثاء 18 كانون الأول:

سألت المسيو ريجي إن كان يعلّمني العزف على القيثار، قلت له إنَّ قلبي يتعذب وأنا أسمع العزف، وأريد أن أتعلم!

لم يجب. نظر إليّ بكثير من الحنان وقام، وبعد قليل أحضر القيثار وبدأنا.

كنت أُفكّر في أمور كثيرة، وأنا أتطلع إلى أصابعه. فكّرت

بكاترين، بالنجوم، بالأيام الدافئة. وعندما أعطاني القيثار لأعيد الحركات الأولية التي علمني اياها، قلت:

ـ لماذا لا تعزف أنت الآن، وتتركني للغد؟

ولم يقل شيئاً، لكن نظرته إليّ آلمتني. شعرت انه لا يحب تصرفاتي.

الخميس 20 كانون الأول:

غرقت الحفر التي تعبنا ونحن نرفع منها التراب. إنَّها الآن برك كبيرة معتكرة، لا ينقصها سوى السمك! أمَّا الخيام فقد تهدلت مثل جلود القطط المبلولة. حفرنا حول الخيام، وفتحنا سواقي وثبّتنا الأعمدة جيداً لكي لا تقتلعها الريح مثلما حصل في الأسبوع الماضي.

الرجال في خيمة جبيّر يغنّون ويدخّنون. رجالنا غريبو الأطوار، ولو جاء نوح الآن لحار في اختيار أي واحد منهم من أجل ان يحفظ النوع عن طريقه. كل واحد عالم مستقل، جزيرة منعزلة ليس لها علاقة بالجزر الأخرى: واحد يغنِّي. واحد يبكي دون دموع ويفكّر. آخر يمص من زجاجة العرق وكأنَّه يمص شفة عشيقته. واحد يصلِّي.. أي واحد يمكن ان يأخذه نوح معه؟

قلت للمسيو دونال: ثلاثة أيام ستمطر السماء، وهذا معناه أنَّنا لن نعمل أسبوعاً كاملاً. اقترحت عليه أن يترك الرجال يذهبون إلى بيوتهم، ويأتون في اليوم التالي للصحو. اقتنع المسيو دونال، بقينا نحن الأربعة.

عندما يكون الرجال وحيدين، وفي مكان مثل مكاننا، فإنَّهم يتحوّلون إلى أخوة متخاصمين!

كنا سريعي الغضب، سريعي الرضا. ما أوسع عالم الانسان وما أغناه، ولكنه عالم داخلي لا يمكن أن ينعكس إلى الخارج. أمَّا

الكلمات فإنَّها المرحلة التي جعلت الانسان أكثر قدرة على العجز والغموض!

الخميس 27 كانون الأول:

كان احتفالنا أمس مهيباً مع رجال متفرّدين في صحراء. حضّرنا كل شيء بعناية: اشترينا ديكاً رومياً كبيراً، وخضاراً متنوعة، ولم نغادر المدينة قبل أن نذهب إلى الحمام لنغتسل!

وضعنا المسيو دونال في الوسط، فوق بيت النار، وأمسكنا به من يديه ورجليه. ظلَّ يصرّخ ويستغيث حتى احمر كل شيء فيه: وجهه وأذناه وأنفه، أمَّا كتفاه فقد بدت الحروق عليهما واضحة. وعندما أطلقنا سراحه قام وارتمى، وظلَّ في مكانه ذاك دقائق، ثم فجأة نهض بسرعة وهجم على ريجي. تصوّرت ان معركة ستقع، ولكنه أمسك بريجي من رقبته ونام فوقه، وظلَّ يدفعه حتى وضعه في نفس المكان، فوق بيت النار.

لما جاء دوري قلت لهم: لا تتعبوا أنفسكم، سوف أجلس وحدي.

جلست. احترقت اليتاي. شعرت ان ناراً تدخل إلى جوفي، ولكني تماسكت. قلت لهم وهم يلقون عليّ الماء: نحن في الشرق لا نحتمل فقط وإنَّما نهوى أن نعذّب أنفسنا، ومن الأخطاء الشائعة الصورة التي يتناقلها العالم عن الهنود بأنَّهم وحدهم الذين يحتملون! الشرق كله موطن الاحتمال. لقد تحوّل الشرق إلى حمار. ضحكوا للكلمة الأخيرة.

في المبرد، ونحن نلف أنفسنا بالمناشف ونشرب الشاي أمام البركة، تراءى لي الشرق: ملوك مهزومون، ديوك منتوفة، رجال يريدون ان يتصوّروا، ولو للحظات، انهم يمتلكون العالم!

كان عرينا أجمل من العمائم التي وضعوها على رؤوسنا، وكان بيت النار أفضل بكثير من المبرد والبركة... ومن الضحكات

المجوفة التي يطلقها صاحب الحمام، وهو ينظر إلينا ويقول في نفسه: لقد اصطدت هؤلاء الأجانب!

هل يمكن أن يسود العري العالم، ويتخلّص الناس من أربطة العنق والجوارب والملابس الداخلية؟ أعتقد ان ذلك ممكن. . .

الثلاثاء 1 كانون الثاني:

فرانسوا يلف رأسه بضمادات ما تزال آثار الدم عليها. عينه زرقاء، ووجهه شاحب.

بكينا الليلة الفائتة مثل ذئاب جائعة. لم يبق واحد منا إلاّ وبكى. قلت لهم وأنا أهزّ ذيلي مثل بغل تلاحقه ذبابة القراد:

لقد أصبحتم شرقيين. ابكوا حتى تمتلىء الأرض بالدموع. ابكوا ولا تخافوا. البكاء يطهّر النفس، يغسلها، وأنتم لا تحتاجون شيئاً قدر حاجتكم إلى البكاء!

وبكيت. بكيت كل شيء: الوطن، رحاب وشعرها الذي يشبه ضوء القمر. بكيت الأحول الذي ضربني بمنفضة السجائر. . . وبكيت أيام السجن والجوع.

لماذا يجوع الانسان في وطنه؟ لماذا يجعلونه يكفر بكل شيء؟

صرخوا بوجهي، راؤول الذي يصرخ:

- اذهب أنت وشرقك إلى الجحيم، أليس عندك سوى هذه القصص المملة تردّدها علينا دون تعب؟ السجن، التعذيب، البطالة، الاضطهاد. لقد سمعنا هذه القصص في كل الليالي، منذ أربعة شهور وحتى الآن، والليلة نريد ان نتذكر نحن: باريس، باريس الملونة التي تضج بالضحكات والقبل، باريس النساء. كل امرأة تعادل شرقك كله!

وتذكّرت كاترين: احتفلنا برأس السنة معاً أربع مرات. كنا نبدأ في الثانية عشرة ظهراً، كنا نقف في كل ساعة. نقف مثل رهبان عور وندقّ كؤوسنا ونشرب ونحن نقول: بدأت السنة الجديدة في

سنغافورة. بدأت السنة الجديدة في اليابان. بدأت السنة الجديدة في الفليبين. بدأت السنة الجديدة في ماليزيا. وما تكاد تبلغ الثانية عشرة في بروكسل، حتى نكون قد تعرّينا تماماً، وحولنا الزجاجات الفارغة والأوراق الملوّنة وبقايا التفاح والسجائر. ونظلّ نائمين حتى الثانية عشرة من اليوم التالي!

احتفلوا بالتهام التراب الآن أيُّها الصعاليك الفرنسيون. ليس في هذه الأرض كلها، ولمسافة أميال، مئات الأميال، امرأة. لن تروا ساقاً يضج بالنداء. لن تروا قبلة تطير في الهواء. لن تروا امبراطوراً مشروم الشفة يتخفّى وراء امرأة. سوف أدفنكم. لقد قطعتم آلاف الأميال لكي تموتوا هنا، منصور عبد السلام حفّار قبور وسيدفنكم.. ابشروا!

الجمعة 11 كانون الثاني:

لا تنسَ أن تحضر لي جرائد يا رجب. أحضر لي عشر جرائد. لا يهم ان تكون جرائد هذه السنة أو جرائد السنة الماضية. أريد أن أقرأ أخبار الناس!

وضحك رجب ولم يسألني أية جرائد أريد.

جرائد اليوم، جرائد السنة الماضية، جرائد السنين القادمة جميعها، تطبع في نفس اللحظة، لا تختلف أبداً إلاّ بالتاريخ. هل كان البابليون يصدرون جرائد؟ والفراعنة؟

هل مات أحد في الوطن؟ هل علّق أحد من رجليه؟ ولجان التحقيق هل تبدأ ولا تنتهي؟ وتتراكم الأوراق، آلاف الأوراق! ولا تأكلها الفئران! والسجون والتعذيب والجوع؟ أي شيء حلَّ بالوطن يا منصور، ألا تكتب رسائل؟

المياه لا تزال تملأ الحفر. قلت للمسيو دونال: أريد أن أغرس أشجاراً. ضحك ولم يجب. التفتُّ إلى راؤول وقلت له:

أريد أن أغرس أشجاراً. مدَّ يده الى عضوه التناسلي وقال: ازرع مع الأشجار هذا، لعله يرتوي. وضحك فرانسوا وبصق!

ما زال ضابط الشرطة يلح على تعيين الرابع. قال له المسيو دونال: ولكنك ترى... لم نعمل منذ شهر، وحتى العمال الذين لدينا لا نحتاجهم. غضب، وبانت في عينيه آثار الحقد والتهديد.

لم يعد حمام المدينة مثيراً. أصبحنا ندخل مثل قطعان الخنازير، نلقي على أجسادنا الماء ونخرج وشعور القذارة يملؤنا!

هل أكتب لكاترين؟ الرجال هنا يتلقون رسائل. يجلسون في ظلال عربة القيادة او في الشمس ويقرأون. ولكن لماذا أعكر حياة كاترين مرة أخرى؟

يجب أن أُفكّر بطريقة سقراطية: أنا أُفكّر إذن أنا موجود.

الثلاثاء 18 شباط:

لا يمكن ان يغتال البرد إلاَّ إمرأة. العرق مثل بول الكلاب. وراؤول أصبح شرساً وفظاً. قال لي آخر مرة: إذا أردت ان تشرب من هذا الدواء فاذهب الى هناك واشرب. وأشار إلى المكان الذي نتغوط فيه. حزنت وأنا أسمعه يقول هذا الكلام، ولكني غفرت له. إنَّه يكتب رسائل كثيرة، ولا يتلقَّى إلاَّ رسالة في الشهر، ويكون عصبياً إذا جاءت رسائل للآخرين، ولم تجئه. سوف أغفر له!

آه لو أوصيت رجب أن يحضر لي بعض الكتب، ولكن ماذا تفيد القراءة؟

الأربعاء 19 شباط:

لن تفلت مني يا راؤول. سوف أصلبك. سأكون غجرياً حين أصلبك. ولكن كيف تحب أن تموت؟ على الخازوق؟ بالمقصلة؟ أنت فرنسي والفرنسيون أحبوا المقصلة، وثاروا عليها.. صفقوا لها ثم أحرقوها!

عيناه ترفان من الضيق، من المرض. شفاهه شهوانية، وهي الآن يابسة. أما جسمه القصير وهو يرتاح في الشمس عارياً، فإنّه يشبه الخنزير الانكليزي!

لن تفلت يا راؤول. مثلما صلبت الياس نخلة على الأشجار سوف أصلبك. وعندما يقرأ الناس عن راؤول بورجيه سوف يعرفون انك أناني، حقود، شهواني، وسوف أصفك تتقلب على الفراش وقد جفاك النوم، وتفتّش آخر الليل عن حمارة لكي تنتهي من هذا الجنون الذي تحسه في جسدك.

أنت توجه لي كلمات قاسية، تضيق بحديثي عن الوطن، تحلم بالمرأة في كل الأوقات... وأنا سوف أسدّد لك ضربة قاضية. سوف أروي للناس قصتك!

الجمعة 3 آذار:

بدأت تباشير الربيع. الطيور تعبر السماء أسراباً. الشمس لها لذعة تشبه تلك التي أحرقتني ذات يوم على البحر الأسود. الرجال عصبيو المزاج، وأي شيء يولد بينهم شجاراً. المسيو دونال فَقَدَ صبره أكثر من مرة، وهو يحاول أن يضع حداً للخلافات التي بدأت، ويبدو أنها لن تنتهي!

فرانسوا قرَّر السفر قبل نهاية الشهر. قال: لتذهب الألواح الى الجحيم. هل أترك باريس في الربيع وأجيء إلى هذا المكان الموحش الذي ترفض ان تعيش فيه حتى الكلاب؟

ريجي ضرب عاملاً وأدمى حلقه، ولم ينته الأمر إلاّ بعد ان دفع مبلغاً حدّده جبيّر واعتبره كافياً للمصالحة.

تجمعت لدي مادة لثلاث قصص قصيرة. راؤول سيبقى مصلوباً الى الأبد. أمّا حامد سائق الحفارة الكبيرة فلدي معلومات عنه تكفي لأن أبدأ قصته فوراً.

والوطن: الضباب الأسود، النجوم المحترقة في الجو، آذان الكلاب المعلقة في الشوارع. إبك يا وطني. ليت ان وباء يستوطن فيك، ليت ان طوفاناً يغرقك. ولكن يجب ان يغرق الصغار الذين انتفخوا. الفقراء المهابيل الذين لا يحملون السلاح، يكفيهم العذاب الذي يعيشون فيه!

قرأت في الجرائد التي أحضرها رجب في الأسبوع الماضي ان حوادث شغب وقعت في الوطن. تقول الجرائد: انتهت الحوادث بسرعة، وسيطرت السلطات على الوضع بعد ان قمعت عناصر الفتنة. الموت هناك سهل ومستمر مثلما هي القبل في باريس...

حفرنا ستة أمتار تحت الأرض. لم نجد أشياء ذات قيمة. المسيو دونال يقول إنَّ التل الذي نحفر فيه الآن مدخل المدينة الغارقة، أمَّا المدينة: قاعاتها، قصورها، حماماتها، مسارحها، فإنَّها هناك. ويشير بأسف إلى مكان بعيد.

بعد أيام ستأتي مدام دونال: استأجر لها بيتاً في المدينة. هذا يعني انه سيذهب هناك كل يوم. ومن سلوك ريجي يبدو انه سيحل مكان المسيو دونال.

اسمع يا ريجي، يمكن أن نبقى أصدقاء ما دمت تحافظ على الاحترام. أنت الآن رئيس، يجب ان تسلك سلوك الرؤساء. ان تحترم الناس. ان تكون لهم مثلاً. لا أريد منك شيئاً سوى ان تكف عن هذه الكلمات البذيئة التي تردّدها مثلما تشرب الماء!

جاءت رسالة من مسيو مارشان يقول فيها، انه سيكون بيننا خلال فترة أقصاها نهاية أيار. لم أعد أهتم... إذا جاء أو لم يجىء!

الاثنين 26 آذار:

بعد غد يسافر فرانسوا. لم تقم بينه وبين أحد صلات حميمة، منعزل، مشغول بحسابات وخرائط لا ضرورة لها البتة. أعطى امس

جزءاً من ملابسه للعمال. نظر إليّ وأشار إلى منظار مكبّر: أتشتريه يا منصور؟ ماذا أفعل به؟ في النهاية اشتريته. قلت سوف استعمله يوماً في تتبع النجوم، في معرفة ما يدور وراء الحدود، في قراءة الكف. وإذا لم ينفعني في ذلك سوف أحطمه. ندمت كثيراً بعد ان دفعت لفرانسوا المبلغ. لو أنَّني فكّرت لما اشتريته. لو تأخّرت عملية الوساطة التي تبرَّع بها راؤول لما اشتريته. ارقد مثل أفعى أيُّها المنظار، هل توجد مناظير تبعد المسافات بدل ان تقرّبها؟ لو وجدت لاشتريت واحداً منها. لا أريد ان أنظر إلى الناس من هذه المسافة القريبة.

أريدهم أبعد من النجوم، لكي يبدوا انسانيين ومعقولين!

الأربعاء 12 نيسان:

جاءت اول امس رسالة من فرانسوا. كانت الرسالة موجّهة للمسيو دونال، اما نحن فقد جاءتنا بطاقات ملوّنة.

إنَّ فرانسوا أكثر خبثاً مما تصورت، لقد اختار لكل واحد منا صورة تعبر عن شيء ما:

بعث لراؤول صورة حسناء تقبّل حماراً. لم تكن تقبّله فقط، كانت تحتضنه... ولم يتحمل راؤول ذلك إذ ما كاد يقرؤها حتى مزّقها... مزّقها ألف قطعة.

بعث إلى ريجي صورة شحاذ يعزف على قيثار وأمامه قبعته التي يستجدي بها. وقد كتب على الوجه التالي: ريجي بعد عشر سنين. وكتب أشياء أخرى لا يجدر بي ان أذكرها!

أمَّا الي فبعث صورة دون كيشوت، ولكن بشكل كاريكاتيري، كان دون كيشوت يركب على بقرة، وكان قرن البقرة يدخل بين الاليتين، أمَّا في يده فقد حمل قلماً منحنياً، مكسور الرأس!

وقد كتب اليّ فرانسوا، وأنا أنقل بالحرف:

مسيو منصور عبد السلام:

لم أرسم الصورة، وإنَّما اخترتها. لا تغضب، يبقى دون كيشوت انساناً أحسن من الكثيرين الذين نقابلهم في هذه الحياة. إذا استطعت ان تعيد تركيب الصورة لتصبح دون كيشوت ذاك، فأنت محظوظ... وإلاَّ... لا تسألني. مع تحيات فرانسوا الذي يكتب اليك الآن من مخدع أجمل امرأة في الدنيا. المخدع معطر، دافىء، مليء بالخمر والقبل...

كانت أجمل الصور التي بعثها فرانسوا الى جبيّر. صورته مع امرأة فرنسية جميلة، وتحتها كتب:

يجب ان تتزوج للمرة الخامسة، وإذا جئت الى فرنسا سوف أزوّجك اختها. لا تنس ان تأتي!

كيف افلت منِّي هذا الخلد اللعين؟ لو تصوّرته لاذعاً وقاسياً هكذا لراقبته طويلاً، لقضيت معه فترة أستطيع بعدها ان اجعل الناس يضحكون عليه ولا ينسونه. انه الآن بعيد.

الجمعة 14 نيسان:

كآبة زجاجية حادة تسيطر عليّ الآن. كل شيء تافه وله رائحة كريهة.

لم أنم الليلة الماضية لحظة واحدة، قتلوا مرزوق. لا أحد يدري مَن قتله أو كيف قُتل. قالوا انه وُجد مقتولاً والسلام!

مرزوق الأسمر، الحصان، الضاحك... مرزوق الانسان الذي ذرع أرض الوطن من الشمال إلى الجنوب، من أجل ان يصبحوا حكاماً... مرزوق الآن ميت. هل له قبر؟ هل دفنه احد؟

مرزوق الآن بارد كالحجر. مرزوق غير موجود. لِمَ قتلوه؟ لماذا؟ لماذا؟

أريد ان أدفن نفسي في النفق الذي فتحناه امس، أريد ان انزلق الى داخله ثم اسحب الأعمدة التي تسنده. وليتعب مسيو دونال ورئيسه مسيو مارشان في رفع الأنقاض لإخراج المترجم. ولكن لماذا قتلوا مرزوق؟

وهل وحده الذي قُتل؟ ألم يقتلوا غيره؟

الوطن هذا الوشاح الأسود الذي يلبسه كل الناس، يلبسونه في الليل، في النهار، وهم نائمون، وهم يأكلون... إلى متى تبقى كذلك أيُّها الوطن؟

الجوع والعذاب. واليوم: القتل!

الاثنين 17 نيسان:

ذهبت اليوم بعيداً عن الموقع، وأقمت احتفالاً صغيراً لمرزوق. كان الاحتفال متواضعاً: رغيف من الخبز وزجاجة عرق. أكلت جزءاً من الرغيف، ثم حفرت بأظافري في التراب قبراً صغيراً، ووضعت هناك غصناً أخضر. قلت انه جثة مرزوق. ووضعت بقايا الرغيف، ثم سفحت ما تبقى من زجاجة العرق على الغصن الأخضر والرغيف، وقلت بصوت عال:

- كل الخبز واشرب من الشراب القوي يا مرزوق.

تذكّرت حياتنا معاً. تذكّرت آلاف الكلمات والهموم والضحكات التي مرَّت على ذلك الوجه الأسمر القاسي. تذكّرت ليالي القمر، أيام الشتاء، عناقيد العنب. تذكّرت كل شيء في تلك البقعة من الأرض التي يسمُّونها الوطن وبكيت. بكيت مثل تلك المرة التي ضربني فيها معلمي الأرقش.

سوف لن تضيع يا مرزوق. اذا لم استطع ان اثأر لك، فسوف اكتب عنك. لا أعرف أي شيء يمكن ان اكتبه، ولكن سأكتب عنك انك الانسان... ولا شيء غير ذلك. سوف اترك لهم كلمات

البطولة، سوف أترك لهم الكلمات الكبيرة. يكفيك أنت أن تكون انسانا فقط!

الثلاثاء 18 نيسان:

مرزوق ليس واحداً مرزوق كل الناس. مرزوق شجرة. مرزوق ينبوع، مرزوق هو الياس نخلة الذي لا يموت.

الأربعاء 19 نيسان:

قلت للمسيو ريجي وقد تملكني الغضب:

- اتركني أيُّها الرجل. لقد سمعت نكاتك وكلماتك الغبية حتى لم أعد أطيق سماعها مرة أخرى.

قال المسيو دونال، وقد بدت على وجهه علامات التأثر:

- مسيو منصور... أنت حزين ومشاكس أكثر مما ينبغي، اذا حصل لك أمر لا نعرفه أرجو ان تقوله لنا.

ولم أقل شيئاً. حملت معي الجرائد، واتجهت إلى التل ناحية الشمال.

كنت أفكّر بكل شيء: بالتراب والتاريخ والأحجار البركانية. لم أفهم شيئاً مما قرأته في الجرائد. استرعى انتباهي خبر عن امرأة ولدت ثمانية أطفال مرة واحدة. تمنيت لو ان كل النساء يلدن مثلها لانتهت الحياة في سنوات قليلة. تمنيت لو ان النساء في بلادنا يلدن مائة مرة. وكل مرة تسعة أطفال. الخنازير لا تفعل ذلك.

الخميس 20 نيسان:

جاءت رسالة من مسيو مارشان يحدّد فيها تاريخ وصوله. قال انه في الثالث عشر من أيار سيكون بيننا. ليت ان مرزوقاً يأتي. المسيو مارشان يأتي بالطائرة. مرزوق لا يأتي. مرزوق تحت التراب. صامت لا يبعث رسائل.

هل من الضروري ان أكتب لأُمه رسالة؟ هل أكتب لأحد؟

ولكن مرزوقاً لم يعد موجوداً، ماذا تفيد رسائل الأرض كلها؟ ليته يأتي يوماً واحداً ثم يموت، لو جاء فلن اتركه يذهب. سوف احميه بكل قوتي. اسمع يا مرزوق أنت أرعن، أنت متهور. اتركهم، انهم ذئاب جائعة، ألا تتذكّر كم تعذبت؟ الجندية، وفي الخط الأول، الجامعة والمخبرون، ثم التسريح والجوع والركض وراء السراب... ما دمت تعرف هذا كله لماذا تعاند!

آه لو يأتي مرزوق يوماً واحداً، لكن مرزوق لا يموت. لقد ضربوه كثيراً. ضربوه أكثر من مرة وهو صامت مثل الحمار... هو الذي قال عن نفسه انه حمار. مرزوق لم يعد موجوداً الآن. هل يتحوّل مرزوق إلى طائر؟ إلى موجة في البحر؟

مرزوق لم يمت. أتحدَّى مَن يقول انه مات.

الجمعة 21 نيسان:

حاول احد العمال أن يقطع انفه في الليلة الماضية. حاول بسكين حادة، ولم نستطع ان نوقف نزيف الدماء إلاّ عند الفجر.

كان وجهه حزيناً. أمَّا عيناه فقد بدا فيهما الفزع والراحة معاً. عند الظهيرة، وبعد محاولات شاقة هدّدناه خلالها ان نحضر البوليس اعترف:

ـ ابن الزانية ابو رجوب يقول اني مخصي!

ولما سألناه عن الأسباب التي دعت أبا رجوب لأن يصفه بهذه الصفة تردّد في الاجابة، ثم لمَّا ألححنا عليه قال:

ـ يوم الجمعة ذهبت إلى المدينة، ونمت مع قحبة، ولا أعرف لماذا لم أستطع ان أفعل شيئاً، ويبدو ان المرأة تعرف ابا رجوب وقالت له، ولم تجد وصفاً تصفني به سوى «أبي الأنف الكبير»!

ـ ولكن لماذا تقطع انفك؟

ـ لا أدري هل هي التي قالت، أم ان ذلك من عند ابي رجوب، قال لي: يجب ان تستعمل أنفك ثاني مرة، ان انفك لا يخيب!

ـ وبعد ذلك؟

ـ حزنت كثيراً، ولم أجد شيئاً أفعله سوى ان أقطع انفي!

لو ان كل الناس يعاقبون أنفسهم مثل هذا العامل لما ظلَّ رأس واحد. ليتهم يفعلون!

الأحد 22 نيسان:

انت غبي يا راؤول. عيناك صدف وفمك بالوعة. اذهب إلى وكر الأفعى يا راؤول ونم هناك. كلْ الحشائش السامة حتى تموت. أنت يا راؤول ضفدعة.

قال لي راؤول أمس ونحن نتحدث عن مجدوع الأنف.

ـ منصور ألا تجدع انفك؟

سألته: ولماذا يا راؤول؟

قال لي وهو يضحك بصوت عالٍ افزعني:

ـ لكي نضع لك انف كلب وذنب حمار.

ولم اتركه يفلت. قلت له: وانت يا راؤول، ماذا نضع لك اذا جدعت انفك؟

ـ انف كيلوباترا... أريد ان أدوّخ العالم مرة أخرى!

قلت له وانا أضحك مثله تماماً:

ـ راؤول انت بحاجة إلى خرطوم فيل لكي تتنشق مؤخرتك!

حزنت عندما قلت له هذا. تركته وخرجت أريد ان أبحث عن زهور لقبر مرزوق. لم أجد زهرة واحدة. اخرجت ملحمة جلجامش وكتبت القصيدة التالية بخط جميل ووضعتها عند قبره. وقد ثبتها بأحجار لكي لا تسرقها الريح:

«كيف لا تذبل وجنتاي ويمتقع وجهي
ويملأ الأسى والحزن قلبي وتتبدل هيئتي
فيصيب وجهي الحر والقر وأهيم على وجهي في البراري...
وقد أدرك مصير البشر صاحبي وأخي الأصغر انكيدو
(كتبت أخي الأكبر مرزوق)
الذي صاد حمار الوحش في البراري والنمر في البادية
والذي تغلّب على جميع الصعاب
وارتقى الجبال ومسك ثور السماء وقتله
وغلب خمبابا الذي يسكن غابة الأرز
انه انكيدو (مرزوق) صاحبي وخلي الذي احببته حباً جماً لقد انتهى الى ما يصير اليه البشر جميعاً.
فبكيت اثناء الليل والنهار، ندبته ستة أيام وسبع ليال
معللاً نفسي بأن يقوم من كثرة بكائي ونواحي
وامتنعت عن تسليمه الى القبر
فأبقيته ستة أيام وسبع ليال حتى وقع الدود على وجهه
فأفزعني الموت حتى همت على وجهي في البراري
ان النازلة التي حلت بصاحبي تقض مضجعي
اه لقد صار صاحبي الذي أحببته تراباً
وانا سأضطجع مثله فلا أقوم أبد الآبدين!».

الأربعاء 25 نيسان:

هل قتل مرزوق؟ ألا يحتمل ان تخطىء الجرائد؟ ألا يحتمل ان يكون غيره الذي قُتل؟ ولكن الجريدة التي أمامي تقول: «وجدت قرب محطة السكة جثة رجل، تبيَّن بعد الفحص ان القتيل يدعى

مرزوق عبدالله، مدرّس للجغرافيا، عمره ثلاث وثلاثون سنة. أُمّه هايلة!

قتلوه اذن! ولكن لماذا لا تقول الجريدة مَن الذي قتله؟ لماذا سكتت تماماً؟ انهم لا يعرفون مَن الذي قتل مرزوق. ولكن كيف قتل؟ بالرصاص؟ بالسكاكين؟ لو اذهب الى الوطن يوماً واحداً. ان مرزوق الآن جثة باردة تحت التراب!

أقول بصوت عال امام جميع الناس ان مرزوقاً لا يموت. لا أصدّق انه ميت. عيناه اللتان تبرقان في الظلمة لا يمكن ان ينهال عليهما التراب وتنطفئان. أسنانه البيضاء ـ ما عدا السن الأمامية فقد تلقت ضربة من رجال الشرطة، اسودت بعدها، أصبحت بين السواد والبياض ـ شعره، ضحكته، كان كل شيء فيه ينبض، يصرخ بالحياة.

باسم، أمل وهاني، اطفال مرزوق. هل يمكن ان أفعل شيئاً من أجلهم؟ ستشق زوجته التراب وتنام فوقه. اما العجوز التي كانت تصنع لنا الشاي آخر الليل فسوف تموت، لا أصدّق ان تبقى بعده لحظة واحدة. مات مرزوق، ماتت العجوز، مت انا. . . لم يبق أحد.

أحسّ ان شيئاً في داخلي يطفو على روحي كأنَّه طبقة الزيت السميكة. ماتت روحي.

سوف أبول على تلال مسيو دونال كلها. سوف أبدأ بالتل الكبير وأنتهي بقاعة العرش. ماذا تعني ألواح الطين، الفخار، قطع الحديد الصدئة، اذا مات مرزوق، اذا مات الناس؟

سوف أبلغ المسيو مارشان حال وصوله أنّي لم أعد أطيق العمل. وفي اليوم الثاني سوف أغادر الموقع باتجاه الجنوب. سوف أمشي حتى أصل البحر وأغرق هناك. ماذا تهمني الحفريات والآثار؟ سوف أصبح صياداً، أركب الزوارق الصغيرة وانام في البحر.

مسيو دونال متعجرف... تغيّر كثيراً منذ وصلت زوجته، ومَن هي هذه الزوجة؟ قصبة فارغة، عيون زرقاء كأنَّها الخرز، وأسنانها ناتئة مثل الحجارة.

راؤول... ريجي... جبير... خنازير.

انا أعوي في الظلمة: أعوي مثل كلب جريح! ثم أبول.

الجمعة 27 نيسان:

استأذنت المسيو دونال ان انصب خيمة خاصة بي. قلت اريد ان تكون في نهاية الموقع قريباً من التل الجنوبي. استغرب كثيراً وانا أتحدّث معه، نظر إليّ طويلاً بعيون تمتلىء دهشة، وسألني: أين ستأكل يا مسيو منصور؟ وكيف ستعمل معنا؟

ـ ولكنِّي أستطيع ان أمشي مثل حصان يا مسيو دونال... ما هي الخمس كيلومترات؟ هل تظن انها مسافة كبيرة؟

ـ ولكن لماذا يا مسيو منصور؟ سألني المسيو دونال للمرة الثانية والدهشة لم تزايل وجهه.

لا يعرف المسيو دونال ان كتابة شيء عن مرزوق تتطلب صفاءً ذهنياً خارقاً. الكتابة عن مرزوق تعني ان يفكّر الانسان بهدوء، دون ان يزعجه أحد. أمَّا الذباب فسوف اتكفل به تماماً. في اليوم الأول سأطارد الذباب، سأضع على باب الخيمة مستطيلاً من القماش الرقيق الذي لا يمنع الهواء. والحضارة؟ نعم الحضارة كفيلة بأن تعالج كل شيء، بما في ذلك مكافحة الذباب وقتل الناس!

عندما وجدني المسيو دونال مصراً هكذا، قال:

ـ لن أستطيع ان اقف في وجه هذه الرغبة، ولكن ليس عندنا الآن خيام، ان توفرت لنا واحدة سوف نبحث الأمر!

في المساء رأيتهم ينظرون إليّ ويضحكون. راؤول هو الذي

ضحك بصوت عال. اقترب منِّي وصدمني بكتفه. لما التفت اليه سألني:

- لماذا لا تبني بيتاً في أعلى الجبل؟ وأشار إلى الجبل البعيد.

اجبته بغضب: ولماذا لا تحفر انت نفقاً وتنام هناك مثل فأر رمادي؟

وريجي، حتى ريجي الذي بدا حزيناً في الأيام الماضية، شارك راؤول السخرية. قال لي: ولكن لم تقل لنا مسيو منصور لماذا تريد ان تعيش بعيداً؟ هل اتفقت مع امرأة لتأتيك هناك؟ وغيّر لهجته وتابع: ولكن في هذه الأرض الصفراء المجدبة لا تعيش النساء، ثم عاد الى لهجته الأولى: ربما اتفقت مع نعامة، قل لنا مع مَن اتفقت؟

ليتكلموا أي شيء، اما الكتابة عن مرزوق فإنَّها تحتاج إلى جو آخر غير الجو الذي أعيش فيه الآن.

هم لا يعرفون مرزوقاً. لم يروه ابداً، ولن يروه. لقد مات مرزوق. مات تماماً، هكذا تقول الجرائد... ولكني أرفض تصديق هذه الأكاذيب. الجرائد تكذب. الحكام يكذبون. مرزوق ينهض من غفوته الصغيرة، ينهض مثل حصان اسود، وعندما يرونه واقفاً مثل شجرة الحور، طويلاً رشيقاً، صلباً، سيخافون، سيهجرون المدينة ويهربون، وسوف يقولون لأنفسهم وقد اختنقوا من الفزع: ولكن نحن الذين قتلناه... كيف عاد من جديد؟

الاثنين 30 نيسان:

مرزوق أنت لا تموت. هم الذين يموتون. أتسمعني يا مرزوق؟

قالت أُمّي: روح القتيل فراشة. عصفور أزرق.

أنت يا مرزوق فراشة. أنت عصفور لك ألف لون. هل تسمعني يا مرزوق؟

أنا أول مَن سيقرأ الملحمة. قلت امس للمسيو دونال:

ـ نحن أبناء هذه البلاد ونستطيع ان نقرأ ألواح الطين.

نظر إليّ مسيو دونال وابتسم. كانت ابتسامة خضراء حزينة. وبعد ان ركَّز نظراته عليّ فترة طويلة سألني:

ـ ولكن لا صلة بين لغة اليوم واللغات القديمة. هل انت متأكّد من انَّك تستطيع ان تقرأ الملحمة؟

ذهبت من فوري إلى غرفة القيادة وانتزعت الملحمة وجئت أركض إلى المسيو دونال:

ـ اسمع يا مسيو دونال، قرأت له مقطعاً ثم ترجمته. قال لي:

ـ ولكنك تقرأ ترجمة... وعندنا عدة ترجمات للملحمة.

قلت:

ـ انا أُحب جلجامش.

وصمت مسيو دونال ولم يقل كلمة!

قرأت القصيدة التالية، وكنت أقصد شيئاً من قراءتي لها. ولكنه لم يفهم!

«ان الموت قاس لا يرحم
متى بنينا بيتاً يدوم إلى الأبد؟
متى ختمنا عهداً يدوم إلى الأبد؟
وهل يقتسم الأخوة ميراثهم ليبقى إلى آخر الدهر؟
وهل تبقى البغضاء في الأرض إلى الأبد؟
وهل يرتفع النهر ويأتي بالطوفان على الدوام؟
والفراشة لا تكاد تخرج من شرنقتها فتبصر وجه الشمس حتى يحل أجلها.
ولم يكن دوام وخلود منذ القدم
ويا ما أعظم الشبه بين النائم والميت

ألا تبدو عليهما هيئة الموت؟»

الاثنين 30 نيسان آخر الليل:

سوف أشكو ريجي. سوف أقول للمسيو مارشان: امنع الصفير في الليل يا مسيو مارشان! ان الصفير يجمع الشياطين، والشياطين لا تترك أحداً ينام...

الثلاثاء 1 أيار:

قضينا اليوم ساعات صعبة وكئيبة.

منذ اللحظة التي بدأنا الاحتفال، تعكّر كل شيء. رأينا على البعد غباراً يرتفع إلى السماء، فقدرنا ان عدداً من السيارات يتوجه نحونا.. وفي دقائق وجدنا ضابط الشرطة ومعه مفرزة من العسكر، يحيطون بنا، ونحن نجلس حول الطاولة التي صفّت عليها أنواع عديدة من الأطعمة والمشروبات الوطنية والفرنسية. وكنا قد وضعنا في وسط الطاولة باقة من الزهور الحمراء!

كنت خلال الأيام الثلاثة، قد أتعبت نفسي في تحضير كلمة. وقد جعلتها تدور حول مرزوق. لم أذكره بالاسم، ولكني قلت ان الرجال الذين قتلوا في ميادين الدفاع عن الانسان كثيرون. قبل فترة قُتل لي صديق يا أيُّها السادة. لم أذكر اسم مرزوق، ولكن مرزوق كان يخيّم على فكري مثل سنديانة كبيرة.

قال ضابط الشرطة يخاطب المسيو دونال وهو ينظر إليّ:

ـ أنتم الفرنسيون تحملون معكم أينما ذهبتم الثورة الفرنسية والخمور.

ترجمت للمسيو دونال الكلمات التي قالها، ولكنه لم يفهم شيئاً. سألني بلهجة الأطفال التي لم يغيرها إلاّ فترة قصيرة، بعد ان وصلت زوجته:

ـ اسأل القائد اذا كان يتفضّل ويشاركنا احتفالنا.

عندما ترجمت لضابط الشرطة ما قاله المسيو دونال، ادخلت من عندي كلمات توحي اننا نقوم بعمل بسيط ومتواضع، هزَّ الضابط رأسه باحتقار ورد:

ـ قل للمسيو دونال اننا لا نحتفل بهذه المناسبات الخبيثة... اما الذي يدعو ضيفاً فإنَّه يدعوه قبل فترة، قبل ليلة على أقل تقدير!

لم نستطع ان نصل إلى نتيجة. أصرَّ الفرنسيون على ان يستمروا باحتفالهم حتى لو أكملوه في السجن، اما العمال المحليون فقد قال لهم المسيو دونال:

ـ يمكن ان تحتفلوا معنا، ويمكن ان تذهبوا إلى بيوتكم. نحن لا نريد ان نعمل هذا اليوم والسلام.

ولم يترك ضابط الشرطة الموقع حتى أرغم العمال على ان يحملوا فؤوسهم ويتوجهوا إلى التل. ولكن بعد الظهر انضم اثنان من العسكر الى الطاولة التي وضعت في النفق وبدأوا يشربون ويغنّون، اما العسكري الثالث الذي تركه ضابط الشرطة، فقد رفض أوّل الأمر ثم وافق على ان يأكل ويشرب دون ان ينضم إلى الطاولة.

حزنت كثيراً اني لم أحضر الاحتفال، كنت خلال هذا الوقت إلى جانب قبر مرزوق، بعد ان قرّرت ان لا أترك المناسبة دون احتفال، وقد ألقيت الكلمة بصوت رصين، ومددت يدي في الهواء مهدّداً ومنذراً الذين قتلوا مرزوقاً!

في الليل قلت لراؤول: انت انسان نجمة، لا أكرهك كما تتصور. أنا أحب الرجال الذين يتحدّون وقد تحدّيت الضابط والآثار... ومن أجل ذلك فرحت كثيراً!

نظر راؤول إليّ بسخرية وقال كلمة لم تعجبني. قال لي:

ـ انت ضفدعة لا تغني إلاَّ إذا سمعت الغناء! لماذا لم تقل شيئاً

من عندك لضابط الشرطة وأنت تعرف لغته؟

ـ ولكني قلت كل شيء يا راؤول، ثم انك لا تعرف مرزوقاً. . . أتعرف مرزوقاً؟

هزَّ رأسه بضيق ومشى!

الخميس 3 أيار:

قرّرت أين يجب ان تكون خيمتي. عند الأصيل تماماً أخذت فراشاً خفيفاً وذهبت لأنام أول ليلة في الوطن الجديد. كان الهواء منعشاً رقيقاً، ولكني لم أستطع النوم.

السماء فوقي مثل خيمة سوداء تتخلّلها آلاف الثقوب. لماذا لم أتعلم رصد النجوم؟ ان ذلك مفيد للغاية في الصحراء. أرى على البعد أضواء الخيام الخافتة، أمَّا الأصوات فلا تصل إليّ أبدا. هل يتحدّث الرجال الآن؟ وراؤول هذا الخنزير الأجرب ألا يكفّ نهائياً عن توجيه الكلمات البذيئة؟

اتركني يا راؤول. . . اتركني بربك، انا لا أريد منك شيئاً، حتى القصة التي فكّرت ان أكتبها عنك لم تعد تثيرني، وقد لا أكتبها أبداً.

ماذا أقول عنك؟ وجه طويل وأنف حاد، اما العينان فإنَّهما اشبه بعيون قط. عندما يمشي راؤول يميل بجسده الى امام كأنَّه يحمل شيئاً على كتفيه. ماذا أكتب غير ذلك؟

لم تعد الكلمات التي اكتبها الآن تساعدني على تحديد الأفكار بالدقة التي أريدها. هنا في الموقع الجديد سوف أركز تفكيري تماماً. سأكتب كل ما أريد دون نظرات راؤول، دون كلمات ريجي، أمَّا المسيو دونال فقد كفَّ نهائياً عن التدخل بشؤوني. كان يترك لي الأشياء التي يريدها مع ملاحظات، وأصبحنا لا نلتقي إلاَّ قليلاً.

لقد فهمني أكثر المسيو دونال. وعلى الآخرين ان يفهموا.

راؤول سيتلقى مني ضربة على عينه اليسرى. لن تفلت مني يا راؤول. أتفهم ما أقول؟

الخميس ـ الجمعة 3 - 4 أيار:

أفقت مع الأضواء الأولى. لا أحتاج إلى مزيد من النوم. لو سرت باتجاه موقع العمل فسوف أجد الرجال يستغرقون في النوم.

تركت الفانوس إلى جانب صخرة صغيرة، اما الفراش فقد حملته ورجعت!

في هذه المسيرة الصباحية فكّرت بأشياء كثيرة: لماذا تعيش الحيوانات في البراري؟ هل يمكن ان يتحول راؤول إلى انسان آخر؟ والشمس ألا تتعب وهي تدور كل يوم؟

على الانسان ان يفكّر جيداً. مرزوق لا يستطيع الآن ان يفكّر. اما التاريخ فأنا أحد الناس الذين سيتفرغون لكتابته، طبيعي لا أستطيع ان أفعل ذلك الآن، ولكن عندما أعود للوطن سأمتلك مكتبة تحوي المراجع المهمة، وسوف أكب على هذه المراجع ليل نهار حتى أستخرج الحقائق. الحقائق تفرح الناس، تجعل قلوبهم ترقص، أمَّا الأكاذيب فإنَّها سوداء تشبه جثث الحيوانات الميتة، ومع ذلك فإنَّ الناس يحبون هذا النوع من اللحوم!

أصبح المسيو دونال امبراطوراً ونحن الرعية. لا يصل إلى الموقع قبل العاشرة، ملابسه نظيفة. يضع على عينيه نظارات سوداء. يدخن غليونه باستمرار، ويجلس في عربة القيادة. انا لا أكرهه، ولكن لا أحب ان أتحدث معه مثل قبل، أصبحت أخرج إلى الموقع كثيراً، وهناك اجلس في النفق وأكتب!

أشكر الله ان الفرنسيين لا يعرفون العربية. لو عرفوها لسرقوا يومياتي وربما قرأوها. سيقولون انها ليست سرقة، إنَّها استعارة مؤقتة!

مسيو مارشان: اسمح لي ان أتكلّم باسم العناصر المحلية، انت لا تدرك مدى حرصنا على ان نصل إلى نتائج سريعة، ولكن ما دامت هذه الألواح مدفونة في التراب منذ آلاف السنين، فهل يمكن ان تفسر لنا هذا الاهتمام المبالغ به في السرعة؟

آه لو التقيت بغزال. أريد ان ألتقي بغزال واقبض عليه، ومع الأيام سوف نصبح أصدقاء. سأطعمه بيدي، سأمسد على شعره. سأقضي ساعات في النظر إلى عينيه. ان عيون الغزلان عميقة مذهلة الحزن. لماذا هي حزينة يا ترى؟ هل قتلوا لها أصدقاءها؟ هل تعرف مرزوقاً؟ يقولون ان كل شيء أحسن من الانسان. لا أتصور ان غزالاً يقتل غزالاً آخر.

السبت 5 أيار:

رُبَّ أخٍ لك لم تلده أُمّك.

قبضت على جربوع. ظللت أركض وراءه حتى قبضت عليه. عيناه فزعتان، يرفع انفه يتشمّم كأنَّه يحس برائحة الخطر. أمَّا ذيله فعجيب. لماذا يضع هذه الريشة في نهاية الذيل؟ كان الجنود الانكليز يضعون على قبعاتهم ريشاً!

كيف يمكن ان أحتفظ به دون ان يدري أحد؟

الجمعة 4 أيار:

أوقدت الفانوس. سمعت صوتاً أفزعني. نظرت حولي فلم أرَ شيئاً. الذئاب؟ لا أعتقد أنَّ ذئباً يجرؤ على الاقتراب مني.

هل تكفي الانسان ساعة نوم واحدة؟

ومسيو دونال ينام الآن. المدينة بعيدة. الوطن مستحيل. مرزوق يرقد تحت التراب. هل بنوا له قبراً؟

الجمعة 4 أيار:

لو نزلت مرة أخرى إلى المدينة فسوف أقضي وقتي في إعادة ترتيب اليوميات. فندق «نزهة الشرق» بردهاته الواسعة المضاءة أحسن مكان في الدنيا. سوف أطلب عصيراً وأجلس في الزاوية الشمالية المطلة على الحديقة وأكتب.

لا أريد من أي انسان ان يتكلم معي. أيُّها الناس انتم لا تعرفون عن أي انسان أريد ان أكتب. سأكتب عن مرزوق... نعم عن مرزوق. لو عرفتموه لوقفتم باجلال صامتين. سوف تتركون لي الوقت الذي أريد من أجل ان ينهض مرزوق مثل انشودة البحارة، مثل هدير الموج. وقاسياً كالصخر.

مرزوق لن يموت. الجرائد تكذب، تكذب كثيراً، خاصة في هذه الأيام. ثم ان الأسماء تتشابه، ألا يوجد غير مدرّس للجغرافيا وعمره ثلاث وثلاثون سنة؟ ولكن مرزوق الذي كتبوا عنه اسم أُمّه هايلة. كنا نغيظه عندما نناديه ابن هايلة. كان يغضب، حاول ان يراوغ أكثر من مرة. قال: ليس اسم أُمّي هايلة، لو متم لن تعرفوا اسمها. ولكننا عرفناه. لم يظهر غضبه في البداية ليفوّت علينا هذه الورقة، ولكن عندما ردّدنا الاسم أكثر من مرة وقف بغضب وقال: مَن يناديني ابن هايلة أدفنه وهو حي!

الأوراق الخضراء تنبت الآن على الأشجار. الزبيب لم ينضج، القلوب عندما تجرح لا يمكن ان تلتئم. كاترين... أين أنت الآن يا كاترين؟

أيُّها الجربوع نم بهدوء في الحفرة التي أتعبتني بحفرها أكثر مما تعبت بحفر قبر مرزوق.

النجوم في السماء!

الأحد 6 أيار:

قلت أمس للمسيو دونال:

- أريد اجازة لمدة ثلاثة أيام.

سألني بطريقة فظة:

- ألم تفكّر بالاجازة إلاَّ قبل وصول المسيو مارشان باسبوع واحد؟

- ولكنهم سرقوا الحيوان الذي ربّيته يا مسيو دونال.

وباستهزاء سألني:

- أي حيوان ومَن الذي سرقه؟

قلت له: انا أريد ان أسألك: هل يرضى المسيو مارشان ان يُسرق أحد العاملين معه؟

- ولكن مَن الذي سرقك... وأي شيء سرقوا لك؟

- لا يهم يا مسيو دونال. أريد الآن اجازة لأذهب إلى المدينة وأشتري نخلة.

قال وقد تملّكه الغضب، حتى ان غليونه سقط وانكسر: مسيو منصور... انا لن أعطيك اجازة. اذا كنت تريد ان تنزل إلى المدينة فعلى مسؤوليتك!

قتلوا مرزوقاً. سرقوا الجربوع الصغير الذي تعبت وانا أركض وراءه حتى أمسكت به. والآن المسيو دونال يرفض ان يعطيني اجازة قصيرة، اجازة لا تتعدّى ثلاثة أيام.

هل لديهم شيء آخر يستطيعون ان يفعلوه؟

الأحد 6 أيار.. ظهراً:

نظرت في عيني راؤول تماماً، كنت أريد ان اكتشف فيما اذا سرق الجربوع، تضايق من نظراتي. ان لراؤول علاقة بالأمر، وإلاً لماذا تضايق هكذا؟

سأنام الليلة هنا. لن أذهب إلى موطني الجديد، لا أحتمل ان أرى بيت الجربوع خالياً.

في الليل تطيب نفس المرء، يصبح انساناً.

وأنت يا راؤول ألم تشعر بالمرارة والحزن عندما هزمت بلادك في الحرب؟ لا أريد ان تعطيني جواباً، فأنا أعرف الجواب، لأنَّ بلادي مهزومة.

اذا لم يعترف راؤول سوف ابلغ المسيو مارشان حال وصوله. «نعم أنت المدير الكبير يا مسيو مارشان، ولا أعتقد انك تسمح بوقوع اضطهاد من أي نوع على أحد العاملين لديك. وهذا الذي تراه امامك...» وأشير إلى مسيو راؤول في عينه، «يضطهد الناس. يقول كلمات بذيئة، ويصفّر عندما يكون الناس نياماً»!

«هل تقبل ان تسود الموقع الفوضى يا مسيو مارشان؟».

الأحد 6 أيار.. ليلاً:

أنا الذي بدأت أُصفّر. نظر إليّ ريجي طويلاً ثم صرخ: يجب ان تتوقف.

- ولكن لماذا يا مسيو ريجي؟ ألم تسمع راؤول يصفّر طوال الليل؟

- ولكن راؤول يعرف كيف يصفّر، أمّا أنت... وضرب على مؤخرته ببذاءة وخرج!

«مسيو مارشان انظر بعينيك... لم يكتفوا. وهذا راؤول يفعل أشياء بذيئة لا تفعلها الحيوانات وهو نفسه الذي سرق الجربوع. لقد تأكّدت من ذلك عندما سألته:

«هل رأيت حيواناً صغيراً أصفر اللون يا راؤول؟» انقلب على ظهره من الضحك. كان يريد ان يخفي جريمته. ولكني في لحظة خاطفة عرفت كل شيء.

قال راؤول، وهو يمد رجليه مقابل وجهي:

ـ قل يا مسيو منصور. . . وحيوانك لماذا تسألني عنه؟

قلت له: ولكنه حيوان الله يا راؤول، انه ليس حيواني. انا لم أخلقه، انا مجرد مَن أمسك به. كان رقيقاً، اصفر مثل الرمال. آه لو رأيته يا راؤول!

وفجأة صرخ ينادي ريجي الذي كان قريباً من مركز القيادة يعزف على القيثار. لما جاء ريجي كنت قد انتهيت من قصة الجربوع. حكيتها كاملة لراؤول، التفت راؤول إلى ريجي وقال:

ـ ريجي يجب ان نسكر الليلة من اجل حيوان صغير رقيق، أصفر بلون الرماد، فقده المسيو منصور، وغداً قبل ان نبدأ العمل نقف دقيقة صمت حداداً على روح الاثنين معاً.

وضحكا، أمَّا انا فقد شعرت بالحزن من اجل مرزوق والجربوع، ثم تذكّرت الهزيمة، وسقطت الدموع من عيني. . .

لما رآني راؤول هكذا أبكي، هجم عليّ، واحتضنني بحنان. كنت أحب راؤول كثيراً، وأنا الآن أحبه أكثر.

أمَّا ريجي فقد صفّر لنا مارش الوداع. ونظر إليّ بعد ان انتهى وقال:

ـ أنا احب الناس.

الثلاثاء 8 أيار:

انقضت فترة طويلة لم نفكّر بالوطن يا منصور. . . هل نسيت؟

يجب ان اخترع طريقة أستطيع بواسطتها القضاء على كل شيء في الوطن: الأشجار، الماعز، الخيانة، الهزيمة، الحفر في الشوارع والبذاءة. ان البذاءة غير مستحبة!

كنت وأنا أقطع المسافة بين التلّين الشمالي والجنوبي أصفّر اللحن الذي علّمني ريجي. كانت السماء تمطر. لم أحزن وأنا

أستقبل المطر. لا أريد ان أرى الأشياء التي أمامي. ولا أريد ان أرى الوطن. لماذا لا أصبح قرداً؟ لو أصبحت قرداً لقفزت فوق هامات الأشجار. وأريد ان أصبح فيلاً. ان الفيلة قوية جداً، تستطيع ان تدوس فوق الآثار وتخرّب حدائق الملوك والأغنياء. والفيلة «غبية» لدرجة يصعب معها التفاهم! يجب أن يكون الانسان في الوطن غبياً وقوياً لكي يستطيع ان يعيش ويثري. أما اذا كان غزالاً فعليه اللعنة. يجب ان تصلب الغزلان من قرونها، ان تعلّق في الهواء وتُترك حتى تموت، لأنَّ الغزلان لها عيون ساحرة باكية، وجلودها تشبه النسيم، أمّا حوافرها فصغيرة لدرجة ان الأمطار المبكرة تغرقها.

لحن ريجي ليس هكذا. لأجرب من جديد. الأفضل ان أجلس وأصفّر. جلست.

القطارات كئيبة اذا لم يجد الانسان احداً يتحدّث معه. والنخلة لو اشتريتها لوضعتها في مدخل الموقع. عندما يراها المسيو مارشان سوف يلتفت إلى المسيو دونال ويقول له: «يجب ان نكتشف كل شيء في هذه التلال، لأنَّ النخلة رمز البركة». وقد يبول المسيو مارشان إلى جانب النخلة ناحية الجنوب.

الثعابين سوداء. الرجال عندما يتقدّم بهم العمر تصبح لهم أفكار متشائمة. الأشجار أقوى من الضفادع، الدليل انها لا تنوح. ضحكوا كثيراً أمس عندما رأوني بالبنطال القصير. قالوا: مسيو منصور طلّق الماضي.

ـ عيون منصور عبد السلام، يا مسيو راؤول، مثل الصقر، ترى كل شيء، ولكن لا تهتم بكل شيء.

ضحك ريجي. قال:

ـ انت صقر أعور.

قلت له:

ـ وأنت مؤخرة سعدان عجوز:

التفت إليّ المسيو دونال وقال:

- مَن الذي يستعمل كلمات بذيئة يا مسيو منصور؟

- مسيو دونال أليس للسعادين الصغار والكبار مؤخرات؟

هكذا قلت.

لا أعرف لماذا ضحكوا هكذا؟

الحاج الصناديقي سعدان. ابنته ابنة سعدان. انزلق إلى الهاوية. عليك اللعنة السوداء. ومرزوق ميت. سألت راؤول: هل يمكن ألاَّ يموت القتيل؟ لم يفهم أوّل الأمر، ولكن عندما سحبت الجريدة وترجمت له الخبر المنشور عن مرزوق، بدا على وجهه الأسف وقال: يجب ان تصبر يا مسيو منصور. قلت: ولكن أسألك سؤالاً غير الذي تجيبني عنه يا راؤول. غاب قليلاً ثم عاد بزجاجة كونياك. ضرب على كتفي وقال: كنت أحتفظ بها للمسيو مارشان، ولكن يجب أن نشربها الآن. . . اننا نستحقها أكثر من أي أناس آخرين!

صفرت عند الغروب، واتجهت إلى الشمال. صفّرت مرة وأنا أسير باتجاه سوق الخضار. كانت السماء تمطر. وأنا أرى المطر ينزل في بالوعة الشارع. قلت: اذهب للحقول يا مطر، وبصقت ثلاثين مرة تماماً. عددت البصقات، وأنا أسير على الشارع، بمحاذاة الرصيف، وكان بيني وبين الرصيف متر واحد فقط!

الشمس تشرق من هذه الجهة وبصقت. الشمس تغرب من هذه الجهة، وبصقت. والشمال والجنوب أين هما يا منصور؟ «اذا وقفت وأعطيت ظهرك للشمس يكون الشمال!» ولكن لن أعطي ظهري لأحد، لا أريد الشمال ولا أريد الجنوب. لن أعطي ظهري لله. مَن يعطِ ظهره مرة يعطه كل مرة، معلم الجغرافيا كان يقول لنا: لو أعطيتم ظهوركم للشمس. . . ولكن ألم يكن لديه غير هذه الطريقة الكئيبة؟ ومنذ ان سمعت بالكرة الأرضية لم أصدق، وحتى الآن، أرفض تماماً تصديق ذلك. ليقولوا شيئاً آخر، هؤلاء السادة، ليقولوا

شيئاً غير كروية الأرض. وماء المحيطات، ألا يندلق على رؤوسهم مثلما اندلقت حلة الكروش عليّ مرة؟

كُلْ هذه القطعة من اللحم. انها طرية يا مسيو راؤول، انها تشبه لحم السنام. الجمال ليس فيها سوى لحم السنام. هل وزن الجمل ألف كيلو؟ وكم ثمن الكيلو؟ ما أسعد اللحامين، انَّ لديهم لحما كثيراً، سيأكلون حتى يشبعوا، ولكن ألا يأكلون شيئاً غير اللحم..؟ ومنصور انه يريد قطعة صغيرة، صغيرة جداً، لو طلب قطعة بحجم اذن القطة لظلم نفسه، ان القطط ليس لها إلاَّ آذان صغيرة. لو أكل عشراً لما شبع. انه جائع مثل أرنب. قالوا لي ان الأرنب تمتد أسنانه لدرجة يصعب ان يتصوّر الانسان ان هذا ممكن. لم أصدّق أول الأمر، اعتبرت القصة مبالغة، ولكنني قرّرت ذات يوم ان أضع على اسنان الأرنب قطعاً من البلاستر وأرى. لم أكن أسمح لأسنان الأرنب ان تحتك ببعضها. وضعت بينها حاجزاً... وانتظرت، بعد اسبوعين كبرت أسنان الأرنب وهزل ثم مات، ولكنني تأكّدت من النظرية. كل نظرية تحتاج إلى اثباتات وبراهين! أنا لا أحتاج الى شيء أبداً. أمَّا الحديث عن السفن التي تغادر الميناء وتبدأ تنحدر في البحر، مما يدلل على كروية الأرض، فإنَّه يؤكّد شيئاً معاكساً، ان السفن عندما تبتعد، لا تُرى، ولا حاجة لأن نقول شيئاً آخر!

ومياه المحيطات يا أيُّها السادة؟ ضعوا ماء في برميل، في قدر، وأميلوه بزاوية معينة، ماذا يحصل؟ هل يراهن أحد!!؟ عندما ينسفح الماء ويتطاير سيكون جميلاً ومفزعاً في وقت واحد!

والقرود والسناجيب والتماسيح، وكل جنس الحيوان، الذي يعيش في الهواء، وتحت الماء هل يؤكّد بشكل قطعي تماماً أنَّ الأرض ليست كروية؟

هل تملكون ادلة أخرى؟

الأشجار والغزلان والضفادع والأرانب والفيلة... كل الحيوانات والنباتات الموجودة فوق الأرض تتمتع بصفات ايجابية متزايدة الأهمية والتأثير. الأرنب مثلاً لونه أسود وأبيض وبين اللونين. أمَّا الفيل... لم أرَ فيلاً إلاَّ في حديقة الحيوانات، كان يأكل الحشيش ويبول، ثم أخذ يبول ويأكل. لما غضب الحارس بصق. كيف تتناسل الفيلة، والجِمال والحيوانات الكبيرة ذات الحجوم الاسطورية؟ والحيتان؟ أريد ان أرى حوتين، ذكراً وأنثى... نعم أريد ان أرى عملية التلاقح، إنَّ منظراً مثل هذا لن يكون جميلاً، سيكون مفزعاً، الماء واليابسة، كل شيء بحاجة إلى دراسة، ولكن هل لدى الانسان وقت لأن يفكّر بكل هذه الخزعبلات التي تطفو على سطح الأرض مثلما تطفو الدمامل؟ أتساءل وأستغرب ان كل شيء ما زال في مكانه منذ آلاف السنين وحتى الآن! الأنهار تنبع من أماكن معينة وتتدفق، وفي طريقها تقابل رجالاً ونساء، ولكن لا تكترث لأحد. الأسماك تأكل من قاع النهر، أمَّا الفيلة فإنَّها تهدم البيوت وتركض في الغابات، ولكن ليس لها أسماء. كل الفيلة لها اسم واحد. تصوّروا لو كانت للفيلة أسماء؟ ماذا يمكن ان تكون أسماءها؟ والخنازير، لو ان كل خنزيرة سمت أولادها لأصبحت الأرض مليئة بأسماء الخنازير! هل تتكلم الطيور؟ وهل يفهم الشحرور على الحمام؟ واذا فهما على بعضهما فهل يمكن ان يزور أبو بريص الحية في بيتها ويتحدثان مثل حيوانين راقيين تشغلهما شؤون الحياة وآلام الغابة؟

كل شيء أصبح لونه أخضر قاتماً.. ما عدا وجه زهدي الصناديقي، فقد أتلفه الله، حوّله إلى لون أصفر كريه. وفي وقت من الأوقات سيقول النجم القطبي: أنا لست أملك ذرة من رحمة. أريد أن أدور الدورة الأخيرة وأتحوّل إلى شهاب، وليكن بعد ذلك أي شيء. عندما يقرّر الانسان ان ينتحر لا يهمه شيء، وهكذا قرّر النجم

القطبي. لا تسألوا، ان كل شيء مقدر له بداية ونهاية. أمَّا دورة الكربون في الأرض، في الطبيعة، فإنّها أعجب الأشياء تماماً. الكربون، هل فكّرت يا أيُّها الانسان السعيد بالكربون؟ حاول أن تفكّر، وحاول ان تطّلع على بعض الكتب وسوف تذهل! الكربون موجود، وضروري الوجود، ومستمر الوجود، وفي الوقت الذي ينتهي وجوده سوف تغرق الأرض بالوباء وتنتهي!

أمَّا الشيخ حازم البهبهاني فقد حجَّ السنة الماضية. كانت معه أُمّه وابنة خاله خيرية. كانوا مثل سرب الطيور. وفي يوم الثلاثاء بدأ الحج. ثم يوم الخميس أخذ الله من الحجيج كل الموتى ودفنهم في الأرض وقال للشيخ حازم أنت كبش أعرج، وانكسرت رجله. أمَّا في أيام الأعياد فإنَّ الناس يلبسون اثواباً بيضاء، يصبحون مثل المطهرين، ولكن دون آلام! ما أقسى ان يعيش الانسان وحيداً يطبّل على صفيحة فارغة ويعوي!

قالت: أريد ان أقبّلك. أريد ان أقبّلك ألف قبلة. قال أحبك مثل تمساح وأريد ان أرى ساقيك، أريد ان أرى البلور المحترق، تجاويف البطن. نظرت اليه بغنج وبصقت. قام بفرح وقال: حانت ساعة الميلاد، وخلال خمس سنين استولدها ثلاثة ذكور وبنتا وعجلاً صغيراً مات في شهره الثالث. حزن كثيراً وهو يأكل من لحم العجل، وفي تلك الليلة نام حزيناً وفي الصباح مات.

سيأتي يوم لا يفتّشون فيه عن الآثار. أمَّا الحكّام والذين يحلمون بالأبواق فلن يُتاح لهم أبداً وقت لأن يزمّروا.

منصور. الحاج منصور. اسطة منصور. منصور بك. لا منصور. وألف وأربعمائة وأحد عشر اسماً آخر مشتقاً من الصاد: صابون، صرامي، صياد، صعلوك، صاموئيل، صوص، صواص... والله أكبر والصلاة في الفجر والتراويح والموسيقى..!

مسيو مارشان... شكراً، لا تقلق، ان العمل يسير كما أمرت

والعمال مهذبون. مسيو راؤول يبصق في يديه وهو يحاول ان يرمّم الآثار الصغيرة التي نعثر عليها كل يوم! وريجي، آه لو تأكل اللحم الذي يحضره ريجي!

أمّا المسيو دونال فقد نظر إليّ بغيظ وأنا أقول للعمال: اطلبوا اجازات واذهبوا لإحضار النخيل قبل مجيء المسيو مارشان... واذا رأيتم غزالاً فاحضروه معكم.

ومرزوق... مرزوق الضحكة الشفافة بالحزن. العيون المتعبة. القلب الوردي الذي يلمع في الليل، مرزوق لا يموت. خذوه، ضعوه تحت التراب، ولكن في لحظة ينتفض، يرمي التراب، وينهض. آه لو تستطيع ان تحصل على جواز سفر يا مرزوق! ولكن ألا تستطيع ان تهرب؟ يجب ان أُفكّر بتزوير جواز سفر له. أرفع صورتي وأضع صورته ولا شيء غير ذلك ولكن كيف أرسل له الجواز؟

سأقول للمسيو مارشان كل شيء.. متى تصل يا مسيو مارشان.. لقد ضاقت روحي..؟

ـ مرزوق السبب. هل مرزوق السبب؟ مرزوق السبب. هل مرزوق السبب؟

خاتمة

تعودت منذ زمن ان أنزل في فندق نزهة الشرق كلما وصلت إلى المدينة، وقد قامت بيني وبين العاملين في الفندق صلات وثيقة، وعن طريقهم كنت أحصل على بعض الأخبار الصحفية التي جعلتني أحرز أكثر من مرة سبقاً صحفياً. ونتيجة نشاطي ورغبتي في الدقة كنت أكلف نفسي عناء ومشقة لم يعودا معروفين في الوسط الصحفي... هذه الأيام..

كنت مثلاً اذا جئت لتغطية أخبار دورة سباق الخيل، لا أكتفي بأن أحمل منظاراً مقرباً وأجلس بين المتفرجين. كنت أصل قبل بداية الدورة بيوم او يومين، وأتصل بأصحاب الخيول والذين يشرفون على المراهنات، ثم أتصل بالجوكية، وأحاول ان أعرف أدق التفاصيل المتعلقة بحياة الخيول. وفي المرحلة الأخيرة أصر على ان أشاهد الخيول بنفسي.

كنت أفعل ذلك كله، وأرسل إلى الصحيفة التي كنت أعمل فيها كل شيء يمكن أن يفيد في تغطية أخبار الدورة.

كذلك فعلت في تغطية معرض أزياء الربيع، الذي انعقد في آذار الماضي.

وفي الأمسيات كنت أجلس في ردهة الفندق أتفرج على الوجوه وأفكّر...

كانت تربطني بأدهم غالب، ابن أخت صاحب الفندق، صلات تعود إلى أيام الدراسة، وعن طريقه تعرّفت إلى أسعد مرتجي صاحب الفندق.

كان رجلاً مسناً، صلب الوجه، صامتاً، يدخن بإسراف لافت النظر، يظهر ذلك في اللون الأصفر الذي يصبغ شاربيه وأصابعه. وقد حاولت أكثر من مرة أن أدخل معه في مناقشات حول الأمور التي تشغل الناس، ولكن كنت أصطدم بموقف أقرب إلى الرفض. حتى خُيِّلَ إليّ في وقت من الأوقات، ان أسعد مرتجي لا يرحب بلقائي، ولا تشوقه مناقشاتي. وكدت أتوقف عن إثارة أية مناقشة معه، حتى كانت زيارتي هذه.

أنا أزور المدينة الآن لتغطية أخبار الرئيس الذي سيفتتح غداً المعرض الزراعي.

زرت قبل ظهر اليوم أرض المعرض، واطلعت على أغلب الأجنحة، واتصلت بالمدير وعدد من العارضين. وقد دوّنت ملاحظاتي وارسلتها قبل قليل إلى الجريدة. وغداً سوف أتابع جولتي، حتى اذا وصل الرئيس تفرّغت لتغطية أخبار الزيارة من زاوية أخرى.. أتمنى ان أحقق من خلالها سبقاً صحفياً!

لا أعرف أية أقدار دفعتني للجلوس مع أسعد مرتجي هذه الليلة!

نظر اليّ طويلاً، وهزَّ رأسه وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيه. كانت ابتسامة سخرية أكثر من أي شيء، وتأكّد ظنّي عندما سمعت صوته القاسي العميق يسألني:

ـ أية أخبار صحفية... هذه الأيام؟

ـ المعرض الزراعي. الناس ينظرون إلى المعرض باهتمام، وأعتقد أنَّك مهتم أيضاً.

ـ نعم..

وسكت قليلاً، ثم تابع بنفس اللهجة والابتسامة الساخرة لا تفارق وجهه:

ـ وغير المعرض؟

ـ لا شيء غير المعرض!

وفجأة تغيّرت ملامحه وسألني:

ـ أتتذكّر الشخص الذي سببت لنا مشكلة معه في المرة السابقة؟

وحاولت ان أتذكّر. لم تقع مشاكل. أية مشاكل يتكلم عنها أسعد مرتجي؟

ـ لا أتذكّر!

ـ الذي دلقت القهوة على ثيابه!

وتذكرت.

في آذار الماضي، عندما جئت لتغطية أخبار ازياء الربيع، رأيت في الزاوية الشمالية من الردهة، رجلاً يجلس وأمامه مجموعة أوراق. ظننته زميلاً صحفياً أعرفه، فجئت من ورائه أنظر إلى الأوراق وأفاجئه، وقد شغلتني الأوراق عن التأكّد. كانت أوراقه ملونة وبأحجام مختلفة جداً. وفجأة وجدت نفسي أضربه على كتفه ضربة قوية. أفزعته، ونتيجة الحركة اندلق فنجان القهوة! وعندما التفت الرجل كاد يغمى عليّ:

لم يكن زميلي!

كانت عينا الرجل زجاجيتين، وشفتاه ترتجفان وقد تملكه الغضب. حاولت ان أعتذر، لكني وجدت الكلمات التي استعملها باردة قبيحة لدرجة ان أسعد مرتجي خفَّ الينا بسرعة، يريد ان يقطع احتمالات سوء التفاهم. وفي لحظة جمع الرجل أوراقه وذهب دون ان يقول كلمة!

قال لي أسعد مرتجي:

ـ تذكّرت اذن؟

ـ أتذكره. . . ولكن لو رأيته الآن لما استطعت ان أميّزه. كان لقاء أنت تعرفه: سريعاً، غاضباً. . .

ـ والأوراق. . أتتذكّرها؟

ـ أتذكّر الأوراق الحمراء والخضراء. . ولا شيء غير ألوانها.

ـ لا تعرف ما كتب فيها؟

قال الكلمات الأخيرة بسخرية، لأنَّه يعرف جوابي.

ولم أجب.

ـ واذا أعطيتك الأوراق. . . هل تقرؤها وتكتب شيئاً غير هذه السخافات التي تكتبها!

غضبت. ولكن لم أستطع ان أفعل شيئاً. أسعد مرتجي، الوجه الصلب والعيون الحازمة، وأخيراً الصمت. وذاك الرجل المشكلة وأوراقه؟ كنت حائراً، لا أعرف كيف أتصرّف. وفجأة قلت:

ـ أبا ممدوح (هكذا كان اسم اسعد مرتجي) هل تريد ان تمتحنني؟

ـ أعرف انك ساقط، ولكن تُعطى عادة في سباقات الخيل. . فرصة أخيرة.

وبدون ان أستطيع المقاومة، وجدت اسعد مرتجي، يمسك بي من يدي ويقودني.

في غرفته وراء مكتب الادارة جلسنا، قال لي وهو يمد إليّ مجموعة كبيرة من الأوراق:

ـ اقرأها، ولا تسل. ولكي أظل معقولاً، وأشبع بعض هواياتك الصحفية أقول لك بعض الأشياء:

هذه الأوراق لذاك الرجل! أنت تعرفه. لا تسل عن اسمه،

وحتى لو سألت فلن أجيب. لا اتفق مع ما كتبه إلاَّ بنسبة قليلة، ولكن رأيت ان الشيء الذي قاله لم يجرؤ غيره على ان يقوله، وربما قال الأشياء التي قالها لأنَّه في حالة تدفعه لأن يقول، وقد دفع ثمن ما قاله!

كانت كلمات اسعد مرتجي صلبة غامضة. ولكن اللهفة التي أحسست بها وأنا أستلم الأوراق جعلتني أتغاضى عن كل شيء!

وفي اليوم الثاني، عند العصر، كنت أخرج إلى ردهة الفندق، وقد شعرت ان دواراً هائلاً يملأ كل خلية في نفسي. شعرت بالقرف، بالكراهية، بالجنون. وطبيعي اني نسيت كل شيء خلال هذه الساعات: النوم والمعرض الزراعي ومهنتي الصحفية!

قلت لأسعد مرتجي، وقد خيَّمت عليّ موجة سوداء:

ـ وأين الرجل الآن... يا أبا ممدوح؟

ـ عد إلى مهنتك الصحفية. اكتب عن الخيول والأزياء، فأنت لا تصلح لغيرها!

وبدون اهتمام سألته:

ـ لماذا؟

ـ اذا كنت لا تعرف بعد ان قرأت هذه الصفحات كلها... فماذا أستطيع ان أقول لك؟

ـ هل قتلوه؟

ـ القتل أهون ألف مرة مما حصل!

ـ ولكن قل لي ماذا حصل؟

ـ جاء قبل أسبوع. كان مريضا متعباً، ولكن في عينيه شيئاً مخيفاً، وما كاد يمضي اليوم الأول مرابطاً في غرفته حتى انتابني قلق غامض. أين الرجل؟ ماذا يفعل؟

صعدت. مررت بجانب غرفته، توقفت، سمعت صوتاً،

تساءلت، ولكن صرخة صغيرة أقرب إلى البكاء انفجرت تلك اللحظة.

بعد لحظات، كنت أتصل بالمسيو دونال: لقد اطلق هذا الشخص النار.. ولكن على شبحه في المرآة. وخلال نصف ساعة، جاؤوا وأخذوه.

- إلى أين.. إلى أين؟

- وأين يمكن ان يأخذوه؟

- إلى السجن؟

-... إلى مستشفى المجانين.

- والأوراق... والمسدس؟

- أمّا المسدس فقد اعطيته للمسيو دونال الذي سلّمه للشرطة!

- والأوراق... كيف احتفظت بها؟

- قلت لنفسي: ربما كانت تحوي هذه الأوراق سراً او كنزاً، وأنا منذ ثلاثين سنة أفتش عن أوراق ضائعة، كنت قد كتبت فيها اشياء أتمنى لو كانت معي الآن!

❀ ❀ ❀

أنشر الأوراق الآن. ولم أفعل شيئاً من شأنه ان يغيّر في معناها... سوى اني رفعت بعض الأسماء.. وبعض الكلمات البذيئة!

انتهى

عبد الرحمن منيف

(1933 ـ 2004)

وُلِد في عمان لعائلة من نجد وسط العربية السعودية. درس في عمان، بغداد والقاهرة.

بعد حصوله على الليسانس في الحقوق تابع دراسته العليا في جامعة بلغراد (يوغسلافيا) حيث حاز على درجة الدكتوراه في اقتصاديات النفط «الأسعار والتسويق».

سُحِبت جنسيته السعودية عام 1963.

عمل في مجال النفط في سوريا لعام 1973 حيث انتقل للعمل بالصحافة في بيروت «مجلة البلاغ» ومن ثم غادرها إلى بغداد ليصدر مجلة تعنى باقتصاديات النفط وهي «النفط والتنمية» التي كان لها صدى كبير في تلك الفترة.

انتقل في أواخر 1984 إلى فرنسا متفرغاً لكتابة الرواية بشكل كامل فكانت «مدن الملح» بأجزائها الأولى من أهم نتاجاته، وهي الرواية التي تُرجمت إلى الإنكليزية والألمانية والنروجية والإسبانية والتركية، والتي أكمل بقية أجزائها في دمشق التي استقر بها من أوائل 1987 حيث ساهم في إصدار الكتاب الفصلي «قضايا وشهادات» بالاشتراك مع د. فيصل درّاج والمسرحي السوري المعروف سعد اللّه ونوس.

عاش متنقلاً بين بيروت ودمشق حتى وفاته في 24 كانون الثاني 2004.

حصل منيف على جائزة الرواية العربية في المؤتمر الأوّل للرواية الذي نظّمه المجلس الأعلى للثقافة في مصر، إضافة إلى عدد من الجوائز الأدبية الأخرى. وقد تُرجمت معظم كتبه إلى لغات متعددة (15 لغة).

مؤلفاته

روايات

الأشجار واغتيال مرزوق، دار العودة، بيروت 1973.

قصّة حبّ مجوسيّة، دار العودة، بيروت 1974.

شرق المتوسّط، دار الطليعة، بيروت 1975.

حين تركنا الجسر، دار العودة، بيروت 1976.

النهايات، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977.

سباق المسافات الطويلة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979.

عالم بلا خرائط، رواية مشتركة: عبد الرحمن منيف وجبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1982.

خماسية مدن الملح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981 ـ 1989.

الآن... هنا، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت 1991.

سيرة مدينة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1994، وقد صدرت في طبعة خاصة عن المركز الثقافي العربي، وتضمنت رسوماً وتخطيطات لعبد الرحمن منيف، تدور حول «سيرة مدينة».

ثلاثية أرض السواد، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1999.

أم النذور، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2005.

أسماء مستعارة (قصص قصيرة)، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2006.

الباب المفتوح (قصص قصيرة)، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2006.

دراسات أدبية وسياسية

الكاتب والمنفى، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1991.

الديمقراطية أولاً، الديمقراطية دائماً، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1995.

بين الثقافة والسياسة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 1999.

رحلة ضوء، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001.

ذاكرة للمستقبل، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001.

لوعة الغياب، النشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001.

عروة الزمان الباهي، بيسان للنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 1997.

العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2003.

إعادة رسم الخرائط، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2007.

مبدأ المشاركة، وتأميم البترول العربي، ، دار العودة، بيروت 1973.

تأميم البترول العربي، بغداد 1976.

دراسات فنية

مروان قصّاب باشي: رحلة الحياة والفنّ، نشر خاص، دمشق 1996.

جبر علوان: موسيقا الألوان، دار المدى، دمشق 2000.

الأشجار واغتيال مرزوق

- الحياة... مجرد الحياة، يا صاحبي، بطولة.

نعم الحياة بطولة، ولكن دون ضجة. بطولة صغيرة يمارسها الإنسان يومياً من أجل أن يظل صادقاً وشريفاً. أما الأفكار التي حلم بها منصور عبد السلام سنوات وسنوات، وتمنى أن تتحقق في حياته فقد تحققت بالفعل، ولكن بشكل آخر، والنتائج التي يراها الآن تجعله حزيناً إلى درجة الجنون، لأنّه، في هذه الأرض التي يسمّيها وطنه، رأى أشياء لم يكن يتصور أنها يمكن أن تقع...

لقد جاع منصور وتغرّب وتعب، وهو الآن يركض وراء لقمة الخبز. نعم وراء لقمة الخبز التي تحوّلت إلى شيء يشبه السراب، أما الذين توهم أنه علق مشانقهم فما زالوا في أماكنهم، يتطلعون إلى القمر وهم يتمطون بكسل، يداعبون شعور النساء وعيونهم نصف مغمضة وقد امتلأوا خدراً من النعومة والويسكي! وفي النهار تفتح لهؤلاء أبواب السيارات، ويدققون الأرصدة مثل المرابين ليتأكدوا أن كل شيء يسير كما ينبغي!

مكتبة بغداد

ISBN 978-9953-36-241-6
9 789953 362410

المؤسسة العربية للدراسات والنشر - المركز الثقافي العربي